درب الإمبابي

محمد عبد الله سامي

رواية

t.me/qurssan

المحروسة

عنوان الكتاب: درب الإمبابي
المؤلف: محمد عبدالله سامي
مراجع لغوي: محمد حمدي أبو السعود
رسوم: مخلوف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف: -28432157 02 002

www.mahrousaeg.com
e.mail: info@mahrousaeg.com
facebook/almahrosacenter
twiter: @almahrosacenter
e.mail: mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٥٣٧٨/ ٢٠١٨
الترقيم الدولي: 978-977-313-754-0
جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة لمركز المحروسة
2019

t.me/qurssan

رواية

درب الإمبابي

محمد عبدالله سامي

طبعة المحروسة 2019

t.me/qurssan

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سامي، محمد عبدالله

درب الإمبابي: رواية/ محمد عبدالله سامي.-

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2018

355ص؛ 19.5×13.5 سم

تدمك 978-977-313-754-0

1 - القصص العربية

أ- العنوان

813

رقم الإيداع 25278/2018

t.me/qurssan

الإهداء

إلى أمي

أعلم أهل الأرض

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الأول

الفِزّة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

ببركـة صاحـب الكرامـات والأحـوال، الشـيخ المعتقـد الصالـح سـيدي "إسـماعيل يوسـف الإمبـابي" وكلّ أتباعـه وقاصـدي مقامـه. **ببركـة** أبي اللِثامـين، السـطوحي، أبي الفتيـان، السـيد "أحمـد البدوي"، الـذي أمـر تابعـه "الإمبـابي" بالتوقـف عـن رمـي الحجـارة في النهـر مـن طنطـا، لأنهـا عامـت واسـتقرت في "إمبابـة" وشـيِّدت لـه مقامًـا هنـاك، ووجـب عليـه الرحيـل. **بحـق** رحلتـه الطويلـة مـن "طنطـا" إلى "بـولاق" التـي ظـن أهلهـا أنـه جـاء ليهـدم مقـام وليّهـم ويحـل محلـه فـآذوه وضربـوه حتـى سـاقوه إلى بـر النهـر.

بحـق عبـوره النهـر فـوق "منديلـه" الـذي حملـه عـلى صفحـة ميـاه النيـل إلى الـوراق. ببركـة دعائـه "حيـدر حيـدر" الـذي نجّـاه مـن كيـد أهـل "الـوراق" حـين ظنـوا أنـه ولي جديـد هبـط ليهـدد عـرش وليّهـم، فألقـى عليهـم حولـه وهـرب منهـم، حتـى اسـتقر في "إمبابـة" بجانـب مقامـه. مـن روح أهـل "تـاج الـدول" و"كفـر

t.me/qurssan

الشـوام" و"ميـت كـردك" الذيـن اسـتقبلوه وعاشـوا بعـد موتـه في رحـاب ضريحـه، كان الحـاج "عـلي" ابـن "تـاج الـدول" سـليل عائلـة "الطوايلـة" بطـلاً لنـوادره الممكنـة.

"تَـوّ مـا عرفـت إن أبويـا رايـح مـع زملاتـه نواحـي قـصر عابديـن ورا عـرابي باشـا.. سـهّيت أمـي ولمّيـت العيـال وخرجنـا وراه.. كنـت عامـل معاهـم فرقـة عـلى قدنـا كـده.. بنتراهـن عـلى أي حاجـة وكل حاجـة بـشرط إن سرنـا مايطلعـش برانـا.. ولا حـد مـن أهالينـا كان يعـرف خـبر عـن الفرقـة دي.. ولا مخلـوق مـن بـرة الفرقـة..

ومنـين مـا وصلنـا القـصر لقينـا زحمـة وهوجـة وعـالم جـلّ المُلـك.. أبويـا تـاه منـي في وسـط الزحمـة.. والنـاس ابتـدت تهتـف وتزعـق.. اتراهنـت أنـا والعيـال عـلى الـلي يدخـل في الزحمـة ويـروح يعلّـق دبـوس في سرج حصـان أي ظابـط مـن الظبـاط.. وفي مـرة مـن المرات دخلـت وعرفـت أوصـل وعلقـت دبـوس في سرج حصـان الباشـا نفسـه.. وجريـت بسرعـة قبـل مـا العسـاكر يمسـ.."

توقـف الحـاج "عـلي" عـن الحـكي حـين تمكنـت منـه نوبـة السـعال، فأشـار إلى حفيدتـه "سـمرا" مازحًـا مـن بـين أنفاسـه المتقطعة..."مَيّـه.. مَيّـه يـا كفـرة". كان يقـضي أسـعد لحظاتـه، بعـد أن تخطـى التسـعين وفقـد معظـم بـصره، حـين يعـود مـن "قليـوب" إلى "إمبابـة"، في بيـت ابنـه الأوسـط "محيـي" بـ"مدينـة العـمال"، حيـث يجلـس عـلى الكنبـة العاليـة التـي تتوسـط غرفـة الجلـوس، فيلتـف أحفـاده حولـه أرضًـا مفترشـين الكليـم والشـلت الصغـيرة،

t.me/qurssan

ليستمعوا إلى حكايته الجديدة. يخلع عباءته الأنيقة فيظهر جسده النحيل وظهره المحنيّ من تحت جلبابه الفضفاض، يكوّر مسبحته ويضعها في سيالة جلبابه، ثم يعتدل في جلسته ويخلع عمامته لينكشف شعره الأبيض القصير، كأنه يستجدي بذلك البياض صدقًا في حكايات ونوادر غريبة هو بطلها. كان يبدأ حكايته دومًا بالكلام عن "الهوجة" التي كان له فيها باع قصير.

أنزل كوب الماء من على فمه وناوله لـ"سمرا" مرة أخرى وهو يلقي الشهادتين، ثم تعوّذ، وبسمل وحوقل، وأخرج منديله من سيالة جلبابه الأخرى، فمسح به الماء من على شاربه الكث، وما تبقى على عينيه من كحل "التوتياء[1]" الذي سلبه أغلب بصره. صمت برهة، وبدت على وجهه علامات الألم، كأن ذكرى حزينةً ما قد مرّت بذهنه، ثم أكمل حديثه..

"... بس عارفين؟ حتى بعد الهوجة ما خلصت ربنا ماعفاش عن البلد.. أصل البلد دي زي اللي راكبها عفريت.. كل عشرة خمستاشر سنة كده ربنا يرزقها بـ(فِرّة) تيجي تململ سلسلفيل أبوها.. مرة يقولوا لنا (السل) ضرب البلد.. ومرة يقولوا لنا (طاعون) وجالنا من أوروبا.. طب وإحنا مال أبونا جالنا منين؟ أهو جه واللي حصل حصل وخد في سكته عالم ياما.. إشي عيال صغيرة وبنات بكارى وشباب زي الورد كانوا بيروحوا في الفرّة زي الدومنة...".

(1) التوتياء: حجر أزرق يُكتحل بمسحوقه ليساعد على الرؤية، لكنه يؤدي إلى العمى من كثرة الاستخدام في بعض الأحيان.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

2

حـار الريـس "إبراهيـم" في أمـر ابنـه "عـلي"، حـاول معـه بـكل ما أوتي مـن حيـل ليبقيـه عـلى الالتـزام بكتّـاب الشـيخ "نـصر" الذي ألحقـه وأخـاه بـه في مسـجد سـيدي "إسـماعيل"، دون جـدوى. كان المسـجد يبعـد مسـافة دقائـق عـن المنـزل في "درب الحافـري"، قطعهـا "عـلي" عَـدْوًا في صبـاح ذلـك اليـوم، عـبر شـارع "تـاج الـدول" ثـم يمينًـا إلى شـارع "البوسـطة" ومنـه إلى السـاحة الفسـيحة أمـام المسـجد، لا لتلهفـه عـلى الوصـول إلى الكُتّـاب، فـلا اهتـمام لديـه بالـدرس ولا بالتعلـم، لكنـه لم يكـن ليـترك فرصـة يتمكـن فيهـا مـن الخـروج مـن المنـزل، ليتملـص مـن قبضـة أبيـه أو توجيهـات أمـه الدائمـة. لم يكـن يحـب الشـيخ "نـصر" ذاتـه ولا يحمـل لـه أي تقديـر، لا يـرى فيـه سـوى ذاك الشـخص الانتهـازي الـذي يحقـر مـن شـأن رجـال الديـن، ولا يهتـم إلا لأجـره الـذي يتحصـل عليـه في بعـض الأحيـان عـلى هيئـة أطعمـة ووجبـات حقـيرة.

t.me/qurssan

كانـت الخطـة التـي وضعهـا لهروبـه الأول مـن الكُتّـاب في ذلـك الصبـاح مخطوطـة بإحـكام، نفذهـا بحذافيرهـا، ثـم اجتمـع بعدهـا مـع فرقـة التحديـات السريـة خاصتـه. كان يعتـبره أصدقـاؤه العقـل المدبـر للفرقـة رغـم ضآلـة جسـده مقارنـة بأجسـادهم، لا "رجـب الشـجاع" بجرأتـه التـي تقـارب الجنـون، ولا "منـدور ختـم" بصوتـه الجهـوري ولسـانه المنفلـت، ولا أي مـن أفـراد الفرقـة، فـ"عـلي" هـو مـن يقـرر التحـدي، ويحـدد جائـزة الفائـز قبـل أن يـشرع أحـد في تنفيـذه.

تملـص مـن الكُتّـاب للمـرة الأولى في ذلـك اليـوم ليجـوب معهـم أركان الناحيـة بحثًـا عـن تحـدي اليـوم، يتصعلكـون، مـن مراكـب الكورنيـش قبالـة المسـجد إلى وكالات العربجيـة بالقـرب مـن محطـة القطـار، ثـم غاصـوا في عمـق الـدروب البعيـدة عـن المسـجد حتـى وصلـوا إلى سـوق الجـمال والزراعـات مـن خلفـه، يبحثـون عـن تحـدٍ جديـد ليعلّقـوا عليـه رهاناتهـم.

كان "عـلي" قبـل ذلـك اليـوم قـد اسـتنفد رصيـده مـن الإخفـاق، وتـردي المسـتوى، وكان الوضـع في الكُتّـاب قـد تفاقـم بالفعـل مـع ازديـاد إهمالـه للحفـظ. فحـين نفـذ خطتـه، التـي ظـن أنهـا شـديدة الإحـكام في إخفـاء أمـر هروبـه، لم تـسر الأمـور كـما كان يظـن، ولم تنطـلِ الحيلـة عـلى الشـيخ "نـصر"، أمـا مـن جانبـه، فضـلاً عـما كان يشـعر بـه الشـيخ مـن عـدم احـترام أو اكـتراث لأوامـره لـدى "علي"، فقـد تبـدى لـه في اليـوم التـالي أن تغيـب "عـلي" عـن الكُتّـاب لم يكـن لمرضـه كـما ادعـى، فاشـتد غضبـه وثـارت ثائرتـه، لكنـه قـرر أن يعطيـه فرصـة أخـيرة ليحفـظ وِرده الأسـبوعي، وإلا سـيبلغ أبـاه بحالـه ومسـتواه الـرديء.

t.me/qurssan

- طفح الكيل يا "علي".. لن تفلح إذا استمريت على هذه الحال.. ليتك تتعلم من أخيك الأصغر "الحسن".. فقد جاء اليوم حافظًا وِرده، وتلا علينا سورة "فاطر" كاملة دون خطأٍ واحد..

(محدثًا الحسن) أحسنت يا "الحسن"، جزاك الله خيرًا يا بني...

(ثم موجهًا كلامه لـ"علي") أما أنت أيها الشقي فتلك هي القشة الأخيرة.

لم يأبه كثيرًا لرأي معلمه أو لتهديده، أو لعقاب أبيه إذا ما علم بأمر إهماله للحفظ، بل زاده ذلك تحديًا للشيخ، وحضر في صباح اليوم التالي مرة أخرى دون أن يحفظ، وعليه، فاستشاط الشيخ "نصر" وما كان من أمره إلا أن أخبر أباه برُمة الأمر حين قابله في مسجد "سيدي الهنيدي" بعيد صلاة العصر، شكى مُرّه وهوّل له حال "علي"، بل وزاد الشعر بيتًا حين أخبره بشأن هروب "علي" وتغيبه عن الدرس وادعائه مرضًا لم يكن به.

خرج الريس "إبراهيم" من المسجد كالثور الهائج، يتطاير الشرر من عينيه، يسرع خطاه إلى المنزل ولا يلتفت لمن يحدثه، كان ضخمًا قويًا، ذا طبع حمئ، لا يتردد كثيرًا في استعمال كف يده في تأديب "علي" وأخيه، ولا يبدي اهتمامًا كائنًا ما كان إلا في صورة عقاب، فلما اقترب من المنزل كان "علي" يلعب مع أقرانه في العطفة، فأقبل عليه وسحبه من ذراعه في صمت، حتى صار "علي" يهرول ليلاحق خطوات أبيه الواسعة إلى المنزل وهو بالكاد يلامس الأرض، وحين دخلا المنزل أمر "أم علي" بتحضير "الفلكة" وإحضارها إلى غرفته.

t.me/qurssan

كاد قلب "علي" يتوقف من الفزع وهو يصيح بملئ فيه..

- أنا عملت إيه؟

لكن الريس "إبراهيم" لم يأبه لسؤاله، وربط قدميه في حبل الفلكة بإحكام، ثم تناول عصاها في يسراه وأخذ يمدّه على قدميه بيمناه وهو يصيح في غضب..

- طالما المسايسة مش نافعة أنا هاعرف أربيك ازاي.

توقف "علي" عن السؤال، فقد تبين له سبب العقاب، إنه الشيخ "نصر" الكريه، لا بد أنه قد نفذ تهديده، لكن سخطه لم يمنع صراخه بل علا وارتفع حتى أجهش بالبكاء.

انتهت نوبة العقاب، وغادر الريس "إبراهيم" المنزل غاضبًا، وامتنع عن الحديث إليه لأيام أخرى، إلا أن "علي" قد ازداد عناده، واشتد امتناعه عن الحفظ، حتى قرر أبوه أن يمنعه من أن يخطو عتبة باب المنزل قبل أن يُتِمَّ حفظ الوِرد، ولم يتبدد هذا الخلاف إلا بتدخل "أم علي"..

- غالب شيطانك واستهدى بالله يا بني.

- مش هاحفظ.. لو مديتوني على رجلي من هنا للمولد مش هاحفظ.

- طب بلاش عشان أبوك.. عشان خاطري أنا.

- يا سلام.. مش انتي اللي جبتي له الفلكة عشان يعبطني؟!

- وهو أنا أقدر أقول لأبوك لأ؟ حقك عليّ يا ضنايا!

- بردو لأ.

t.me/qurssan

ـ طب بلاش.. احفظ وليك عليّ أدي لك قرش صاغ بحاله يوم المولد تركب الزقازيق.

ـ قرش صاغ بحاله؟!

ـ بحاله!

لطالما كان "علي" مدفوعًا بعفويته، متحديًا لأي ظرف يظن أنه قد فُرض عليه، ورغم تميّز أخيه الأصغر "الحسن" عنه وتفوقه عليه في الكُتّاب، وإشادة أمه الدائمة بأخيه وشكواها الدائمة منه، فإنه لم يظهر أية ضغائن لأخيه، ولكن كانت تتسرب إلى قلبه في بعض الأحيان مشاعر غيرة وغضب من التزام "الحسن" الشديد وحب الناس له بلا حساب، لو أنه يخفق في ذات مرة لكان أمرًا مشوقًا! أو يقع في الشرك ولو مرة لما كان أمره مملاً إلى ذلك الحد! لو أنه كان يتنازل ليكون رفيقًا لأخيه، فيتشاركا في كل شيء، ويتقاسما متعة الأمر وعقابه، لكن هكذا خلق الله "الحسن"، وكذلك خُلق "علي"، الذي سرعان ما كان يتذكر مسؤولية الأخ الأكبر، فيدافع عنه إذا ما تنمّر عليه العيال في الدرب، ويدعوه ليلعب معه هو وأصدقاؤه "نطة الإنجليز" أمام منزلهم.

أما أمه فلم تؤثر أصولها الريفية على طبيعتها اليقظة، ولا على سعة حيلتها، لكن ذلك لم ينف عن جارتها وابنة بلدتها الست "صالحة" وصم السذاجة وقلة النباهة إرجاعًا إلى نشأتها في "كفر الشيخ". كانت "أم علي" على عكس الست "صالحة"، رفيعة العود، بيضاء البشرة، تقطر النباهة من عينيها العسليتين الصغيرتين، تضرب جاراتها المثل بنشاطها، ويضبطن ساعاتهن

t.me/qurssan

على موعد استيقاظها فجرًا. اعتادت الجلوس أمام بيتها على أحجار المصطبة، تغزل شباك الصيد كسائر جاراتها من نساء "إمبابة" و"بولاق أبو العلا"، يكملون دائرة الاحتياجات تلك التي طرأت عليهم بعد أن راجت مهنة الصيد بين عائلات "إمبابة" وانتشرت الموانئ بالقرب منهم.

جلست أمام بيتها في ذات الليلة، بعد أن انتهت أزمة "علي" مع أبيه، جلست تغزل وتثرثر مع رفيقاتها في الدرب، بينما كان "علي" يضرب العصا الصغيرة بالعصا الكبيرة خبطة ضعيفة حتى يتمكن "الحسن" من التقاطها بسهولة، ويتلكأ حينًا حتى يستطيع استباقه فيفوز عليه ويضحكا، فانشرح صدرها لما رأته من ألفة بينهما، ودعت لو أن الله يحبب قلب "علي" في طلب العلم مثل أخيه، فلن تطلب منه شيئًا بعدها.

t.me/qurssan

3

حلت الفِرّة الثالثة، فكانت "الكوليرا".

حضر الطبيب الفرنسي يومها وبصحبته تمرجي في معطفيهما الأبيضين، ومعهما اثنتان من الممرضات الراهبات بكمامتين بيضاوين، في سيارة إسعاف المستشفى القبطي الكاكية؛ حين علموا بتفشي الوباء في زقاق "أبو طويلة" بـ"درب الحافري"، وأمضوا طيلة نهار كامل قابعين على ناصية الدرب، يدخلون كل بيت من بيوت الأزِقة ليقضوا فيه قرابة نصف الساعة، ثم يخرج الطبيب ومعه التمرجي إلى السيارة ثم تتبعهما الممرضتان بعد بضع دقائق، ليجلبوا المزيد من المستلزمات الطبية لكشف آخر، ثم يدخلون البيت التالي.

كان الصمت يخيم على الأرجاء، وكان "علي" يراقبهم مع فرقته وباقي العيال من بين غابة سيقان أهالي الدرب، في

t.me/qurssan

إعجاب شديد بصمت الطبيب الفرنسي الدائم في أثناء تكرار عمله في كل بيت، وخفة حركة الممرضتين وأناقتهما في زيهما السماوي، لكنه كان متوجسًا من حالة الذعر التي اعتلت أوجه الكبار، لا يعلم لماذا يتمتم الناس "استرها يا رب" فيما بينهم، ولماذا لا يخرج أهل البيت الذي يدخله الطبيب بعد خروجه منه. حتى حان دور بيته، فصاحت عليه أمه من النافذة كي يدخل ليأخذ دوره في الفحص بين إخوته.

بدأ الطبيب بفحص أخته الرضيعة. شد جفنيها للأسفل ليرى لون عينيها في النور الآتي من النافذة، ثم لبس سماعته الطبية المعدنية فوق أذنيه ووضع طرفها الآخر فوق صدر أخته في عدة مواضع. ثم أعاد الكرّة مع التوأمتين، حتى جاء دور أخيه "الحسن". فعاود الكرة معه ولكن بدت ملامح مختلفة على وجه الطبيب حين استمع إلى صدر "الحسن"، فأمره بأن يفتح فمه ويخرج لسانه، ثم ضغط على لسانه بعصا معدنية مفلطحة ليرى حنجرته بوضوح. عض الطبيب على شفته العليا ورفع رأسه وأشار إلى الممرضة التي كانت تقف إلى يساره، فطأطأت رأسها بالقرب منه وتمتم بكلمات قليلة في أذنها، فخرجت من المنزل في عجالة كأنها ذهبت لتحضر ما طلبه منها. ثم أشار إلي "علي" ليقترب منه ليفحصه هو الآخر، فاقترب "علي" ضاحكًا، ففحصه كما فحص إخوته ولكن بدقة شديدة، حتى ظن أبوه أن هناك خطبًا ما قد لحق به، لكنه أشار إليه ليُفسح مجالاً حتى يبدأ كشفه الأطول والأدق على أمه، ثم من بعدها أبيه.

t.me/qurssan

أنهـى الطبيـب فحصـه لـكل أفـراد البيـت، وتحـدث إلى الممرضتيـن ببعـض الكلمات الأجنبيـة، ثـم خـرج بصحبـة التمرجـي، وظلـت الممرضتـان، فوجهـت إحداهـما حديثهـا بعربيـة ركيكـة إلى "أم عـلي" وطلبـت منهـا في أدب جـم أن تفصـل كل فـرد مـن أفـراد أسرتهـا في غرفـة عـلى حـدة، وألا يـارح أي منهـم غرفتـه مهما حـدث ومهـما كلّـف الأمـر، حتـى يهـل الصبـاح، فقـد ضربـت الفـرّة "درب الحافـري" في "تـاج الـدول" وبعـض مناطـق "كفـر الشـوام"، ولا عـلاج لـدى الطبيـب الليلـة سـوى منـع العـدوى.

قامـت "أم عـلي" تتخبـط وتهـرول كي تعـدّ لمبيـت تلـك الليلـة، فلـم تكـن غـرف البيـت تكفـي بـأي حـال لبيبـت كلٌ منهـم بمفـرده. لكنهـا بعـد عـدة ترتيبـات وبعـض المناقشـات مـع الريـس "إبراهيم" ارتـأت أن يبيـت "عـلي" في غرفتـه كالمعتـاد، وأعـدّت كنبـة غرفـة الضيـوف لأخيـه الأصغـر "الحسـن" كي ينـام فيهـا بمفرده، ثـم أعادت ترتيـب غرفـة البنـات لتنـام كلٌ مـن البنتيـن في سريرهـا، بعـد أن فصلـت بـين السريريـن بمـلاءة بيضـاء كبـيرة معلقـة بمشـابك فـوق حبـل مثبـت بـين الشـباك والـدولاب، كـما اتفقـت مـع الممرضتـين. أمـا أبوهـم الريـس "إبراهيـم"، فتركتـه ليبيـت في غرفتـه وحيـدًا، وانفـردت هـي بباحـة المنـزل مـع أختهـم الرضيعـة "نعمـة" كي تبـاشر طلبـات الأولاد، وتطمـئن عليهـم مـن وقـت لآخـر دون أن يخـرج أي منهـم مـن غرفتـه.

مـرّت تلـك الليلـة عـلى "عـلي" أطـول مـن المعتـاد، تمـدد وحيـدًا في غرفتـه المعتمـة يحـدق في سـقفها خائفًـا، لم يكـن يعلـم خطـورة الفِـرّة إلا حـين سـمع شـيخ الحـارة وهـو يحـكي عـن الفِـرّة السـابقة، وعمـن قتلتهـم في أيامهـا الثلاثـة، لم يكـن لديهـم عـلاج وقتهـا،

t.me/qurssan

فلـم يتمكنـوا مـن فعـل شيء سـوى الدعـاء. قبـع يتذكـر كلام شـيخ الحـارة في غرفتـه متسـائلاً عـن مصـير عائلتـه، هـل صـار لديهـم عـلاج اليـوم؟ هـل سـيرحمهم المـرض الليلـة ويؤجـل مسـعاه إلى يوم آخـر، أم سينسـاهم إلى الأبـد؟ تملكتـه مشـاعر موحشـة بـأن الليلـة هـي الأحلـك عـلى الإطـلاق، وجـرت رعشـة الخـوف في ظهـره، حتـى سـمع صـوت أمـه العـذب مـن سـاحة البيـت تتغنـى بـ"طقطوقـة" مـن تأليفهـا، تذكـر فيهـا اسـمه واسـم أخيـه وكل أخواتـه، في محاولة منهـا لطمأنتهـم..

يـا اللـي انـت رايـح للنبـي.. وحياتـه سـلم لي عليـه
وقـل لـه فيـه مسـكين هنـا.. طالـب مـن اللـه شـفاعة ليـه
طالـب مـن اللـه يهـدي لـه "عـلي".. يكـبر ويبقى سـند أبيه
و"الحسـن" يـا رب خليـه لأمـه.. زينـة الـولاد بتتباهـى بيـه
"راجيـة" و"راضيـة" بركة ديارنا.. رزق مـن الله محمود عليه
وانتي يا "نعمة" يا آخرة صبري.. يبارك لي فيكي وأشـكر إليه

غلــب النعــاس أفــكاره فنــام وســط أنغامهــا، ومــا لبــث أن أغمـض عينيـه حتـى اسـتيقظ في صبـاح اليـوم التـالي عـلى صراخ آتٍ مـن غرفـة الجلـوس، فقفـز مـن سريـره وهـرع إليهـا، فـإذا بأمـه جالسـة عـلى الأرض محتضنـة رأس أخيـه "الحسـن"، تقبّلـه وتبكيـه حيـث وجدتـه صريعًـا. تخشَّـبت قدمـا "عـلي" أمـام هـول اللحظـة وصراخ أمـه. ثـم دارت الأفـكار في رأسـه، مـاذا حـدث؟ هـل مـات "الحسـن" حقًّـا؟ هـل مـات الابـن المفضـل لـدى العائلـة؟ هـل كان هـذا ذنبـه؟ أم أن الفِـرّة التـي يتحدثـون عنهـا منـذ أيـام كانـت أقـوى مـن مهـارة الطبيـب الفرنـسي؟ لم يكـن يأبـه لـكل هـذا، فقـد

t.me/qurssan

كان يحب أخاه حقًا، لكن ما جال بخاطره ولم يستطع التخلص منه لسنين طويلة تلت، هو أن أخاه "الحسن" قد مات، ولم يتمكن هو من حمايته تلك المرة.

توالت الصرخات بعد ذلك متصاعدة من سائر بيوت الدرب، فقد علموا فيما بعد بموت الست "صالحة" زوجة جارهم الحاج "موسى" وأحد أبنائها. حتى إن محصلة الضحايا من "درب الحافري" فقط في تلك الليلة بلغت سبع عشرة ضحية بين كهل وشاب ورضيع، فأيقن "علي" أن المرض لا يؤجل مسعاه، درس لم يتعلمه بسهولة، وظل مدموغًا في قلبه لسنين وسنين، لكنه لم يكن يعلم وقتها أو يخطر بذهنه أن الموت اختار ألا يرحمهم في تلك الليلة، ولا في أي ليلة من سبعين عامًا أعقبتها.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

4

اجتاحـت البـلاد موجـة عارمـة مـن الغضـب الشـعبي لفشـل النِظـارة وقـصر العينـي في احتـواء الوبـاء المتفـشي. وفي أوج غضـب النـاس، كان لا بـدّ للحكومـة مـن إيجـاد حـل "جـذري" للأزمـة. فبعـد موقعـة "درب الحافـري" بعـدة أيـام، حـضر الشـيخ "عبـد الـوارث"، شـيخ الحـارة، إلى بيتهـم، بجسـده النحيـل وقفطانـه المنتـشي وعينيـه الثاقبتـين، ارتعـد "عـلي" لمجـرد رؤيتـه، كان الشـيخ "عبـد الـوارث" يملـك وجهـا رخاميًـا منحوتًـا بعنايـة، وعظـام وجنتيـه وجبهتـه الناتئـة كانـت تحيـط بعينيـه الغائرتـين هالـة مـن التجاعيـد الداكنـة فتزيـده مهابـة.

كان "عـلي" يشـعر بـأن نظـرة الشـيخ الحـادة تلـك تخـترق صـدره ويـرى مـن خلالهـا كل أمـر حـاول يومًـا مـا إخفـاءه، فحـين كان ينظـر إليـه الشـيخ "عبـد الـوارث"، ودون أن يتحـدث، كان "عـلي" يظـن أنـه يعلـم بأنـه هـو مـن كـسر قُلـل الحـاج "مـوسى"

t.me/qurssan

في ذاك النهـار، رغـم أن أحـدًا لم يـر "عـلي" حـين ارتطـم بالسـور وأسـقط صـف القلـل عـن غـير قصـد وركـض ليختبئ. وحـين أمعـن الشـيخ النظـر إليـه هـذه المرة، ظـن "عـلي" أنـه يعلـم بشـأن فرقـة التحديـات والمراهنـات مـع أصدقائـه، والتـي تعاهـدوا ألا يخـبروا أحـدًا بهـا، لا يعـرف "عـلي" كيـف علـم الشـيخ عنهـا، لكنـه بالتأكيـد يعلـم أمـرًا مـا بشـأنها.

أمـا مـا تحـيّر "عـلي" في تفسـيره هـو، إذا كان الشـيخ "عبـد الـوارث" بالفعـل يعلـم عنـه كل تلـك الأشـياء، فلـماذا لم يخـبر أحـدًا بهـا حتـى ذلـك الوقـت؟ لم يكـن يعلـم لـماذا يتسـتر عـلى مصائبـه، مـا زاد الشـيخ غموضًـا وهـوّل شـعور الخـوف لديـه تجاهـه.

دق بـاب البيـت وفتـح "عـلي"، فوجـد الشـيخ "عبـد الـوارث" بنفسـه يقـف بالبـاب في صمـت، يحمـل في يـده اليـسرى دفـترًا كبـيرًا مفتوحًـا، يـدون فيـه بتـأنٍ مخيـف، وبصحبتـه شـاويش ذو بطـن ضخـم مـن قسـم الشرطـة يبـدو عليـه التعـب والنعـاس، يحمـل في يـده كيسًـا أبيـض مـن القـماش. مـا الـذي جـاء بالشـيخ إلى بيتهـم؟ أقـرر أن يتخـلى عـن صمتـه ويبلـغ أبـاه بـكل مصائبـه؟ وهـل تسـتدعي أي مـن تلـك المصائـب وجـود هـذا الشـاويش؟ هـل تسـجن الحكومـة الآن الأطفـال بتهمـة كـسر القلـل؟

رفـع الشـيخ عينيـه مـن عـلى الدفـتر فـرأي "عـلي"، أطـال النظـر إليـه دون أن ينطـق بكلمـة واحـدة، فارتعـد وكاد يدفعـه ويجـري إلى الشـارع، لـولا أن عينـي الشـيخ كانتـا قـد حاوطتـاه وأمسـكتا بـه، لم يخلّصـه منهـا إلا صوتـه البـارد يقـول..

- نادي لنا على أبوك ياض يا "علي"!

t.me/qurssan

فتسمّر "علي" في مكانه وازدرد ريقه ولم يُجب، فعاود الشيخ طلبه مرة أخرى بصبر نافد..

- يللا يا ابني ورانا أشغال تانية غيركم.. نادي لنا على أبوك.

فخطا "علي" خطوة بطيئة خائفة إلى الوراء، ثم جرى إلى غرفة أبيه وأمه، وقال بعد تردد طويل من بين أنفاسه التي كاد يفقدها..

- شيخ الحارة ومعاه شاويش من التمن عايزينك على الباب يا با.

خرج لهم الريس "إبراهيم" مسرعًا، وجلس "علي" مختبئًا على الأرض خلف الكنبة العالية في ساحة البيت بالقرب من الباب، ينتظر خبر نهايته حين يخبر الشيخ "عبد الوارث" أباه بأي من تلك الأمور التي يعلمها عنه.

- البقية في حياتك يا "إبراهيم".

- لا إله إلا الله.. حياتك الباقية يا شيخ "عبوارث".

- ربنا يجعلها آخر الأحزان.

- تسلم يا آبا الشيخ.

- بتعرف تفك الخط يا "إبراهيم" ولا بصمجي زي أبوك؟

- آآآ.. لأ أنا باختم بـ...

- طب اختم لنا هنا.. والكيس ده عهدة.. مندوب من الديوان هيفوت يفتش على العهدة كل جمعة.. وإنت ماتصلّيش

t.me/qurssan

النهـارده في "سـيدي الهنيـدي".. تجـي لي في "سـيدي إسـماعيل" بعـد صـلاة العـصر عشـان أفهّمـك.

- يفتش على إيه؟ هو الكيس فيه إيه؟

- ماتفتحهوش.. ولما تيجي بعد العصر هتفهم.

- الله! ما تكلمني زي ما باكلمك يا آبا "عبوارث"!

- أنـا مـش فـاضي لـك يـا "إبراهيـم".. لسـه هنعـدي عـلى بيـوت كتـير غـيرك.. اختـم اللـه لا يسـيئك خلينـا نشـوف أكل عيشـنا.

ختـم "إبراهيـم" في الدفـتر واسـتلم الكيـس، فانـصرف الشـيخ "عبـد الـوارث" ومـن ورائـه الشـاويش، وتنفـس "عـلي" الصعـداء.

تمكـن الفضـول مـن "عـلي" بسرعـة وأخـذ يسـأل أبـاه عـما بداخـل الكيـس، فأخـبره أنـه لا يعلـم. ثـم وجـه فضولـه إلى أمـه ليحـاول إقناعهـا بـأن يفتحـوه عـسى أن يفهمـوا شـيئًا، فرفضـت وطلبـت منـه الانتظـار لصـلاة العـصر. لكنـه لم يطـق الانتظـار ففتحـه خلسـة، ولمـا نظـر بداخلـه لم يجـد إلا مقصًـا خشـبيًا كبـيرًا، فأخرجـه وأخـذ يتفحصـه ويتحسـس دمغتـة الأميريـة الغائـرة، فرأتـه أمـه وصاحـت بـه..

- يـا دي الغلـب.. مـش قلـت ماتفتحـش الكيـس! مابتسـمعش الـكلام ليـه؟

وتناولتـه منـه في غضـب وأعادتـه للكيـس ثـم التفتـت لزوجهـا في حـيرة عـسى أن يكـون قـد فهـم شـيئًا، فقـال لهـا في هـدوء كـما قـال لـه الشـيخ "عبـد الـوارث"..

- هنعرف بعد العصر إن شاء الله.

t.me/qurssan

تجمَّع خلق كثيرون بالمسجد في صلاة العصر، فكادت صفوف الجماعة الأولى -على غير العادة- تفيض عما تتحمل ساحة المسجد. أنهى الإمام الصلاة وبدأ الرجال يتحدثون إلى بعضهم عن الأكياس التي وُزِّعت عليهم، وانضم إليهم من لم يلحقهم في الصلاة، حتى إن بعض الأقباط لحقوا بهم ووقفوا بباب المسجد ليسمعوا ما يخفيه شيخ الحارة عنهم بشأن تلك الأكياس. لم يتمكن "علي" من الاقتراب من موضع الإمام حتى يستمع بوضوح لكلمة الشيخ "عبد الوارث"، فاكتفى بالجلوس بالقرب من الباب.

دعا الإمام الناس للهدوء والاستماع، فأنصتوا في صمت تام، وتحدث الشيخ لمدة خمس دقائق، لم يسمع منها "علي" إلا غمغمات وكلمات غير مفهومة، ثم ساد المرج مرة أخرى بين متسائل ومتذمر وجهول، واستمرت الاعتراضات والتساؤلات طوال ساعة كاملة، يرد عليها الشيخ "عبد الوارث" بصبر شديد، حتى أنهى كل الرجال أسئلتهم وعادوا إلى بيوتهم.

بعد خطبة الشيخ لم يكن "علي" يعلم حقيقة الأمر بالضبط، إلا أن الريس "إبراهيم" كان يعرف بالكاد ما يجب عليه فعله. كانت الحكومة تودع كل منزل "مقصًا خشبيًا" كبيرًا، وتأمرهم بأن يخرج أحد أفراد أهل البيت يوميًا بعد صلاة الفجر ليجتمع مع من خرج من جيرانه، فيتوجهوا معًا إلى ضفة النيل، ويقفوا هناك فيشكِّلوا صفًا وقت شروق الشمس، ويبدأوا في فتح وغلق مقصاتهم في الهواء بهدف "قص الوباء" من الجو، كما قال الشيخ "عبد الوارث" في المسجد.

t.me/qurssan

دربٌ جديدٌ من الغرابة لم يتحقق "علي" ابن الثالثة عشرة من جدواه، لكنه حين رأى أباه يخرج بعد الفجر مع كبار رجال الدرب بدأب والتزام كبير منذ اليوم الأول من استلام المقصات، لم يتمكن من التزام الصمت، فحديثهم لم يكن على هواه.

- متجمعين عند النبي يا رجالة؟
- اللهم اوعدنا.
- جايب مقصك يا حاج "موسى" ولا جاي تتفرج؟
- جايبه يا لِمِض.
- الله يرحم الأموات.
- اللهم آمين.
- والأحياء كمان.. يا ترى مين اللي عليه الدور!
- بس بقى يا حاج "موسى".. الواحد جتته مش خالصة.
- ولا خالصة ولا هتخلص.
- على الله تكون حكاية المقصات دي بفايدة.
- فايدة إيه يا "إبراهيم" بس خلينا ساكتين! ده أنا لولا الشيخ "عبوارث" ولا كنت خرجت من البيت.
- ليه يعني؟ وهي النِّظارة هتضحك علينا ولا إيه؟
- الله أعلم بقى.

اشترك "علي" في الحوار مندفعًا..

t.me/qurssan

أنا قلت لأبويا كده في البيت والله يا عم "موسى".

اسكت ياض انت.. إيه اللي دخلك في كلام الكبار؟

قلت له إيه يا "علي"؟

إن المقصات دي ملعوب من الشيخ "عبوارث".. والفِرّة دي مالهاش علاج.

- وهو الشيخ "عبوارث" هيعمل علينا ملاعيب ليه؟

- ابنك طلع أنصح منك يا "إبراهيم".

- اجري ياض يا ابن الكلاب روّح بلاش قلة قيمة!

ابتعد "علي" عن الجمع لكنه لم يتركهم، وظل يمشي بجانبهم بحيث يراهم ويرونه، فتابع الحاج "موسى" الحديث..

- بفِكْرك كده يا "إبراهيم" لو المقصات كانت هتجيب نتيجة ماعملوهاش في الفِرّة الأولانية ليه؟

- يمكن ماكانوش يعرفوا...

وهنا، انضم باقي الرجال إلى "إبراهيم" في رأيه، فلم يعد هناك مجال للحاج "موسى" ورجاحة عقله في الحديث.

- أيوة.. ما هم كل يوم بيلاقوا علاج جديد...

- وهو يعني المقصات دي لو كانت ملعوب.. كان هيبقى عليها دمغة النِّظارة!

- وهي الحكومة هتصرف كل الفلوس دي ليه إلا لو عارفة إن العلاج هيجيب نتيجة؟

- معلوم!

t.me/qurssan

كان الجمع قد وصل إلى ضفة النيل، وبدأوا في إخراج مقصاتهم من حقائبها، فصمت الحاج "موسى" ولم يعترض، وأخرج مقصه هو الآخر، وبدأ يلوح به في الهواء مثلهم، وآثر الانضمام إليهم كلما اتسع وقته لذلك، على ألا يعود إلى هذا النقاش مرة أخرى، أو أن يتعرض لغضب الشيخ "عبد الوارث" بأية حال، فلديه ما يكفي من أحزان يلاقيها في بيته، بينما وقف "علي" من مسافة ليست بعيدة يشاهد الطقس الغرائبي الذي استمر لما يقرب من العام، وهو يُسِر غضبًا شديدًا في نفسه من حال أبيه وباقي أهل الدرب، ويتساءل كيف لهم أن يصدقوا تخاريف مثل هذه، بل ويواظبون على فعلها بلا تَوان أو كلل، أين العقل فيهم؟ لا بد أنه قد مُسخ بمجرد علمهم أن الحكومة هي التي أقرت هذا العلاج. وأنى للحكومة أن تكذب أو تضلل مواطنيها؟ ولكن بعد عدة أسابيع، حين أصبح طقس المقصات روتينًا يوميًا، استسلم "علي" تمامًا له مثلما استسلم الحاج "موسى" من قبله، فأصبح يخرج، بالتناوب مع أبيه وأخواته، ممسكًا المقص الخشبي محملاً بغضب عارم، وقد تحول الطقس لديه إلى طريقة أخرى يقتص لأخيه "الحسن" من الـ"كوليرا" بها. حتى انتهت الفِرّة من البلاد تمامًا وأهل الناحية، بخلاف "علي" يظنون أنهم قد انتصروا عليها.

t.me/qurssan

5

كان المـرض لـ"عـلي"، عـلى طـول عمـره، قـاب قوسـين أو أدنى منـه، يتنكـر لـه في أوجـهٍ عـدة، يتـوارى في بعـض الأحيـان، يتناسـاه في أحيـان أخـرى، لكنـه قـط لم يغـب، لم ينـسَ، يشـعر بـه "عـلي" في أقـرب مـن أحبهـم، اعتـاده سـنوات عـلى صـورة مألوفـة نوعًـا مـا، ولكـن بعـد مـضي سـنوات طويـلات، اتخـذ المـرض فيهـا صـورًا مختلفـة عـما اعتـاده "عـلي"، اسـتقر عـلى صـورة قبيحـة لَكِـثر مـا أحصـت مـن أرواح، كان "الجفـاف" هـو الطبعـة الجديـدة للوبـاء.

كانـا -الجفـاف و"عـلي"- متلازمـين، حيثـما ولى وجهـه رآه، حتـى إنـه علـم مـن الطبيـب بعـد سـنوات أن الجفـاف أو قلـة الميـاه الصالحـة هـو أحـد أسـباب انتشـار "الكولـيرا" في "إمبابـة" خـلال طفولتـه. فلـم يشـهد "عـلي" في حياتـه علاجًـا للجفاف إلا في سـنوات عمـره الأخـيرة، بعـد أن تخطـى عمـره الثمانـين وصـار تاجـر أقمشـة

t.me/qurssan

عجـوزًا ذائـع الصيـت، ولكـن في "قليـوب" هـذه المـرة، وصـاروا ينادونـه "الحـاج عـلي".

وفي "قليـوب" جـاءه الخـبر هنـاك بـأن "فـردوس" زوجـة ابنـه "محيـي" قـد وضعـت حملهـا، ولـدًا ذا عينـين خضراويـن وشـعر بنّـي كثيـف، فعـاد مـن فـوره إلى "إمبابـة" ليطمـئن عليهـم ويبـارك لهـم. وحـين وصـل مـن "قليـوب" اسـتلم البـاب وأخـذ يطرقـه طويلاً إلا أن أحـدًا لم يجـب. فخرجـت جارتهـم السـت "أم نحمـده" عـلى صـوت طرقاتـه، وأخبرتـه أن "الجماعـة" في مستشـفى "الشـبراويشي"، لأن المولـود الجديـد أصابـه الجفـاف ونقـل إلى هنـاك.

انفجـر الـدم في رأسـه وتخشـبت قدمـاه وسـال العـرق البـارد مـن كتفيـه، وعقـد جبينـه وتمتـم لنفسـه..

- استر يا ستار.. مدد يا سيدي إسماعيل.

دارت الأفـكار بذهنـه ضبابيـة هـذه المرة،لمـاذا يـأتي المـرض دومًـا في أوقـات لا يملـك فيهـا المـرء مـا يـرد بـه الهجـوم إلا حزنـه ورجـاءه؟ لمـاذا يختـار المـرض دومًـا هجومًـا خسيسًـا؟. كعـادة المـرض يـضرب ضربتـه، فتعـم رائحـة المـوت في نسـمات الهـواء، كأن المـوت متفـرج في معركـة الأزل، يسـتمتع بهـا ويتمنّـى فيهـا الغلبـة للمـرض، فالغنائـم مـن نصيـب المـوت، ومـا أكـثر الأرواح التـي ذهبـت غنيمـة في جعبتـه، إلا أن "عـلي" لم ييـأس مـن قبـل، أصابـه الإنهـاك في بعـض اللحظـات، لكـن اليـأس لم يتملـك منـه قـط.

تمالـك الحـاج "عـلي" نفسـه في لحظـات، وغالـب أفـكاره، ثـم ذهـب مسرعًـا إلى المستشـفى، فوجـد ابنـه "محيـي" يجلـس عـلى دكك اسـتقبال الطـوارئ هنـاك، واضعًـا رأسـه بـين راحتيـه وهو ينظر

t.me/qurssan

إلى الأرض، كان "محيي" يشبه أباه في ملامحه ووجهه الرفيع، لكنه كان يفوقه طولاً، غير أنه اعتاد حياة الحضر واختلف عنه في هيئته وكلامه، فلما كان أبوه مزهوًا بجلبابه وقفطانه وشاربه السميك، أحب "محيي" البزة الصيفية الخفيفة بكُمّيها القصيرين، واستساغ مظهر ذلك الشارب الصغير الذي لا يغطي سواده فمه بأكمله، بل تلك البقعة التي تقع أسفل أنفه فقط، أعجبه الشارب حين رآه للمرة الأولى يزين فم "هتلر" في الصفحة الأولى لجريدة الأخبار، فآثر، مع فريق كبير من أقرانه، أن يربيه على تلك الهيئة نكاية في جنود الاحتلال الإنجليزي، ودعمًا للألمان الذين، على حد وصفه، سيخلصون مصر من الإنجليز الملاعين، إلا أنه حين انتهت الحرب، كان قد اعتاد مظهره بذلك الشارب وظل يتزين به حتى بعد قيام الثورة ورحيل الإنجليز، فصار "محيي" بهيئته وبزته وشاربه، وبعد أن شاع الصلع في رأسه، مثالاً لقالب هيئة الموظف الحكومي، ما أثار دومًا حس أبيه للتهكم والتندر.

جلس الحاج "علي" بجانب ابنه "محيي" على الدكة، ووضع كفه على كتفه..

- ربنا يصبركم يا بني ويعوضكم عنه خير.

- بس يابا فال الله ولا فالك.. الحكيم بيقول فيه علاج والحمد لله.

- يا جاه المصطفى! علاج؟ الله يطمن قلبك.

- ده كلام الحكيم.. بيقول علاج صعب بس متجرب.

- صعب صعب المهم يداويه.. يا الله يا كريم.. بركاتك يا إسماعيل يا إمبابي.

t.me/qurssan

- بيقولوا هيركبوا له محاليل في راسه.

- بسيطة إن شاء الله.. ربنا هو الشافي.

- آه والنبي ادعي له يابا!

- بادعي له!

- إنت رايح بكرة المولد؟

- مولد إيه في اللي احنا فيه ده؟

- لأ روح يا "ابو فهمي" وادعي له هناك.

ورغم صعوبة تطبيق العلاج وقتها أحس الحاج "علي" بنشوة الانتصار، إذ رأى عدوه الألد والأقدم يتهاوى على عتبات كابينات العلاج الخشبية، حيث يبقع صف طويل من الغرف الخشبية الملتصقة جنبًا إلى جنب، أشبه بوحدة عسكرية لعلاج مصابي الحرب، لا تتعدى مساحة الواحدة منها المترين، تحوي بالكاد سريرًا للرضيع وبجانبه كرسي خشبي لأمه، كابينة ذات أضلاع ثلاثة بلا سقف أو باب.

جلست "فردوس" مع رضيعها لا يحميها من ازدحام الممر سوى ستارة خفيفة تغلقها ليلاً كي تنام، واحتملت كريمة عائلة "الصياد" -رغم نشأتها المدللة وصغر حجم جسدها- النوم على ذلك الكرسي طيلة ثلاث ليال، يتناوب فيها الأطباء على غرس رؤوس إبر المحاليل في رأس مولودها الجديد بعد أن حلقوه له، كان العلاج شاقًا ولكن حقن المصل في المخ مباشرة كان الحل الفعال والأوحد للجفاف حينها.

t.me/qurssan

6

حلَّ يوم المولد.

كانت للحاج "علي" عادات خاصة في هذا اليوم، فإذا اقترب، بحث لنفسه عن رفيق يصحبه معه ويتعكّز عليه، شخص ذي قربى وثقة، يتحمل كثرة السير في الطرقات ولا يتذمر، ويحمل أغراضه دون أن يعترض. كان يبدأ يومه مع رفيقه المختار في الصباح الباكر بالذهاب لزيارة قبر والديه وابنه الأكبر "فهمي"، في مدافن العائلة في "سيدي عمر" بالأباجية، ثم يمر في طريق خروجه ليزور مقابر أخواله التي كانت بالقرب من مقابرهم، إلا أنه تلقى خبراً من ابنة خاله "تهاني" منذ أعوام بأن مصلحة الطرق قد أزالت مدافن أخواله، وكل ما حولها من البيوت التي كانت تقع على أطراف الأباجية والجبانية، أو بمعنى آخر نقلتها، في عمليات إنشاء طريق جديد سيطلقون عليه طريق "صلاح سالم"، ليربط وسط المدينة بمدينة "ناصر" الجديدة.

t.me/qurssan

فصارت زياراتـه الأخـيرة للمقابـر في يـوم المولـد تقتـصر عـلى زيـارة قـبر أبيـه وأمـه وابنـه فقـط في "سـيدي عمـر".

أمـا رفيقـه المختـار لهـذا العـام فـكان "جـلال"، ابـن ابنـه الأكـبر "فهمـي"، طالـب في مدرسـة "إمبابـة" الثانويـة، يحـب جـدّه وحكاياتـه، ويتمنـى لـو يصحبـه معـه في يـوم المولـد مـن كل عـام، فلـما أخـبره جـده أنـه سـيذهب معـه في اليـوم التـالي، طـار "جـلال" فرحًـا، وبـات يخـبر كل مـن يعرفـه بأنـه سـيذهب مـع جـده إلى زياراتـه في يـوم المولـد.

أعـد الحـاج أمـوره ومـرّ ببيـت السـت "أم جـلال" في "مدينـة العـمال" صبيحـة يـوم المولـد. طـرق البـاب طرقتـين، فخـرج لـه "جـلال" يحمـل فـوق كتفـه سَـبَتًا كبـيرًا بـه عـشرات مـن القُـرَص والشـوريك، الـذي خبزتـه السـت "أم جـلال" خصوصًـا ليوزّعـه الحـاج في المدافـن عـلى أهـل الأباجيـة وأقاربهـم الذيـن يـزورون في يـوم المولـد مثلـه.

ركبـا أوتوبيسًـا مـن موقـف "الكيـت كات" إلى موقـف القلعـة، ثـم أكمـلا رحلتهـما سـيرًا إلى الأباجيـة، ومنهـا إلى مدافـن "سـيدي عمـر"، كلـما قابـلا فقـيرًا أو قريبًـا أعطـاه الحـاج مخبـوزًا مـن السَـبَت، أو مبلغًـا مـن المـال، كيفـما اتّفـق. حتـى وصـلا إلى مدفـن عليـه شـاهد حجـري كبـير يحمـل اسـم "آل أبـو طويلـة"، وعـدة أسـماء مـن مـوتى العائلـة، وفي أسـفل الشـاهد يظهـر نقـش يبـدو أنـه قـد نُقـش حديثًـا، "وفهمـي أبـو طويلـة". جـاء لهـم الـتُّرَبِيّ بكرسـيين وكوبـين مـن الشـاي، فجلـس الحـاج والتقـط أنفاسـه وأمـر

t.me/qurssan

"جلال" بوضع السَبَت على الأرض والجلوس، ثم أشار إلى اسم "فهمي" على الشاهد وقال له..

- اقرا الفاتحة لأبوك وادعي له.. شال الهم وهو صغير.. ربنا يسامحني!

فرفع "جلال" يديه دون أن يرد، وبدأ في وصلة الدعاء وقراءة الفواتح، ورفع الحاج هو الآخر يديه فدمعت عيناه قليلاً ثم هدأت نفسه. ثم همّ بالوقوف مرة أخرى وأشار إلى "جلال" ليحمل السَبَت الذي كادت مخبوزاته تنفد.

صار السَبَت خفيفًا وحمله سهلاً، فحين عادا إلى "إمبابة" لم يكن تجول "جلال" مع جده في الدروب المحيطة بسيدي "إسماعيل" صعبًا، كانا يمران ليزورا كل من كان يعرفهما من فقراء، فيعطيهم الحاج مما تبقى من مخبوزات ومعها ما تيسر من نقود. حتى ظهر على مرأى منهم في شارع "تاج الدول" دكان بقالة كبير بلافتة خشبية "بقالة تودري"، فاتكأ على كتف "جلال" وأبطأ في خطاه وبدأ يحكي عنه..

"شايف؟ (تودري) ده هو وأخوه (لويجي) تجّار طلاينة.. جُم (إمبابة) من ييجي أكتر من تلاتين سنة وفتحوا تجارة كبيرة.. وبعدها بكام سنة اختلفوا واتخانقوا وفضوا التجارة.. (تودري) اشترى نصيب أخوه في المحل.. قام (لويجي) خد محل تاني قدام شوية في الشارع هنا برضه.. وبقوا يضاربوا بعض في التجارة ويخطفوا زباين من بعض.. من يوميها وهم مقاطعين بعض..

t.me/qurssan

الأفكـه بقـى إني كل مـا آجـي أسـلم عـلى (تـودري) ألاقيـه يفضـل باصـص عليـا بعـد مـا أمـشي عشـان يتأكـد إني مـش هـروح أسـلم عـلى (لويجـي) أخـوه.. أقـوم أنـا أمـشي لآخـر الشـارع وأرجـع بعدهـا بشـوية لـ(لويجـي).. وأول مـا أدخـل عليـه لازم يسـألني أحسـن أكـون جـاي مـن عنـد (تـودري).. ماحـدش فيهـم يعـرف إن في ود بينـي وبـين أخـوه عشـان مـا أخـسرش حـد منهـم..

الطليـان دول دماغهـم مقفّلـة أكـتر مـن الصعايـدة واللـه.. ويـوم مـا يتـزرزروا إوعـاك تقـف قدامهـم".

أنهـى الحـاج زياراتـه واصطحـب "جـلال" ليشـتري حلـوى المولـد مـن شـادر "محـب". كان قـد أعـد قائمـة المشـتروات قبـل ذلـك بيومـين، عروسـة حـلاوة لـكل فتـاة مـن فتيـات العائلـة، وحصـان حـلاوة لـكل ولـد، وعلبـة حلـوى لـكل بيـت مـن بيـوت أبنائـه الخمسـة. هـذه العلبة لـ"محيـي"، وتلـك لـ"إبراهيـم"، ومثلها لـ"نظاكـة"، أمـا الأخـيرة لـ"رحيـم"، فـ"رحيـم" لا يحـب الملـبن وأبناؤه مثلـه لا يأكلونـه، ثـم حمـل العلبـة الخامسـة وناولهـا لـ"جـلال" وقـال لـه..

- ودي بقـى ليكـم انتـو يـا "جـلال".. قـول لأمـك جـدي بيقـول لـك كل سـنة وانتـي طيبـة.. ماتخافـش مليانـة فوليـة.

ثـم عـادا ليـزورا بيـوت أبنائـه ليـوزّع علـب الحلـوى عليهـم بنفسـه. كان الاحتفـال بالمولـد بالنسـبة إلى عائلـة "أبـو طويلـة" بالأخـص، ولـكل أهـالي "إمبابـة" بشـكل عـام، هـو يـوم مولد سـيدي "إسـماعيل" وليـس يـوم مولـد النبـي كعـادة عامـة أهـالي القاهـرة.

t.me/qurssan

كانـت العـادة قـد جـرت أن ينهـي الحـاج زيارتـه ببيـت "محيـي"، يتنـاول معـه الغـداء هنـاك وينـال قسـطًا طويـلاً مـن النـوم حتـى يسـتعد لليلـة المولـد. لكـن مـرض حفيـده الجديـد الـذي منـع "محيـي" مـن أن يرافقـه في رحلتـه الصباحيـة تلـك بـدلاً مـن "جـلال"، هـو مـا جعـل الحـاج يغـيّر جدولـه في توزيـع صناديق الحلـوى، ليكـون منـزل "رحيـم" بالقـرب مـن سـيدي "إسـماعيل" هـو آخـر زياراتـه. فتنـاول هنـاك غـداءه مـع "رحيـم" وأسرتـه، ودخـل إلى غرفـة الأولاد ليأخـذ قيلولتـه، ثـم اسـتيقظ نشـيطًا بعـد صـلاة المغـرب ليسـتعد للذهـاب إلى المولـد.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

7

نـزل الحـاج "عـلي" مـن بيـت "رحيـم" مرتديًـا جلبابـه الأبيـض الناصـع وعمامتـه الصفـراء، وعـلى كتفيـه قفطانـه الفخـم المصنـوع مـن الصـوف الإنجليـزي، ثـم عَـبَر بيـوت عَطفـة "أبـو طويلـة" الأربعـة متكئًـا عـلى عـكازه ذي الـرأس العاجـي إلى "درب الحافري"، ومنـه إلى شـارع "تـاج الـدول" الواصـل مـن كازينـو "الكيـت كات" وإلى شـارع "البوسـطة"، وقبـل أن ينعطـف مـن شـارع "البوسـطة" إلى السـاحة الشاسـعة أمـام مسـجد سـيدي "إسـماعيل"، بـدأت فـروع لمبـات المولـد في الظهـور، وصاحـت الابتهـالات والتواشـيح تعلـو مـن الميكروفونـات المعلقـة عـلى الأعمـدة.

خـرج إلى السـاحة الكبـيرة فانتابتـه رجفـة الحنـين إلى مـولاه الشيخ "إسـماعيل"، شـعر بألفـة معهـودة لامتزاجـه مـع أمـواج المريديـن ومجاذيـب الشـيخ، ألفـة لا يشـعر بهـا إلا في ذلـك اليـوم وبـين هـؤلاء البـشر. يمكنـه أن يفعـل مـا يحلـو لـه دون أن يلقـى

t.me/qurssan

بـالاً لمقامـه أو مظهـره. يحـرك رأسـه يمنـةً ويـسرةً مـع مجموعـة مـن الموشـحين الواقفـين تحـت الصـوان الكبـير المنصـوب، ويـردد معهـم "اللـه حـي.. اللـه حـي". يبـكي موتـاه، أخـاه "الحسـن" الـذي تركـه صغـيراً للكولـيرا دون أن يودعـه، ابنـه "فهمـي" الأكـبر الـذي سلبه إيـاه السـل قبـل سـنوات. ينعـى أبنـاءه وأبنـاء أبنائـه الذيـن راحـوا ضحايـا الجفـاف دون أن يحـرك سـاكنا ليدافـع عنهـم. ظـل يذكـر فيبـكي، ينعـى فينـوح، حتـى خـارت قـواه وأنهـك فكـره، فانجـلى عقلـه. ثـم تـرك زمـرة الموشـحين تحـت تلـك الخيمـة مُتعبًـا ليجـول في المولـد.

عـلى الجهـة المقابلـة للمسـجد كانت قـد نُصبـت بعـضُ الزقازيق والمراجيـح المراكـب التـي يـبرع الأطفـال في ركوبهـا، حتـى إن بعضهـم يسـتطيع أن يـدور بهـا دورة كاملـة، يتهافـت العيـال عليهـا ليشـكلوا صفًّـا كلٌّ في انتظـار دوره. وقــف رجـل في وسـط السـاحة أمـام لوحتـين كبيرتـين مثبـت بهـما عـشرات مـن "البومبـات"، ويحمـل بـين يديـه ثـلاث بنـادق رش، ينـادي بصـوت منغّـم..

"خمس طلقات بتعريفة.. قرّب.. نشّن.. جرّب"

فيزاحمـه النـداء رجـل آخـر يقـف أمـام منضـدة عليهـا زجاجات بنيـة صغـيرة لهـا أغطيـة خشـبية، يلتـف حولـه النـاس ويتزاحمـون فينــادي الرجل..

"شربة الحصان، لو عاوز تتجوز على مراتك قرّب...
دهان البدوي، لو ركبك مشخللة قرّب...
قطرة نظير، لو مش شايف الملايات اللي ماشية قرّب...
قرّب قرّب قرّب"

t.me/qurssan

المولد يعج بالمنتجات المعيبة والعلاجات الوهمية، لكن الحاج "علي" كان يحب أن يستمع إلى نداءاتهم المضحكة، ويشتري منها في بعض الأحيان ليتندر عليها فيما بعد مع ابنه "محيي".

وبعد أن أنهى جولته وأخرج كل الأفكار التي أطاحت برأسه في جلسة الذكر مع المجاذيب، اتجه إلى وجهته الأصلية، إلى المسجد، ليصلي ويقرأ الفاتحة ويدعو الشفيع. اقترب من بوابة المسجد الخضراء فرأى امرأة عجوزًا كان يراها تجلس على باب المسجد سنوات طويلة، لكنه لم يتحدث إليها من قبل، تبدو ببشرتها السمراء ودق الوشم في مقدمة رأسها كأنها بدوية من الجنوب، ولما رأته ينظر إليها كأنه يعرفها أمسكت ذراعه بقوة واتسعت عيناها الكحيلتين، فارتعد من مظهرها وعاد خطوة صغيرة للوراء، فأحكمت قبضتها فوق ذراعه وقالت بحدة..

"جُم من كام سنة لجل ما يشيلوا المقام..

جابوا معاهم غول حديد ما يقدر عليه غير الكريم ابن الكرام..

وتَوّ ما داسوا أرض الساحة وهدّوا البيبان المستباحة..

نزل نور عالي من السما وطار المقام..

رجع البشر.. هربوا لورا..

سحبوا معاهم غول حديد.. مهزوم بعيد..

قام رجع المقام مطرح ما كان..

وأنا جيت هنا

وحلفت ما أفارق أرضنا

أحسن يعاود الغول"

t.me/qurssan

كانت قصة محاولة الحكومة إزالة المقام بالبلدوزر معروفة بين أهل "إمبابة"، لكنه لم يكن يعلم مدى صحتها، كان يسمع عن بركات الشيخ، لكن هل حدث هذا بالفعل؟ كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها البدوية تتحدث، والمرة الأولى التي يحكي فيها أحدهم أنه رأى الحادث بعينيه. لكن أهم ما كان قانعًا به أن المقام حصين، مهما عصفت به المكائد ومر عليه الزمن، حصينٌ ضد الغزاة والسارقين، منذ أن استقرت حجارته هنا من طنطا. فأعطى العجوز قرشين صاغ، وربت يدها التي كانت لا تزال ممسكة بذراعه وقال لها..

- ربنا يبارك فيكي يا حاجة...

ثم خلع نعليه ودخل المسجد.

t.me/qurssan

8

على الرغم من الزحام والزخم الشديد خارج المسجد، فإنه حين دخله لم يكن مزدحمًا، فتقدم حتى وقف في الصف الأول وصلّى ركعتين تحية لمسجد الشيخ، ولما أنهى صلاته اتّكأ على عكازه حتى وقف واقترب من السور الخشبي القصير المحيط بالمقام، فلاحظ أن كسوة المقام قد تغيّرت، لم يتغير لونها لكن تلك الكسوة كانت بالقطع كسوة جديدة، فهو يحفظ نقوش الكسوة القديمة بتفاصيلها.

خلع قفطانه وعمامته ووضع عكازه أرضًا، ثم جثا على ركبتيه مرة أخرى ووضع يديه فوق السور الخشبي ونظر إلى الأسفل، فبدأت الأفكار تعصف برأسه ثانية، هل آلت حكايته إلى نهايتها؟ هل قرأ رسالات ربه بطريقة صحيحة؟ هل هزمه المرض أم انتصر هو عليه؟ هل سيودي بحياة حفيده أم سيعيش؟

t.me/qurssan

نعـم إنـه حفيـده الأصغـر، هـذا هـو سـبب مجيئـه هنـا مـن الأسـاس، ليدعـو لـه بالشـفاء ويتبـارك بقـوة الشـيخ "إسـماعيل" وحولـه، فبـدأ دعـاءه..

"يـا صاحـب الـبركات... اللهـم اشـف (شرف) ابـن (محيـي) ببركـة عبـدك المبـارك وحبيبـك (إسـماعيل).. يـا رب نجيـه مـن الـلي فيـه لجـل خاطـر أمـه الغلبانـة.. بحـق هـذا المقـام اللهـم اجعـل الشـفا في العـلاج ده.. ويكـون ناجـز شـافي ومايروحـش مننـا زي الـلي راحـوا!

وأمانــة عليـك يـا شـيخ لتخـلّي (فاطمــة) تـرضى عنـي.. وتسـامحني لـو زعلتهـا في حاجـة.. ويـا رب قـدّر (محيـي) عـلى الحِمـل الكبـير الـلي أنـا بليتـه بيـه.. أنـا جيـت عـلى ولادي كتـير بـس انـت أعلـم بالـلي في نفـسي ونيتـي".

عـاد الحـاج "عـلي" إلى مستشـفى "الشـبراويشي" في صبـاح اليـوم التـالي، وجلـس بجانـب ابنـه "محيـي" على دكك اسـتراحة الاسـتقبال، بعـد أن دخـل حفيـده طـور التعـافي، جلـس يفكـر في ذلـك العـلاج الجديـد، وكـم تأخـر في الظهـور، كيـف انتظـر العـلاج كل تلـك السـنوات وتركـه أعـزل لصراعـه مـع الجفـاف. لم تكـن هنـاك أمٌّ مـن نسـاء العائلـة قبـل ذلـك الوقـت إلا وكانـت قـد فقـدت وليـدًا لهـا، أو اثنـين، وفي بعـض الأحيـان، مثـل "فـردوس" نفسـها، ثلاثـة أطفـال في صراع مـع الجفـاف، وكـم مـن عائلـة قبـل ذلـك الوقـت قـد فُقِـدَ لهـا طفـلٌ، ولم يُسـمع عنـه خـبرٌ بعـد أن دُفـن ذكـره في طـي صراعـات الجفـاف.

t.me/qurssan

كان مـوت الأطفـال فاجعـة عائلـة "عـلي أبـو طويلـة"، كغيرهـا مـن عائـلات "إمبابـة"، في فـترة طفولتـه وشـبابه ورشـده، كأن المـرض هـو الحائـل دون الهـدف الـذي خلـق اللـه الإنسـان مـن أجلـه، فـإن كان المـرض حقًـا يحـاول منـع إتمـام رسـالة بنـي آدم في الأرض فـذاك تحـدٍ لا يملـك "عـلي" إلا قبولـه، حتـى إن لم يكـن يملـك أي سـلاح لمواجهتـه سـوى أن يفوقـه عـددًا، فبقـدر مـا أخـذ المـرض منـه ومـن أهلـه مـن عيـالٍ، سـيأتون بغيرهـم عـسى أن يخـرج مـن نسـله مـن يتغلـب عليـه، فيعمـر الأرض حقًـا ويُتِـمّ النبـوءة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني

الميناء

t.me/qurssan

t.me/qurssan

9

بلـغ "عـلي" الحُلُـم. لم تتغـير ملامحـه لكـن كـبُر أنفـه واتسـعت فتحاتـه. ازداد طـولاً عـلى مـا كانـت تتوقـع أمـه، لكنـه احتفـظ بعينيـه البنيتـين الواسـعتين وشـعره الداكـن المجعـد، واحتفـظ بهالـة الجـذب التـي صحبتـه منـذ صغـره وحتـى شـيبته، كان شـابًا وسـيمًا غـير أن وسـامته لم تـرق لـه وقتهـا، فـكان جسـده يـدق أبـواب الرجولـة تـاركًا عقلـه في عالمـه الطفـل السـاذج، وصـار انحصـار يومـه بـين اللعـب في الـدرب مـع أقرانـه، ومحاولاتـه الضعيفـة للحفـظ والاسـتمرار في الكُتّـاب، أمـرًا مزعجًـا لا يطيقـه أبـوه، لا يفتـأ يذكّـره بـه بالعقـاب تـارة وبالنصـح تـارة، حتـى سـمع أبـاه ذات ليلـة -عـاد هـو فيهـا إلى البيـت متأخـرًا- يخـبر أمـه في غضـب..

- هـو لسّـه واصـل؟ الـواد ده إمـا يشـتغل في المينـا وإمـا يشـتغل عنـد الحـاج "رضـوان" في الوكالـة.. لـو سـبناه كـده يخيـب وعيـاره يفلـت.

t.me/qurssan

فاستفاق "علي" من غفوة نعيم الطفولة الذي كان يبحر فيه دون أن يدري، وأيقن حقيقة الحياة التي أصر أبوه أنه قد آن أوان اعتراكها. بات يومه ذاك مهمومًا بصعوبة الاختيار، غارقًا في حيرته، هل يختار العمل الملول الذي لا يعرف عنه شيئًا في وكالة الأقمشة، أم يختار الميناء وظروف العمل المضنية التي يعاني منها العمال هناك، والتي كان يسمع والده يشكو منها باستمرار؟

إلا أنه كان قد اتخذ قراره بالفعل دون أن يدري وعن طريق الصدفة قبل تهديد أبيه بعدة أيام، حين ذهب ليتأكد، مع فرقته، من شائعة كانت قد انتشرت في البر كله، وهي أن الميناء تسكنه أشباح تظهر فور انتهاء ساعات العمل وانسدال ستائر الظلام، فتُلاعِب الخفر وتطاردهم حتى تطردهم، وأن ذلك هو السبب في تغيير خفير الميناء مرارًا.

"خَدنا مركبين أنا والعيال من يمّتنا كده وعدينا اليمّة التانية عند مينا الصيد اللي في روض الفرج، اللي أبويا كان شغال فيها لما سمعنا عن العفاريت اللي هناك..

وقفنا بمركب منهم على أول المينا من يمّة الميَاه عشان الغفير بيبقى قاعد من يمّة البر.. كل رهان كان لازم يكون فيه دليل.. صاحب الرهان بيجيبه عشان يثبت إنه حقق المطلوب وكسب الرهان.. اتراهنّا يوميها على اللي يدخل المينا بالمركب التانية ويقص حتة من طرف أي شبكة صيد ويرجع لنا بيها..

t.me/qurssan

الـواد (رجـب) كان أسـمراني وجِـرِم كـده.. واخـد الدنيـا عـلى صـدره شـوية.. ويفـرد كتافـه ويتحمـق عـلى أي رهـان حتـى لـو كان مـن غـير فلـوس خالـص.. قـام خـد بعضـه ونـط في المركـب وركبنـا كلنـا المركـب التانيـة ودخـل لوحـده المينـا وسـط المراكـب.. فضلنـا قاعديـن منتظرينـه يطلـع يجـي نـص سـاعة وهـو مـا بيظهـرش.. وشـوية ولقينـا ريـح جامـدة هبـت.. والمراكـب ابتـدت تخبّـط في بعضهـا وصـوت صفافـير جامـد.. قعدنـا ننـادي عـلى (رجـب).. مـا بـيردّش.. نزعـق جامـد (ارجـع يـا رجـب البحـر قـام علينـا لازم نرجـع يـا رجـب).. مافيـش.. بصينـا لبعـض في المركـب كـده.. بعيـد عنكـم الندالـة لبسـتنا كلنـا.. ومـن غـير مـا نتفـق واللـه هـوب رهـوان بالمركـب عـلى (درب الحافـري).. بـس ماكانش ينفـع نرجـع الـدرب مـن غـيره.. فضلنـا قاعديـن منتظرينـه عـلى الناصيـة لحـد الفجـر مـا أذّن.. مـا رجعـش...

تـاني يـوم رحنـا لـ(رجـب) البيـت سـألنا أمـه قالـت لنـا إنـه رجـع وش الصبـح ودخـل أوضتـه نـام مـن غـير ولا كلمـة.. ادخلـوا لـه شـوفوه ينوبكـم ثـواب.. دخلنـا لـه لقينـا شـكله مخطـوف وأول مـا شـافنا اتاخـد كـده بـس حـاول يخبّـي إنـه خايـف.. ومـا رضـاش يحـكي لنـا الـلي حصـل.. كل الـلي قالـه إنهـم طلعـوا لـه وإن هـو برضـه عـرف يجيـب حتـة الشـبكة، وورّاهـا لنـا..

رجـب فضـل طـول عمـره يخـاف يركـب مراكـب أو يقـرب مـن المينـا مـن ليلتهـا".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

10

اصطحـــب الريـــس "إبراهيـــم" ولـــده "عـــلي" إلى وكالـــة الحـاج "رضـوان" ليبـدأ يومـه الأول مـن عملـه هنـاك، وفي طريقهـما إلى "كفـر الشـوام"، حيــث كانــت الوكالــة، لم يخطــر ببــال "عــلي" ســوى صــورة صديقــه "رجــب" الشــجاع، وهيئتــه المخيفــة صبــاح اليـوم التـالي لحادثـة "أشـباح المينـاء" وهـو يقـول لهـم "طلعـوا لي والكعبـة الشريفـة"، هـل رآهـم "رجـب" حقًـا، أم خُيـل لـه رؤيتهـم، أم أنهـا مجـرد بطولـة جديـدة اختلقهـا ليضمهـا إلى تاريـخ بطولاتـه الحافـل؟ عـلى أيـة حـال لم يكـن "عـلي" ينـوي، ولـو بدافـع الفضول، أن يختـبر صحـة قصـة صديقـه "رجـب الشـجاع"، فقـد أخـبر والـده أنــه اختــار الوكالــة عــلى المينــاء، وهــا هــو الآن في طريقــه إليهــا.

كانــت الوكالــة تبعــد مســافة لا تزيــد عــلى عــشر دقائــق ســيراً عــلى الأقــدام مــن "درب الحافــري"، رأى "عــلي" لافتتهــا الخشــبية البيضـاء مـن بعيـد، "وكالـة الحـاج رضـوان وأولاده لتجـارة وصباغـة

t.me/qurssan

الأقمشــة"، وكالــة كبــيرة تعتــلي مســتوى الشــارع بدرجتــين مــن الحجـارة، لهـا بابـان، كل بـاب منهـما لـه درفتـان كبيرتـان، دخـل وأبــوه مــن أحدهــما، فحاوطتهــم الأثــواب الملفوفــة بعنايــة عــلى الأعـواد الخشـبية المتوازيـة التـي تغطـي كل حوائـط الوكالـة، رفـع "عـلي" رأسـه ليبلـغ بنظـره قمـة الأثـواب التـي كانـت ممتـدة لا يقطعهـا إلا السـقف الشـاهق، فانفـرج فـوه مبهـورًا، فنظـر لـه أبـوه وابتسـم وتركـه في تأملـه لأبعـاد الوكالـة، ثـم صعـد درجتـين أخريـين حتـى يصـل إلى مكتـب الحـاج "رضـوان" الـذي كان يتوسـط الوكالـة، لـيرى منـه كل ركـن فيهـا.

جلـس الحــاج "رضــوان" بقفطانــه الأنيــق وطربوشــه القاتــم، ولاسَـته التـي لا تفـارق كتفـه، يتحـدث للريـس "إبراهيـم" قليـلاً، ثـم قـام مـن مقامـه فبـدا كجبـل يتحـرك، عملاقًـا يفـوق "إبراهيـم" طـولاً وعرضًـا، يـزدان بكـرش ضخـم يزيـده وقـارًا وأناقـة، لم يكـن لأبيـه مثـل ربـع هـذا الكـرش، يقبـع فـوق قمـة هـذا الجبـل وجـهٌ دائـريٌ بشـوش ينبـئ بطيـب خلـق مريـح لم يعرفـه "عـلي" في أبيـه. قـال الحـاج "رضـوان" بصـوت عـالٍ وهـو يضـع يـده فـوق كتـف الريـس "إبراهيـم" كأنـه شـقيقه الأصغـر..

- تـوكل عـلى اللـه انـت يـا "إبراهيـم" يـا دوب تلحـق شـغلك.. "عـلي" ابننـا ماتقلقـش عليـه.

هـمّ الريـس "إبراهيـم" بالذهـاب لكنـه مـال عـلى "عـلي" قبـل أن يغـادر وتمتـم..

- راعـي ربنـا في شـغلك يـا "عـلي".. والحـاج "رضـوان" زي أبـوك تمـام.. إوعـى تقـصّر رقبتـي معـاه.

t.me/qurssan

بـدأ "عـلي" في تحســس أركان الوكالـة والتعـرف إلى الصبيـة والعاملين، ومـرت السـاعات الأولى مـن اليـوم ببـطء شـديد. يحمـل الطلبـات للزبونـات. يكنـس قصاصـات الأقمشـة والخيـوط مـن بـين أرجـل السـيدات. حتـى كاد الملـل يتمكّـن منـه، لـولا أن دقـت نوبـة الغـداء. فـكان يسـتعد مـع باقـي الصبيـان لتنـاول غدائـه، فرآهـا، كانـت تحمـل صينيـة الطعـام المغطـاة بقطعـة كبـيرة مـن القـماش، تتمايـل عـن غـير قصـد، جميلـة الطلـة، صبغتهـا الأنوثـة بمـا يحـرّك سـواكن الرجـال ولا يعكـر صفـو قلـوب النسـاء، تلمـع عيناهـا بذكاء متّقـد ملحـوظ، إنهـا الابنـة الصغـرى وقـرة عـين الحـاج "رضـوان". لم يعلـم "عـلي" أن أول يـوم لـه كصبـي في الوكالـة كان يخبـئ لـه أكـثر مما أسـمعوه وعلّمـوه عـن إعـادة ترتيـب الأقمشـة في المخـازن، وتنظيـف الوكالـة، وابتيـاع بعـض الطلبـات ولـوازم العمـل؛ كان اليـوم يخبـئ لـه "فاطمـة".

تسـمّر في مكانـه وتعلقـت بهـا عينـاه، وظـلّ يكنـس بقعـة واحـدة مـن أرض الوكالـة دون أن يرفـع نظـره عـن "فاطمـة"، أَسَرَتـه طلتهـا ولم تطلـق سراحـه، طـارت خيالاتـه إلى تلـك الحسـناء الـذي دخلـت للتـو...

"أيـدري أهلهـا أنهـا بهـذا الجـمال؟ أيفطـن الحـاج أنهـا يومـا مـا ليـس ببعيـد سـتذيب قلـوب رجـال أشـداء؟ أيعـرف أني سـأطيل التفكـير بهـا؟ أهيـم فيهـا؟ بالطبـع لا، وإلا لمـا سـمح لهـا بمخالطـة البـشر، وزيـارة فكـر كل مـن رآهـا قبـلي، هـل ينظـر إليهـا كل الصبيـة كـما أنظـر إليهـا الآن؟"

t.me/qurssan

لم يتنبـه إلى حالـه إلا حـين لكـزه أحـد زملائـه في كتفـه حتـى يفيـق، فتنبـه، وأكمـل عملـه وهـو يتخطـف نظـرات سريعـة إلى وجههـا الهـادئ الأخـاذ، متعلقًـا بـين طـرف عينيهـا الكحيلتـين وطـرف البرقـع الـذي كان يتهـدل أحيانًـا فيكشـف عـن وجنتهـا الخمريـة، حتـى اسـتدارت فوجهـت نـور عينيهـا إليـه، نظـرت إليـه، رأتـه، لم تشـح بنظرهـا عنـه، قرعـت الطبـول في صـدره، أحالتـه إلى "علـيّ" غـير الـذي كان، فَرْد حـمام بقلـب سـبع وجناحـي نـسر، لـن يحـط عـلى أسـطح أخـرى بعدمـا حلـق وارتفـع.

كـسر الحـاج "رضـوان" الصمـت ونـاداهـا وناولهـا فـارغ آنيـة الطعـام، فتناولتـه منـه بتلكـؤ وهمّـت بالرحيـل، وفي طريـق خروجهـا أطلقـت عينيهـا في الوكالـة بحثًـا عـن "عـلي" مـرة أخـرى حتـى وقعتـا عليـه، فتوتـرت وتعـثرت وبادلتـه نظـرة زائغـة طفوليـة، وظهـر عليهـا خجـل غـير محسـوب، وأسرعـت في خطواتهـا هاربـة إلى بيتهـا.

t.me/qurssan

11

أحـب "عـلي" عملـه؛ ووجـد ضالتـه في كار الأقمشـة، فاقـترب مـن الحـاج "رضـوان" وأخلـص لـه حتـى صـار الحـاج يعاملـه كأحـد أبنائـه، وعـلى مـدار خمسـة أعـوام قضاهـا في الوكالـة كانـت نوبـة الغـداء هـي مُنفَـرَج يومـه، تـأتي "فاطمـة" تتمايـل بصينيـة الطعـام وتمكـث في الوكالـة حينًـا لا يزيـد عـلى بضـع دقائـق، يجلـب فيهـا أحـد صبيـان الوكالـة فـارغ آنيـة طعـام الإفطـار، لتأخـذه وتعـود إلى المنـزل، بضـع دقائـق عـلى مـر بضعـة أعـوام مـن تبـادل النظـرات الخاطفـة كانـت كفيلـة بإشـعال فتيـل الإعجـاب، وتفجـيره لمـا هـو أكـبر.

كان الحـاج "رضـوان" رجـلاً حكيـمًا فطنًـا، خبـيراً بطبائـع البـشر، وقـد رأى في "عـلي" معـدن الرجـال والأصـل الطيـب، وكان يعتـبره ابنًـا رابعًـا لـه، فلـما أحـس بتلـك الإشـارات المتبادلـة بينـه وبـين ابنتـه "فاطمـة"، وأيقـن بعـد أن عـاشره أنـه رجـل حـرّ أصيـل، شـهم

t.me/qurssan

تنـدر لقيـاه، أرسـل إليـه ليأتيـه بعـد انتهـاء نوبـة الغـداء. فلـما جـاءه "عـلي" أخـذه وذهبـا معًـا بحجـة ابتيـاع بعـض لـوازم الوكالـة.

مـشى الحـاج "رضـوان" مـع "عـلي" حينًـا، يتقـدم الحـاج بخطـوات يقصـد "عـلي" أن يتأخرهـا احترامًـا لـه، سـارا وسـارا حتـى ابتعـدا عـن الوكالـة، وتأكـد الحـاج أن أحـدًا لـن يسـمعهما، فأبطـأ في خطـاه وقبـض عـلى يـد "عـلي" وقـال...

- كبرت يا "علي" وبقيت راجل!

- كله من خيرك يا حاج

- مش آن الأوان بقى؟

بوغت "علي" بالسؤال وتوتر..

- أوان إيه يا حاج؟!

ضيّق الحاج عينيه وعقد حاجبيه ونظر إليه في حذق..

- يـا واد.. ده أنـا لسـه بقـول عليـك راجـل وقلـت إنـك هتقـول لي مـن نفسـك!

استسلم "علي" ولم يكمل ادعاءه جهله بالأمر..

- آآآ.. ده كل منايـا مـن الدنيـا يـا حـاج.. بـس لسّـه شـويّة.. لمـا أقـدر.

فألبس الحاج كلامه ثوب الصرامة ورد قاطعًا..

- طـب بـص بقـى يـا "عـلي" يـا بنـي.. الـلي هقـول لـه لـك ده ماحـدش هيقولـه لـك غـيري.. بـس أنـا شـفتك راجـل.. وهتكـون قـد الـكلام..

t.me/qurssan

إنـت قدامـك سـنة.. اتنـاشر شـهر كاملـين.. لـو هـلّ المولـد اللي جـي مـن غـير مـا تيجـي مـن نفسـك تطلـب "فاطمـة" منـي.. يبقـى تنـسى الحكايـة واعتـبرني ماقلتـش حاجـة.

وقـف "عـلي" شـاردًا في الطريـق يبحـث عـن رد مناسـب، فلـم ينتظـر الحـاج رده وعـاد عـلى فـوره إلى الوكالـة دون أن ينظـر وراءه، لحـق بـه "عـلي" فـكان الحـاج يجلـس في عرشـه فـوق الدرجتـين كأن شيئًا لم يكـن، وتحولـت العلاقـة بينـه وبـين الحـاج منـذ ذلـك اليـوم إلى أرض جدبـاء يصعـب خطوهـا. لا يـسيء الحـاج معاملتـه، لكنـه لا يحسـنها أيضًـا، فأحـس "عـلي" بذلـك الجفـاء وأرّقـه طويـلاً، لكنـه لم يـدر مـا يمكنـه فعلـه كي يسـتعيد رضـاه.

انقـضى العـام المحـدد ولم يتقـدم "عـلي"، ولم يعـاود الحديـث مع الحاج في الأمـر، سـواء طلبًـا لتمديـد المـدة المتفـق عليهـا، أو حتـى الاعتـذار عـن التكليـف المهيـب الـذي عهـد إليـه بـه، لم يتحـدث من الأمـر مـع الحـاج حتـى بعـد انتهـاء المولـد، فلـم يعـاود الحـاج "رضـوان" بـدوره حديثـه.

وبـدأ الرجـال يتهافتـون لخطبـة "فاطمـة"، فكانـت تسـتجدي هـي أنفـه الأسـباب لرفضهـم، تتذمـر وتتأفـف مـن أصغـر عيـوب خطابها كي تغلـق البـاب في وجـه كل مـن يتقـدم لخطبتهـا، عسى أن يأتيهـا مـن طـال انتظـاره. وعـلى جانـب آخـر كانـت كلـما ذهبـت إلى الوكالـة تطيـل نظرتهـا إلى "عـلي" في لقائهـما اليومـي الأبكـم، محاولـة استشـفاف سـبب صمتـه، تسـتصرخه أن يتحـرك، فلـم تعـد لديهـا أسـباب أو حجـج للرفـض.

t.me/qurssan

قارب العام التالي على الانتهاء، وبدأت "فاطمة" تفقد الأمل في حبيبها المنتظر، إلى أن ذهبت في أحد الأيام بصينية الطعام لأبيها في الوكالة كعادتها، فلم تجد "علي" هناك، "تُرى إلى أين ذهب؟" ليس من عادته أن يتغيب، حتى إنها كادت تسأل عنه أحد صبيان الوكالة، لكنها خشيت أن يكشف سؤالها مشاعر لا يصح أن تُكشف، فخافت واستحت، وعادت إلى المنزل تحوم في رأسها مئة سؤال مؤرق.

وبعد أن انكسرت الشمس، وطاحت الأفكار برأسها قلقًا عليه، سمعت من غرفتها صوت أبيها يتنحنح في أثناء دخوله البيت معلنًا أن بصحبته ضيوفًا، وبعد دقائق قليلة دخلت عليها أمها فأخبرتها أن أباها يجلس في غرفة الضيوف مع رجل يدعى الريس "إبراهيم"، جاء بصحبة ابنه "علي" ليخطبها له.

أحقًا؟ هل جاء الشاب الوسيم حاد الملامح الذي كانت تبادله النظرات وانتظرته طويلاً كي يحدّثها عن إعجابه الواضح بها؟ ذاك الشاب الذي لم يتخط حديثه لها سوى همساته الخجولة اليومية "صباح الخير يا ست فاطمة..."، هل هذا هو "علي" المذكور أم "علي" غيره جاء مع أبيه لخطبتها؟

كاد قلبها يتوقف في تلك الليلة، حين دخل الحاج "رضوان" إلى غرفتها، ونظر إليها نظرته الماكرة ضاحكًا، وسألها..

- رأيك إيه يا بطة؟

- في إيه يابا؟

- في العريس

t.me/qurssan

- عريس! وأنا أعرفه منين؟

- يا بت.. يا بت يا أونطجية

نظرت "فاطمة" إلى أمها وضحكت في خجل ولم ترد، فعلت زغاريد أمها حتى أسمعت جيران جيرانهم، وكادت تكون الليلة هي الأسعد، لولا ما سمعته ليلاً من أخيها الأكبر "غريب" حين كان يتحدث لأبيها...

- إزاي يابا؟ ده مستخدم من مستخدمينك.. حتة صبي!

- وصبي دي تعيبه في إيه؟!

- تعيبه لما يتجرأ على أسياده.

- أسياده! أستغفر الله العظيم.. إحنا مش أسياد حد يا بني.

- ما هو كلامك ده ودلعك ليه هو اللي طمعه فينا.

- ومين قال لك إنه طمعان؟ ده هو اللي شايل الوكالة.. ولا انت ولا حد من اخواتك يعرف يعمل نص اللي هو بيعمله.. "علي" هو اللي هيعرف يصون أختك.

- ما هو انت عشان مِدِّي له سِرّك كله وفاتح له بطن الوكالة.. دخل وبرطع وخَدَك في عِبُّه.. لأ وكمان مش مكفيه كل ده عايز كمان يتجوز "فاطمة" ويكَوِّش على كل حاجة!

- اخرس يا قليل الحيا.. كلمة زيادة في الموضوع ده مش عايز.. شبكة "فاطمة" على "علي" الجمعة الجاية.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

12

كان الـزواج ميمونًـا، أثـرت "فاطمـة" في سـنواته الأولى حيـاة "عـلي"، وأجبرتـه عـلى القيـام بأمـور لم يكـن ليفعلهـا لولاهـا، فعدلـت لـه مظهـره وحسّـنت هندامـه، وسـاعدته عـلى الادخـار من أجـره؛ تحسـبًا لقـدوم مولودهـما الأول أو لأي طـارئ آخـر قـد يطرأ، إلا أن اللـه لم يشـأ لهـذا المولـود المنتظـر أن يـأتي في الشـهور الأولى مـن الـزواج، ولا في العامـين الأولـين منـه.

بـدأت أحاديـث النـاس في "درب الحافـري" تتواتـر عـن عـدم قـدرة "عـلي" عـلى الإنجـاب، وعـن كـثرة الخلافـات بينـه وبـين عائلـة "فاطمـة"، أمـا هـي، فلـم تتأثـر، لم تتخـل عنـه، بـل ظلـت عـلى دعمهـا لـه، تدافـع عنـه ولا تقبـل أن ينالـه النـاس بكلامهـم، وفي خلوتهـا تدعـو لـه ولا تقطـع زيارتهـا الأسـبوعية لمقـام الشـيخ "إسـماعيل الإمبـابي"، تسـأله الفـرج، وتتبـارك بحولـه وقوتـه، حتـى

t.me/qurssan

كتب الله لهما رزقهما الأول "رزق"، مولود جديد من نسل "الطوايلة".

أما "علي" فكانت قناعته قد رسخت لفترات طويلة أنه رغم ما قد تبديه له الأقدار من كرم -في بعض الأحيان- فلا يأمن مكرها غير الجاهل. تبدو له الدنيا بارقة، فتعطيه ما لم يُعطَ أحد من قبل، حتى يظن أنه يملك مفاتيحها ويعلم خباياها، وحين يقترب منها وتوشك أن تخبره، هو وحده، بسرها، تتركه، تبتعد عنه، تختفي في أفق ممدود، لا يبلغه المفتونون. استقرت قناعته أن سرُّ مكر الدنيا في اغترار الناس بها، ومفتاحها ليس في اعتناق عطيتها، ولا في الانزواء عنها، بل في أن يستمتع بها إلى أن تزول، وكلٌّ إلى زوال.

فما كانت تخفيه الأقدار له لم يكن باليسير، لم يحن له موعد النجاة بعد، ولم يأذن الله أن يعيش هذا المولود كثيرًا، فلم تَحُل بركات الشيخ "إسماعيل" دون ما كتبه الله عليه. مات "رزق" الرضيع قبل أن يُتِم عامه الأول بفعل الجفاف.

كان "علي" يعلم أن أحوال الشيخ "إسماعيل" لا ترد، ولكنها لا تعمل كما يتمناها الناس، فالخير الظاهر الذي يتمنونه قد يكون في باطنه شر خفي. ظل يذكِّر "فاطمة" ومن قبلها يذكر نفسه بتلك القناعة في الأيام الأولى من رحيل "رزق"، وبات يقضي يومه يدور في غرفة الجلوس وحيدًا، يبكي ويتلو صلاته بصوتٍ خافت، ويتوقف فيها عند آية سورة الكهف فيجهش بالبكاء...

t.me/qurssan

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾[1]

لكـن مـع تعاقـب الأيـام عـادت الفكـرة تسـيطر مـرة أخـرى على ذهنـه. لقـد عـاد المـرض ليحصـد ثمـار مـن يحـب، يُجـدد مسـعاه إليـه، عـاد ليذكّـره بـأن المعركـة لم تنتـه بعـد، فلـم تمـر بضعـة أشـهر أخـرى حتـى مـات الحـاج "رضـوان" نفسـه، وتـرك "فاطمـة" و"عـلي" بـين حـزن عـلى رضيعهـما مـن جهـة ومشـكلات الميراث مـع إخوتهـا مـن جهـة أخـرى.

عـلى مـر تلـك السنوات لم يَصـفُ قلب إخـوة "فاطمـة" لـ"علي"، وازدادت اتهاماتهـم لـه، فـكان "غريـب"، أخوهـم الأكـبر، يظـن دومًا أن "عـلي" يخطـط لأمـر مـا، حتـى تـسرب هـذا الظـن إلى "نجيـب" و"حسـيب"، فكانـوا عـلى يقـين مـن طمعـه في أموالهـم، ومـن أنـه كان يدّعـي حـب الحـاج "رضـوان" حتـى تمتـع بمكانـة كبـيرة في قلبـه وفي الوكالـة، فمنحـه ذلـك فرصـة أكـبر ليتـزوج أختهـم "فاطمـة"، ويحصـل عـلى نصيبهـا مـن الميراث.

مـرّت أسـابيع عـلى مـوت الحـاج "رضـوان" وجـاء الموعـد المحدد لتقسـيم المـيراث، وحـضره "عـلي" بصفتـه زوج أختهـم الوحيـدة، ولكـن طغـت عـلى تلـك الجلسـة "الوديـة" أجـواء غـير حميمـة عـلى الإطـلاق. فـكان مجـرد التلميـح إلى أي اتهـام لـه مـن إخـوة "فاطمـة" في أولى جلسـات التقسـيم كالـشرر في الهشـيم، إهانـة لا تغتفـر وجـب عـلى "عـلي" القصـاص لكرامتـه منهـا، فلـم تكـن هـي إلا إيمـاءة بسـيطة مـن الأخ الأصغـر "حسـيب"، إذ قـال بكيـد ماكـر حـين دخـل الغرفـة ورأى "عـلي" يجلـس مـع أخويـه..

(1) [الكهف : 80]

t.me/qurssan

- مابقاش إلا المستخدمين كمان يحضروا التقسيم!

لم يعلـق أخـوه الأكـبر "غريـب" كأنـه لم يسـمع شـيئًا، فهـب "عـلي" واقفًـا والـشرر يتطايـر مـن عينيـه، ورمقهـم بنظـرة متوعدة..

- تقسـيم إيـه ده؟ خايـف عـلى فلـوس أبـوك ولا عـلى نصيبـك يخـس؟ أنـا واللـه لـولا إن فاطمـة طلبـت إني أحـضر بالنيابـة عنهـا مـا كنـت حـضرت.. وعـلى العمـوم كويـس إني حـضرت عشـان أسـمع بـوداني وأفهّمـك.. يمكـن انـت كنـت صغـير ماتوعـاش.. بـس العيـب مـش عليـك.. العيـب عـلى اخواتـك اللـي قاعديـن وسـامعينك وسـاكتين.. قـول لـه يـا "غريـب" انـت و"نجيـب".. مـين اللـي كان شـايل الوكالـة عـلى كتافـه وعمـره مـا خـد قـرش زيـادة مـن الحـاج.. ولـلا تقولـوا لـه ليـه؟ مـا الـكلام باينّـه جـاي عـلى هواكـم!

بـس أنـا هاقولهـا لكـم تـاني.. أنـا مـش عايـز منكـم حاجـة.. غـيرشي بـس فاطمـة ليهـا حـق في رقبتكـم وكانـت باعتـاني أشـوف انتـو هتعملـوا فيـه إيـه.. أقـول لكـم عـلى حاجـة! أنـا ولا حتـى هاخـد منكـم ورث "فاطمـة".. وعـليّ الطـلاق لـو عرفـت إنهـا خـدت منكـم مليـم واحـد لأكـون مرجّعهـا لكـم بشـنطة هدومهـا.

خرج "علي" من بيت أهل "فاطمة" غاضبًا وهو يردد بصوتٍ عالٍ..

- الله يرحمك يا حاج "رضوان" يا أبو الأصول.

وفي لحظـة مـن الزمـان، طغـى الجانـب الانفعالي العفـوي في روح "عـلي" عـلى الجانـب الحكيـم في روح "فاطمـة". عـاد إلى بيتـه في

t.me/qurssan

..لك الليلة وقد قبض الغضب على صدره، وأثقل أنفاسه، فلما ..اها حكى لها ما دار، وأخبرها أنه ترك ميراثها كاملاً لإخوتها..

- حقك على راسي.. والنبي ما تشيل من حد فيهم.. ورحمة الحاج "رضوان" ما تزعل.. امسحها فيّا أنا.

- ألف رحمة ونور عليه.. أنا لولا إنك موصياني ما اتشاكلش معاهم كان هيبقى ليا كلام تاني.

- ما هم اخواتي برضه يا "علي".. وأنا باقية عليهم...

- وأنا مش عايزك تقاطعيهم.. بس أنا ماحدش يستقل بيّا!

- ما عاش ولا كان.. أنا مش عايزة فلوس.. وكرامتي من كرامتك.. تغور الفلوس اللي تيجي على كرامتك.

- بصي يا "فاطمة".. من النهارده بيوت اخواتك تحرم عليّا.. بس دول اخواتك وأنا ما يخلّصنيش تخسريهم.. روحي لهم وقت ما تحبي وأنا مش هامانع.

- ربنا يخليك ليّ.. طول عمرك قلبك كبير.

مرت لحظات حتى خرج على لسان "علي" ما يؤرقه..

- بس دلوقتي أنا مش هينفع أرجع أشتغل في الوكالة.

- أمّال هنعمل إيه؟

تحوّل وجه "علي" ونظر إليها بحزم..

- إحنا شايلين فلوس قد إيه؟

- هدخل أجيب لك الدفتر والكيس من عامود السرير.. أنا كاتبة كل حاجة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

13

بـدأ "عـلي" في تجهيـز كل مـا تمكنـوا مـن ادّخـاره في الأعـوام القليلـة المنصرمـة، فقـد آن أوان فتـح وكالتـه الخاصـة، بعيـدا عـن هـذا العـالم الـكارِه المشـكِّك. لم يكـن ليقبـل يومًـا بكلمـة هائمـة أو نظـرة لائمـة مـن إخـوة "فاطمـة" قـد تتهمـه بالطمـع أو أكل مـا ليـس لـه.

باعـت "فاطمـة" شـبكتها وكل مـا كان قـد اشـتراه لهـا أبوهـا مـن مصـاغ، وبـدأ "عـلي" رحلـة البحـث عـن مـكان جديـد يصلـح أن يكـون وكالتـه الخاصـة. كان اختيـار المـكان أشـد مـا لاقـاه مـن الأمر، ففـي "كفـر الشـوام" كل معارفـه وزبائنـه الذيـن يعرفونـه بالاسـم مـن وكالـة الحـاج "رضـوان"، لكنـه لا يسـتطيع أن يضـارب رزق الوكالـة التـي تـربّى فيهـا، فالأصـول تقتـضي ألا يفتـح وكالتـه بالقـرب منهـا، فآثـر أن يبتعـد عـن "كفـر الشـوام" كلهـا، عـن المتاعـب، عـن كيـد إخـوة "فاطمـة"، وبـدأ البحـث في "تـاج الـدول" بالقـرب مـن

t.me/qurssan

بيتـه أو في "ميـت كـردك" أو حتـى في "سـوق الأربعـين"، ولكـن دون جـدوى، طـال البحـث وضاقـت الحـال وبـدأ ينفـق مـن أموالـه التـي ادخرهـا، فالبيـت وإن كانـت امرأتـه حسـنة التدبـير، لا بـد لـه مـن مصـدر رزق دائـم.

ظـل يبحـث كثـيراً، ودار يسـأل أصدقـاءه ومعارفـه إن كان أحدهـم يعـرف دكانًـا يصلـح لتجارتـه الصغـيرة، دون نتيجـة. كان يمـشي طيلـة نهـار كامـل في رحلـة بحـث مضنيـة، يـرى فيهـا عـدة دكاكـين، لا يصلـح أيهـا ليكـون بدايتـه التـي يحلـم بهـا، فمنهـا المتـواري عـن الأنظـار، ومنهـا الغـالي ثمنـه، ومنهـا... ومنهـا، فيعـود في أول الليـل إلى شـارع البوسـطة، لمقهـى الصياديـن، فيجلـس مـع أصدقائـه القدامـى الذيـن طاحـت بهـم الدنيـا، يشـكو لهـم ويشـكون لـه ضيـق الحـال، فينفجـر "منـدور ختـم" صديقـه في وصلـة ثوريـة عصمـاء مُرجعًـا تـردي حالهـم وحـال دكان علافتـه إلى الاحتـلال الإنجليـزي، وينتهـي بهـم الأمـر يتنـدرون ويضحكـون عـلى حالهـم، وينفـث كل منهـم همـه في أنفـاس حجـر المعسّـل، كان يرفـع رأسـه وينظـر إلى مئذنـة مسـجد "سـيدي إسـماعيل" وهـو يشـكو لشيشـته دنيـاه وضائقتـه فتواسـيه بكركـرة عميقـة، وتمتـص منـه غضبًـا كاد ليهلكـه لـو بقـي في صـدره، ويتمنـى لـو تـدوم أنفـاس الحجـر وقتًـا أطـول، فـذاك هـو الكـرسي العـاشر الـذي يرصـه لـه صبـي القهـوة، وقـد تأخـر الوقـت ولـن يتسـع اليـوم لحجـر آخـر، لا بـدّ أن يمـضي كل منهـم في طريقـه، فيقـوم "عـلي" مـن مجلسـه مرتاحًـا هادئًـا، ويذهـب إلى بيتـه في منتصـف الليـل، إلى "فاطمـة"، يهجـع إليهـا، فينـام قريـرًا هانئًـا، فـ"فاطمـة" مـا زالـت بجانبـه، ليبـدأ شـوطًا جديـدًا مـن البحـث المُحبِـط في اليـوم التـالي.

t.me/qurssan

واستمرت رحلات البحث شهرًا كاملاً، حتى وجد، على غير تدبير، ضالته في دكان كبير مهجور بـ"تاج الدول"، أصغر بقليل من دكان أصهاره، كان لعطار كبير ذي شأن عظيم، قبل أن يموت وتبور تجارته على يد ابنه الأوحد، رآه "علي" مئات المرات في طريقه، ولكنه توارى عن ذهنه حين بدأ بحثه. ذكّرته به "فاطمة" في ليلة مباركة، فما كان من أمره إلا أن ذهب إلى ابن العطار في صباح اليوم التالي وطلب أن يدخل ليراه.

كان الدكان أشبه بوكالة الحاج "رضوان"، به مكتب قابع في ركنه الأيمن كما كان مكتب الحاج في الوكالة، لكنه لم يكن يتوسط الدكان أو يعلو مستوى الأرض بدرجتين مثله، فتفجرت في "علي" ذكريات عمله الأولى، وأرضى طموحًا كبيرا لديه حين ارتأى نفسه يجلس على ذلك المكتب ليباشر تجارته كما كان يفعل الحاج "رضوان" حين قابله "علي" للمرة الأولى، فأحس براحة كبيرة تجاه دكان ابن العطار، وقرر أن يشرع في ابتياعه على الفور، وسأله إذا ما كان ينوي بيعه، فتردد الرجل وقال له إنه يود أن يؤجره لا أن يبيعه وكاد يرفض، لولا ضائقته التي كان يمر بها، وبالأخص حين علم أن "علي" مستعد لدفع المبلغ كاملاً إذا ما شرعا في كتابة عقد بيع الدكان من يومهم ذاك.

اشترى "علي" الدكان بكل ما ادّخر من أموال وبدأ تجارته. أفنى فيها كل نفيس، لكن الأوضاع كانت قاحلة، وأرباح الوكالة كانت تكفي بالكاد لتدبير قوت يومه، فكانت أحوال التجارة كلها في تضييق دائم منذ أن فشلت الهوجة، وكانت خمسة عشر عامًا كفيلة بأن يُحكِم الاحتلال البريطاني قبضته على كل نواحي العيش ويتمكن منها، ففُرضت ضرائب جديدة

t.me/qurssan

على حركة المراكب ودخول البضائع وخروجها، ولكن بعد عناء استمر قرابة العامين، اشتد عود الوكالة الجديدة وعرفها الناس وعاد إلى "علي" معظم زبائنه ومعارفه الذين كانوا يحبّونه منذ أيام عمله مع الحاج "رضوان"، وأصبحت الوكالة متوسطة الحال، يرتادها الناس ويبحثون عنها بالاسم.

وهنا ابتسمت الأقدار، وأراد الله أن يعوض "علي" و"فاطمة" عن تلك السنوات العجاف التي ولت، فرزقهما "فهمي"، ابنًا سليمًا معافى، بعد ما يربو على العامين من فتح الوكالة، وكان "فهمي"، كما يقولون، "قدمه سعد" عليهما، فازدهرت أعمال الوكالة أكثر برزق المولود الجديد. لكن في قرارة نفسه كان "علي" متوجسًا من عطايا القدر لهم، فلم يكن من المغترّين المفتونين بالدنيا، وكان يعلم أن عدوه لم ينسه، وأنه سيسدد ضربة جديدة بمجرد أن يدير وجهه ليتمتع بعطايا القدر.

مرت أعوام قليلة ثم رزقهما الله طفلهما الثاني الذي أسمياه "إبراهيم"، تيمنًا بأبيه الريس "إبراهيم"، كأن الدنيا تستميله مرة أخرى. ومع اتساع باب الرزق الذي كتبه الله له وكعادة كل تجار الأقمشة في كل الوكالات الكائنة بالقرب من القرى، افتتح "علي" مصبغة لصبغ الأقمشة والملابس بجانب الوكالة.

في بادئ الأمر كان كلما جاءه أحد الزبائن وطلب منه أن يصبغ ثوبًا أو قطعة من الملابس، كان "علي" يخبره بأن أقرب مصبغة هي "مصبغة أولاد الحاج رضوان" في "كفر الشوام"، متناسيًا الضغائن القديمة مع أصهاره، فقد نما إلى علمه أن وكالتهم تمر بضائقة ما، وكان يحاول مساعدتهم كلما سنحت

t.me/qurssan

ا ه الفرصة، فيرسل لهم بعض الأموال مع "فاطمة"، أو يرسل ،ضًا من زبائنه إليهم خلسة دون أن يخبرهم. لكنه لاحظ ، بادة طلب أهل المنطقة على الأقمشة الداكنة وزاد عدد السائلين عن مصابغ قريبة من الوكالة، حيث اعتادت سيدات أهل القرى صبغ أقمشتهن باللون الأسود أو الكحلي في معظم الأوقات، فقرر بحس التاجر المحنك لديه أن يقتنص تلك الفرصة ويفتح مصبغته الخاصة.

كان سر نجاح تجارة "علي" في هذه الفترة القصيرة لسانه العذب، وكلامه المعسول، ودأبه في بيع أقمشته التي كان ىحملها معه إلى حيث تحط قدماه، فسواء كانت رحلته إلى القرى الواقعة على مقربة من "إمبابة" أو إلى أقاصي المحافظات شمالاً، لم يكن يتوانى فيها عن كسب ود الناس وخلق معارف جديدة ليسوّقوا له تجارته في رحلته التالية، يبيع المتداول من أقمشته لأهل القرى في سوق "طوخ" و"شبين القناطر" و"بين السرايات"، ويحتفظ بالغالي منها لبعض معارفه من الأعيان والعُمَد.

أما عن رحلته الشمالية فكانت إلى "الإسكندرية"، إلى صديقه "رجب الشجاع"، الذي كان على معرفة بخبايا الميناء، يستطيع أن يأتي له بأي من البضائع الشحيحة في أحلك أوقات العام. فكان "علي" يزوره ثلاث مرات سنويًا، يمر في كل مرة على قرى "قليوب" و"البحيرة" فيبيعها ما معه من أقمشة، وإذا طلب منه أحد الأعيان أو الأغنياء نوعًا نادرًا من الأثواب، يأتيه به من "الإسكندرية" في رحلة عودته من هناك.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

14

سـافر "رجـب" الشـجاع مـع أبيـه إلى الإسـكندرية حـين كان صغيرًا، لم يـره "عـلي" ولا باقـي فرقـة المراهنـات إلا بعدهـا بسـنوات حين جـاء لزيارتهـم في "إمبابـة" مـرة وحيـدة، بعـد أن صـار شـابًا، اشـتد عـوده واكتنـز جسـده قـوةً، ولفحتـه شـمس الميـنـاء وصبغـه ملـح البحـر فـازدادت بشرتـه اسـمرارًا عـلى اسـمرارها. حـكى لهـم عـن الإسـكندرية، وعـن تجـارة أبيـه، وعـن الميـنـاء، وتـرك لهـم عنوانـه هنـاك ليـزوره مـن مـرّ منهـم بهـا، ثـم رحـل ولم يعـاود زيارتـه إلى "إمبابـة" إلا مـرة أخـيرة حـين صـار كهـلاً.

فلـما فتـح "عـلي" وكالتـه بعـد سـنوات، قـرر أن يـزور صديقـه "رجـب" في الإسـكندرية، وحـين وصـل إلى هنـاك اسـتقبله "رجـب" اسـتقبال الملـوك، وأكرمـه، وحـكى لـه عـن مـوت أبيـه المفاجـئ، الـذي أوكل لـه إدارة البقالـة في سـن صغـيرة، لكنـه اسـتطاع بحنكتـه ودهائـه وعلاقاتـه أن يديرهـا ويتوسّـع فيهـا حتـى ذاع صيتهـا.

t.me/qurssan

وبطابعه الشهم، وعاداته الشجاعة الهوجاء، اتسعت صداقاته وتنوعت، فكان الميناء لا يخلو ركن فيه من صديق له، يعرفون خباياها وأخبارها، بداية من حركة السفن ومواعيد وصولها، وإلى أنواع البضائع التي تحملها، ويخبرونه بها على نحو دائم، فكان يدخل الميناء بمساعدتهم ويشتري كل ما ينقصه من بضائع يصعب على باقي التجار الحصول عليها، حتى ولو بسعر أعلى من تجار الجملة المعتادين.

فلما حكى له "علي" حكايته وأخبره بأمر وكالته الخاصة في "إمبابة"، تحمّس "رجب" لتلك الخطوة وكشف له سر أصدقائه في الميناء، وأطلعه على جدول المواعيد ليعرف ساعات وصول مراكب الأقمشة منها، ويأتي إلى الميناء في تلك الأوقات ليشتري ما ينقصه من أثواب، كما كان يفعل هو، فراق الوضع لـ"علي" بتلك "الزيارات" وصار الميناء مصدر أقمشته الأول والأهم.

لاحظ "علي" بعد عدة زيارات للميناء أن "رجب" لا يصعد معه لأي من المراكب التي يقصدونها، بل كان يرسل أحد صبيانه بدلاً منه ليجلب الصناديق التي سيشتريها منها، ففطن للسبب وكاد يسخر منه، لكنه آثر أن يسرّه في نفسه لحينٍ آخر.

وفي أحد الليالي المقمرة، حين كانوا في زيارة ليلية للميناء، كان "علي" و"رجب" يقفان على رصيف الميناء مع أحد عمال المركب المقصودة، ومعهم صبي قصير القامة أشعث الشعر غليظ الفهم من بقالة "رجب" يدعى "شرنوبي"، فأمره "علي" في دهاء..

t.me/qurssan

- روح يـا "شرنـوبي" هـات لنـا قُلـة ميـة مـن القلـل اللـي بـرّة عـلى الشارع.

نظـر "شرنـوبي" إلى "رجـب" في حـيرة كأنـه يخـاف أن يتحـرك أو ينتظـر منـه الإذن بالذهـاب، فزجـره "رجـب"..

- روح ياض هات القُلة، اسمع كلام عمك "علي".

جـرى "شرنـوبي" مسرعًـا بعـد أمـر معلّمـه لـه، فلـما تـوارى عـن الأنظـار صعـد "عـلي" إلى المركـب مـع عمالهـا كي يُفنِّـد البضاعـة ويختـار منهـا مـا يريـد، وتـرك "رجـب" يقـف بمفـرده عـلى رصيـف الميناء، ثـم عـاد بعـد دقائـق قليلـة، فأطـلّ عليـه مـن فـوق حافـة سـور المركـب دون أن ينـزل مـن عليـه، ونـاداه بلهفـة..

- اطلع لي يا "رجب" بسرعة.. الأتواب تقيلة.

نظـر "رجـب" مـن حولـه فلـم يجـد بجانبـه مـن ينـوب عنـه في الصعـود إلى المركـب ليسـاعد "عـلي" في حمـل البضاعـة، فـرد في توتـر لا يليـق بمقامـه..

- طب استنى الواد "شرنوبي" زمانه راجع.. أبعته لك يساعدك.

كتم "علي" ضحكته وأكمل حبكته..

- يـا جـدع باقـول لـك الراجـل عايـز يمـشي.. الدنيـا ليّلـت علينـا.. اطلـع يـا جـدع.

أحـس "رجـب" بإحـراج شـديد، ونظـر في الجهـة التـي جـرى فيها "شرنـوبي" لم يجـد بهـا أحـدًا، فحبـس أنفاسـه وهـمّ بوضـع قدمـه عـلى اللـوح الخشـبي المـؤدي للمركـب في حـذر وبـطء شـديد،

t.me/qurssan

وبـدأت قدمـاه ترتعشـان وتتعـرق يـداه، وقبـل أن يخطـو خطـوة أخـرى، انفجـر "عـلي" ضاحـكًا..

- إنـت لسـه بتخـاف مـن المراكـب يـا "رجـب"؟ اللـه يجـازي شـيطانك.. دي حكايـة عـدى عليهـا يجـي تلاتـين سـنة.. اللـه يخيّبـك!

نظـر لـه "رجـب الشـجاع" في غضـب، وتراجـع خطـوات إلى الـوراء مبتعـدًا عـن اللـوح الخشـبي، ومـشى مبتعـدًا عـن المركـب وهـو يتمتـم..

- قلت لك ما بحبّش الهزار وقلة القيمة.. الله يقلّ قيمتك

جثـا "عـلي" عـلى ركبتيـه وأخـذ يضحـك ويسـعل إثـر أحجـار المعسـل التـي مـلأت صـدره، وهـو يقـول بصـوت عـالٍ..

- إوعى العفاريت تطلع لك..

t.me/qurssan

15

كان أقـرب الأعيـان إلى قلـب "عـلي" هـو الحـاج "محيـي الديـن" عمـدة "كفـر شُـكر"، رجـل حكيـم تقـي، يحـب الوجاهـة والهنـدام، دقيـق الملامـح، متوسـط القامـة، لا يميـز هيئتـه سـوى شـعر قصـير ناعـم لامـع مصبـوغ بعنايـة، ينكـسر عـلى أطرافـه الضـوء. كان فلاحًـا فصيحًـا يحـكي النـاس عـن كرمـه وغنـاه ونفـاذ معارفـه في القاهـرة، مثقـف واعٍ، وكان مـن أشـد المحبـين للصـوف الإنجليـزي، فكان "عـلي" يجلبـه لـه بالثـوب مـن طلبيـات مراكـب الميـنـاء، وفي طريـق عودتـه مـن رحلتـه الشـمالية في الإسـكندرية، يعـرج عـلى "كفـر شُـكر"، يهبـط محطـة القطـار فيركـب حنطـورًا ليتجـول بـه عـبر غيطـان العمـدة الخـضراء قرابـة الخمـس عـشرة دقيقـة حتـى يصـل إلى بيـت العموديـة الأبيـض الكبـير، فيسـتقبله الحـاج بترحـاب شـديد في الشرفـة الأماميـة للبيـت، ويعـدّ لـه إفطـارًا فلاحيًـا كبـيرًا ليـأكلا معًـا..

t.me/qurssan

- أخرج ما بجعبتك يا "علي".

- والله يا حاج البضاعة أصبحت شحيحة قوي.

- آه.. ما انا سامع ليا أسبوع كده.. بيجولوا الأتراك تحالفوا مع الألمان ضد الإنجليز والحرب على الأبواب.

- التجار بيقولوا.. والمراكب بترجع بلدها واللي بيوصل منهم قليل.

- شكلها مش هتفوت على خير.. ربنا يستر.

ابتسم "علي" وبدأ يقلب في بضاعته بهمة...

- بس أنا مايخلّصنيش يا حاج.. جبت لك توب صوف إنجليزي مفتخر، طلب مخصوص من تاجر معرفة.

لم يستطع الحاج كبح جماح حماسته..

- الله عليك يا "علي".. عشان كده أنا بافضّل أتعامل معاك دونًا عن باقي التجار.

فأكمل "علي" حديثه في عشم وحب شديد..

- وعندي ليك خبر تاني كمان

- هاتِ ما عندك.. اللهم اجعله خير.

- أنا ولله الحمد ربنا رزقني الأسبوع اللي فات بولد..

تهلل وجه الحاج واعتدل في جلسته..

- الله أكبر.. اللهم صلي على كامل النور.. وسميته إيه بقى إن شاء الله؟

t.me/qurssan

- أنا بعد إذنك سمّيته "محيي".. ربنا يبارك لنا فيه ويطلع زيك كده يا حاج.

- ليه يا "علي"؟ ما تسيب أمه تختار الاسم اللي يلذّ عليها.

- دي "أم فهمي" هي اللي اختارت الاسم والله.

- ربنا يبارك لها فيه يا رب.. ده تاني ولد؟

- لا يا حاج.. عقبال أولادك كده معايا "إبراهيم" كمان.. ده التالت.

- اللهم صلي على النبي..

مدّ الحاج "محيي الدين" يده في جيب جلبابه وأخرج حافظة نقوده البنية الكبيرة وفتحها، وأمسك ببعض العملات الورقية دون أن يعدها..

- امسك يا "علي".. دي نقطة "محيي" الصغير.

أمسك "علي" بيد الحاج معترضًا، ولم يأخذ النقود..

- لا يا حاج، إنت تشرّفنا الجمعة الجاية في السبوع إن شاء الله وتنقطه بنفسك.

فأزاح الحاج يده وأعاد تقديم النقود مرة أخرى..

- امسك يا ولا.. إحنا فين والجمعة فين؟ وبعدين أنا مافيّاش حيل للسفر.. بارك للست "أم فهمي" بالنيابة..

حتى العمدة نفسه كان يكنّ لـ"علي" معزّة خاصة، ولم يكن يعامله كتاجر أقمشة معتاد يمر عليه ليبيعه بضاعته فقط، بل كان يعامله دومًا كصديقه القادم من العاصمة، فيسمع منه

t.me/qurssan

أخبارها ويستمتع بنوادره التي طالما أطربت سامعيها. ومرّت سنوات عديدة لم تنقطع العلاقة بينهما وظل الود موصولاً..

- من قيمة أسبوع كده يا حاج جُم ركبوا عواميد بلمض زيت بطول الشارع عندنا.. عواميد زي اللي موجودة في الأزهر وفي الجمالية.. وييجي كل يوم واحد بمشعل طويل كده قرب المغرب يعدي ينوّرها واحد واحد.. والعيال تستناه لما ييجي عشان يلعبوا في نوره بالليل.. قام الأهالي كمان بقى كل واحد علّق قدام بيته فانوس.. تيجي تعدي بالليل تلاقي الدنيا ضهر.

- ما شاء الله.. عواميد زي اللي في الأزهر.. الله يجازيك.. فكرتني بأيام الأزهر.

صمت "علي" لبرهة، ونظر إليه في إعجاب..

- بقى لك قد إيه مانزلتش مصر يا حاج؟!

نظر الحاج إلى الأفق الأخضر في غيطانه، كأنه يسترجع ذكرى محببة إليه..

- يووووه.. قيمة خمستاشر.. قول عشرين سنة.. من قبل "فؤاد" ما يمسك.. كان لسه "عباس" هو اللي ماسك.. آخر مرة كنت في مصر كنت باحضر جنازة "مصطفى باشا كامل".. جنازة إنما إيه.. تليق بمقامه.. آلافات والله يا "علي" ماشيين ورا الجثمان.. زمان الشوارع اتغيّرت كتير عن زمان.. ولا إيه؟!

t.me/qurssan

- لا واللـه يـا حـاج.. ولا ميـدان الإسـماعيلية ولا ضواحيـه ولا لكنـات الإنجليـز.. كلهـا زي مـا هـي.

ثم تابع "علي" حديثه بشغف كأنه تذكّر شيئًا ما...

- رحـت مـن قيمـة شـهر كـده دفعـت ميـة خـردة في اكتتـاب عاملـه "سـعد باشـا" عشـان هيعملـوا تمثـال في مـصر شـبه تمثـال موجـود في فرنسـا.

استنار وجه الحاج "محيي الدين"، وقال متسائلاً فرحًا..

- تمثـال "النهضـة"؟ إنـت دفعـت في الاكتتـاب؟ عفـارم عليـك واللـه يـا "عـلي".. واللـه لأديلـك جنيـه كامـل تدفعـه بالنيابـة عنـي.

أخـرج الحـاج حافظـة نقـوده البنيـة الكبـيرة وأعطـاه منهـا جنيهـا كامـلاً، ثـم أكمـل حديثـه في سرور ملحـوظ..

- بالمناسـبة بقـى.. الـواد ابنـي ربنـا رزقـه بـ"خالـد".. وانـت معـزوم عـلى السـبوع يـوم الجمعـة الجـاي.. ولازم تجيـب معـاك "محيـي" الصغـير عشـان أشـوفه.. ألا بقـى عنـده كام سـنة دلوقتـي؟

- ثمانية عقبال أحفادك.

- شوف الأيام بتجري ازّاي!

علـم "عـلي" بعـد ذلـك بسـنينٍ عديـدة أن "خالـد محيـي الديـن" حفيـد عمـدة "كفـر شُـكر" قـد انضـم لحركـة الضبـاط الأحـرار، وكان أحـد أعضـاء مجلـس قيـادة الثـورة. وكان يحـس بفخـر شـديد حـين يسـمع "عبـد النـاصر" يذكـره باسـم "الصـاغ الأحمـر"، فهـذا

t.me/qurssan

الصاغ حفيد الوجيه الحاج "محيي الدين" مثله الأعلى. حتى حين اتجه للعمل الصحفي، كان الحاج "علي" يتابعه ويتتبع أخباره بدأب أينما كان يعمل، وظلّ يُكن تقديرًا كبيرًا لـ"خالد محيي الدين"، حبًا وكرامةً لأي شخص ذي صلة بالعمدة الحاج "محيي الدين".

t.me/qurssan

الفصل الثالث

البـروطستو

t.me/qurssan

t.me/qurssan

16

صاح الحاج "علي" متوترًا في وجه ابنه "إبراهيم" حين سال ماء الولادة، كي يسرع إلى بيت الست "لبيبة" الداية ويحضرها، فقد آن الأوان..

- اجري يا "إبراهيم".. نادي على الست "لبيبة" وماتجيش من غيرها..

وإنت يا "محيي".. طيران على بيت عمتك "نعمة" تجيبها في إيدك.. قل لها أمي بتولد وأبويا محتاس لوحده.

وصلت "نعمة"، أخته الصغرى، في غضون دقائق قليلة، تهرول وتتمتم قرآنًا غير مسموع، فدخلت إلى غرفة الست "فاطمة" وطلبت منهم أن يحضروا لها إناءً كبيرًا من الماء المغلي وأغلقت الباب وراءها، ثم حضرت الست "لبيبة" بعدها بدقائق ومعها حقيبة كبيرة، فدخلت إلى الغرفة هي الأخرى.

t.me/qurssan

لطالما أثار أمر إناء الماء الساخن فضول "علي"، لكن المقام لم يسمح أبدًا بأن يسأل عما تفعله الداية بهذا الإناء، لا بد أنها عملية معقدة أو طقس ريفي أنثوي لن يفهمه، فأحضر الإناء الساخن وطرق الباب دون أن يسأل.

استوقفته "نعمة" بباب الغرفة وأخذت منه الإناء، لكنها حين لاحظت على ملامحه توترًا شديدًا، قالت له باقتضاب وهي تسرع بغلق الباب..

- "لبيبة" بتقول لسه بدري.. اجمد كده وصلي على النبي.. روح على القهوة وأنا هابعت لك أي عيل صغير لما ربنا يأذن.

فرد "علي" بتلهف وهي تغلق الباب في وجهه...

- قهوة إيه بس..

ثم التفت واتجه إلى غرفة الجلوس وهو يدعو سرًا..

- يا قوي.. يا معين.. يا بركة سيدي "إسماعيل".. استرها معانا يا رب.

كانت الست "فاطمة" قد تخطت الخمسين من عمرها، فمر الحَمل بصعوبة وكانت الولادة شاقة. مرت خمسة عشر عامًا منذ أن أنجبت "محيي"، لكنها بعد أن أتمت عامها الخمسين رزقها الله بابنها الرابع، "رحيم"، إذ ظنت وقتها أن الله لم يكتب لها سوى خلفة الذكور، فارتضت نصيبها وقنعت به، لم تكن تدري أو تتوقع أن الله سيرزقها بفتاة سليمة معافاة

t.me/qurssan

.. د عامـين مـن وصـول "رحيـم"، فكانـت "نظاكـة" هـي هديـة ... ـا الأخـيرة لهـا.

جلـس الحـاج "عـلي" في غرفـة الجلـوس يصـلي. يتذكـر أعوامًـا ... ـدة ازدهـرت فيهـا تجارتـه واتسـعت دائـرة معارفـه، وصـارت ... الـة مـضرب الأمثـال في كل أنحـاء "إمبابـة"، يسـتحضر مـا آلـت إ... ه أمـوره وأمـور عائلتـه، بعـد أن أيقـن أنـه عـلى وشـك أن يـرزق ... ولـودة جديـدة وجـب عليـه تربيتهـا والاعتنـاء بهـا، وهـو عـلى ... ارف السـتين. أخـذ يتذكـر سـنوات عمـره التـي أفناهـا لأهـل ... ه، ومـا تبقـى منهـا لـ"رحيـم" و"نظاكـة".

... ـاذا حـدث لعشريـن عامًـا وَلَّـت؟ لا يـدري إلى أيـن ذهبـت ... متـى تسربـت، ظهـرت كـسرات العجـز عـلى وجهـه، وشـاعت ... ـلوط الشـيب في رأسـه، لكنـه لم يشـك يومًـا مرضًـا، لم يسـتشر ... ـبـيًّا أو يلجـأ إلى حجـام، فـلا يـزال قلبـه فتيًّـا وروحـه تـؤول ... ل البدايـات. أعـاد النظـر إلى أبنائـه الثلاثـة الكبـار، فـرأى أعوامـه ... العشريـن قـد اسـتحالت فيهـم إلى شـخوص وطبـاع، رأى سـنينه في ... ـلابـة "فهمـي"، وفي ذكاء "محيـي"، وفي طـول قامـة "إبراهيم" الذي ... لم يرثـه منـه ولا مـن أمـه، بـل مـن جـده الريـس "إبراهيـم"، فهـدأ ... ـره وقنعـت نفسـه بـأن عمـره لم يضـع، بـل امتـد لأعـوام أخـرى.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

17

ورث الابـن الأكـبر "فهمـي" مـن أخوالـه، أو بالأحـرى مـن جدتـه
لأمـه، ملامحهــم المنمنمــة وأعينهــم العسـلية وقامتهــم القصــيرة،
فكان أقـصر مــن أخويــه "محيــي" و"إبراهيــم"، فـلا يمـر يـوم إلا
ويتنـدر الحـاج عـلى طـول "إبراهيـم" وعـلى قـصر "فهمـي"، وأنـه
لولا توسـط طـول "محيـي" بينهـما لصـار أمرهـما "مُسـخة" الخلـق.
لكن "فهمـي" -عـلى قـصر قامتـه- كان أشـد إخوتـه بأسًـا، وأصلبهـم
راسًـا، فاختـار ألا يعمـل مـع أبيـه في الوكالـة وامتهـن ثـاني أكـثر
المهـن شـيوعًا بـين أهـالي "إمبابـة"، الطباعـة.

عمـل في بـادئ الأمـر بأحـد المطابـع الأهليـة التـي كان يمتلكهـا
يهـودي يُدعـى "هـارون الصبـاغ"، رجـلٌ كريـمٌ، ذو جسـد ممتلـئ

t.me/qurssan

قصير ونظر ضعيف، لكنه كان خبيرًا بمهنة الطباعة، وبكل صغيرة وكبيرة في مطبعته. فكان أحد "المطبعجية" الذين استطاعوا أن يجاروا قوة المطابع الحكومية حين اكتسحت وسيطرت على سوق الطباعة بعد الحرب. كان يعامل عمال مطبعته باللين والهوادة، ويزيد في أجورهم بعض الشيء حتى لا يتركوا مطبعته حين تسنح لهم فرصة العمل في المطابع الحكومية، أو على الأقل حتى لا يستميلهم أصحاب المطابع الأهلية الأخرى. فاستقر الوضع لـ"فهمي" بعض الشيء في مطبعة "هارون" رغم محاولات الحاج "علي" الحثيثة لإقناعه بالعدول عن هذه الفكرة. أصر "فهمي" كعادته شديد إصراره على الاستمرار في قراره، فلم يجد أبوه مفرًا من أن يتركه لينفذ رغبته في أن يكون "مطبعجيًا".

سمع "فهمي" من زملائه في مطبعة "هارون" أن باب التوظيف بالمطابع الأميرية في بولاق قد تم فتحه مرة أخرى، وأنهم سيذهبون في صباح اليوم التالي لتسجيل أسمائهم هناك، فتحرّج من أن يترك العمل في المطبعة أو حتى أن يذهب معهم لتقديم أوراقه، دون أن يُعلم السيد "هارون" رب عمله الذي كان يحبه ويجلّه..

- يا خواجة "هارون"...

- إيه يا "خواجة" دي.. اليهود مش خواجات.. إحنا مصاروة زيكم.. أنا أجدع مطبعجي في بر مصر كلها.

- لا والله يا أسطى.. زلة لسان.. ماقصدش.

- سماح النوبة.. قول عايز إيه؟

t.me/qurssan

- أنا عايزك في كلمتين بعد ما العمال يمشوا.

- طب روح شوف شغلك.. هاستناك بعد الانصراف.

وبالفعل انتظره السيد "هارون" بعد انصراف العمال، ودعاه لمكتبه ليتحدثا هناك..

- ها يا "فهمي".. إيه الحكاية؟

- لا خير إن شاء الله.. أنا بس عايز أجي لك دوغري.

- خير يا بني.. وغوشتني!

- بص يا أسطى.. المطبعة الأميرية فتحت باب التوظيف من يومين.

- هممم.. وإنت قدمت فيها.. مش كده؟

- مش بالظبط.. بس كنت ناوي.. ومش قبل ما آخد إذنك.

- إذن إيه بس يا واد يا خايب انت.. روح يا بني الحَقْ مكان.

ذهل "فهمي" من رد السيد "هارون"، وظن أنه يسخر منه أو انتابه غضب ما سيصبه عليه فيما بعد، أو يطرده من المطبعة..

- يعني أقدّم؟ إنت مش زعلان؟ أنا يهمني رضاك يا أسطى.

خلع السيد "هارون" نظارته ومال للأمام ليتكئ على طرف مكتبه وقد ضاقت عيناه..

t.me/qurssan

- بـص يـا "فهمـي".. أنـا هاقـول لـك نصيحـة شـيلها للزمـن.. إوعـاك يـا بنـي تستنى إذن حـد.. إعمـل الصالح ليـك ولأهلـك مـن غـير مـا تفكـر فـلان هيزعـل ولا عـلان هيقـول.. كلام النـاس عطلـة..

أنـا راجـل أهـم حاجـة في حيـاتي الشـغل.. ماكنتـش هبقـى في مـكاني ده لـو اسـتنيت رأي حـد.. وأنـا عـارف إن الوظيفـة الحكومـي أصلـح لـك حتـى لـو بتاخـد هنـا فلـوس أكـتر.. هنـا مفيـش ضمانـة للشـغل ولا حتـى لشـهرين قـدام.. أنـا نفسـي مـا اضمنـش المطبعـة دي هتفضـل فاتحـة لحـد إمتـى..

ده لـولا شـوية المدوحـرة الـلي اتعلمتهـا مـن السـوق كان زمـاني قافـل مــن زمــان زي أي مطبعجــي.. وإن كنــت بــزود لكــم الأجـرة عـن المطابـع بـره فـده عشـان ماحـدش فيكـو يسـيبني ويـروح مطبعـة تانيـة بحجـة الفلـوس.. لكـن مطابـع الحكومـة حكمـت سـوق الطباعـة خـلاص وسـحبت كل الصنايعيـة.. وإن كان عـلى الصنعـة.. زي مـا علمتكـو هعلـم غيركـو.. اتعـودت خـلاص.

وقبـل أن يـرد "فهمـي" لبـس السـيد "هـارون" نظارتـه وأسـند ظهـره إلى كرسـيه مـرة أخـرى وباغتـه بسـؤاله..

- ها.. مين غيرك عايز يقدم معاك ويمشي؟

توتر "فهمي" وعقد جبينه وقال في تردد..

- آآآ.. لا مؤاخـذة يـا أسـطى "هـارون" إعفينـي أنـا مـن السـؤال ده.. أنـا عمـري مـا أطلـع سر حـد ائتمنّـي عليـه.

t.me/qurssan

يـا واد سر إيـه.. أنـا عايـز أعـرف راسي مـن رجليـا.. وأجهـز نـاس جديـدة تيجـي تسـتلم بدالكـم لمـا تمشـوا.. مـش دي الأصـول بـردو؟

- ماعلـش.. بـلاش أنـا.. مـش هاقـدر.. هـم هييجـوا يقولـوا لـك مـن نفسـهم بكـرة بعـد مـا يقدمـوا.

- إذا كان كـده مـاشي.. وقـل لهـم مايقلقـوش؛ انتـو زي ولادي وأنـا الـلي معلمكـم الصنعة.

ارتـاح "فهمـي" بعـد أن أخـبر السـيد "هـارون" وأزاح هـمًّا كان ـد أثقـل كاهلـه، وشـعر بارتيـاح أكـبر حـين فـرح أبـوه الحـاج علي" هـو الآخـر بقـراره، قناعـة منـه بأنـه حـين يُعـيَّن ابنـه الأكـبر في السـلك الحكومـي فقـد يكتسـب وجاهـة اجتماعيـة لم يسـبق أن حظـي بهـا أحـد مـن أفـراد العائلـة، فظـل يثنـي عليـه ويفتخـر بـه أمـام أقربائـه كلـما واتتـه الفرصـة.. "أمـا (فهمـي) ابنـي بقـى، شـغال في الحكومـة".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

18

لم يواجه الحاج "علي" تلك المشكلة مع ابنيه الأخرين "إبراهيم" و"محيي"، فـ"إبراهيم" لم يرث من جده الشدة والصرامة كما ورث منه الاسم وطول القامة، كان منذ صغره مطواعًا، يكره المواجهات ويفعل ما بوسعه حتى يبتعد عن الصراعات والمشكلات، فانصاع على فوره لقرارات أبيه. أما "محيي" فكان هو خليفة والده في التجارة، يتكلم بنفس لسانه المعسول، وكلامه المنمق، ويضاهيه أحيانا في خفة ظله، لكنه كان مصبوغا بطباع والدته الست "فاطمة"، ورث منها حكمة التدبير والذكاء المتقد. فقرر الحاج أن يصبح "محيي" مسؤولاً عن الوكالة ويكون "إبراهيم" مديرًا للمصبغة، وقد كان.

شب "محيي" تاجرًا بالفطرة، بشوشًا مضيافًا، منمق المظهر مثل أبيه، رفيع المنكبين، ذا وجه منحوت جذاب، يطيب للناس التحدث إليه، تشرّب التجارة من والده بسهولة حتى صار مُلِمًا

t.me/qurssan

بخبايا الوكالة ونواقصها، واستطاع أن يديرها مثلما كان يديرها الحاج ذاته، بل وكان يساعد "إبراهيم" في إدارته للمصبغة حين تنوء به، فيقنع الزبائن بحنكته أن يذهبوا إلى المصبغة بأثوابهم وملابسهم القديمة، التي سيعيدها "إبراهيم" لهم جديدة كما اشتروها. كان يعلم كيف يتعامل مع الزبائن ويكسب ودهم، فاستراح قلب الحاج "علي" وتفرغ هو لملء السجلات وتفنيد المخازن ليعرف أي البضائع صار رائجًا وأيها بائر، فيراعي ذلك في سفراته إلى الشمال لابتياع الأقمشة الجديدة.

ضرب الكساد الكبير أرجاء العالم، فتأثرت حركة التجارة في مصر بالتبعية، وظهرت بداية تأثيره على المصبغة، فلم يعد "إبراهيم" يستطيع ابتياع الصبغة اللازمة لتسيير عمل المصبغة، والتي كان يطلق عليها أبناء كاره "النيلة"، فبدأت تتعطل حركة الصباغة في دكانه، ولم يملك "إبراهيم" من أمره شيئًا، فلم يكن مثابرًا واسع الحيلة في التجارة مثل "محيي"، ولا صلبًا جادًا في عمله مثل "فهمي"، حتى حين حاول "محيي" مساعدته في أزمة الصبغة التي صارت شحيحة باستخدام بعض البدائل اليدوية لها، فكانت تلك البدائل تفي بالغرض مع بعض أنواع الأقمشة دون غيرها.

مرت أسابيع على حالة الركود، وعرج الحاج "علي" على المصبغة ليطمئن على أحوالها في أثناء عودته من صلاة العصر، فوجدها خالية، و"إبراهيم" و"محيي" يجلسان قبالتها أمام طقطوقة المقهى النحاسية يأكلان، فسألهما في تأفف من خلو الدكان من الزبائن..

t.me/qurssan

طبعًا قاعدين تطفحوا ولا هاممكو.. أخبار الإيراد إيه؟

رد "محيي" وهو يمسح آثار الأكل عن فمه..

الحال في الوكالة ماشي اليومين دول.. البضاعة اللي في المخزن تكفي قيمة شهرين كمان.. بس لازم تشوف لك صرفة في طلعة إسكندرية اللي جاية.. الحاج "رجب" لازم يتصرف لك في أي بضاعة.. الحالة ضنك على الكل والله أعلم هتفك إمتى..

صمت الحاج لبرهة ثم رد وهو يلتفت لـ"إبراهيم"..

ربنا ييسر الأمور.. وإنت يا سلطان زمانك.. أخبار إيراد المصبغة إيه؟

نظر "إبراهيم" إلى والده، ثم نظر إلى الطعام في يد "محيي"، وابتسم نصف ابتسامة..

- لا يابا هي يا دوب حتة عباية يتيمة مافيش غيرها.. لسه صاحبتها واخداها من ساعتين.. لولاها ماكنتش عرفت أجيب الأكل ده.

ازداد غضب الحاج واحمرّ وجهه وكاد يقلب الطعام فيوقعه أرضًا..

- يعني يا شوية أنطاع.. إيراد المحل كله صبغة عباية واحدة.. تقوموا تاكلوا بيه زَفَر.. ده إيه النطاعة دي! هات ياد الورك ده.. ماحدش فيكو هياكلُه.. عيّلين أبرد من بعض صحيح.. جاتكم "نيلة".

t.me/qurssan

فانفجــر "إبراهيــم" و"محيــي" في ضحــك مقرقــع حــين رد "محيــي" دون تفكــير..

- يا ربيييت.. هو إحنا لاقيينها.

t.me/qurssan

19

لطالما كان عهد الناس بالدنيا أن "العيال تأتي برزقها"، لكن لم يكن لوصول "نظاكة" إلى الدنيا أية أمارة على سعة الرزق، فوُلدت "نظاكة" بعد سنوات من ضرب الكساد العظيم للبلاد، وباتت بوادر الحرب جلية ووشيكة، حتى وإن طال الكساد، خبرة تعلمها "علي"، بالضبط كما شهدها في الحرب الكبرى الأولى، حين يحل الكساد على كل البلاد، فلا مفر من قيام الحرب على أثره.

تأثرت حركة الملاحة التجارية بشكل عام وحركة مراكب الأقمشة بالأخص. توقفت معظم مراكب الشحن في موانيها، وتأثر كل تجار "تاج الدول" و"كفر الشوام" حتى أصبح "سوق الجِمال" نفسه شبه خالٍ من البضائع، إلا من بعض السلع الآتية برًا من السودان عن طريق "درب الأربعين"، فبعد أن توقفت المراكب عن إمداد التجار بالبضاعة، وعجز معظمهم

t.me/qurssan

عـن تغطيـة الطلبيـات المسـتحقة عليهـم، تدخلـت البنـوك للحجـز علـى وكالاتهـم وحوانيتهـم وكل مـا تحويـه مـن بضاعـة.

عـاش الحـاج "عـلي" بضعـة أشـهر في محـاولات لتفـادي "بروطسـتو" البنـك عـلى أملاكـه، فقـد سـمع أخبـار عـن محـاولات أقرانـه التجـار لتسـديد ديـون البنـك بـلا طائـل، فمنهـم مـن أعيتـه الصدمـة وأسـقطته طريـح الفـراش، ومنهـم مـن جـن جنونـه وهـام في الطرقـات، حتـى إن منهـم مـن قفـز مـن فـوق كوبـري "إمبابـة". لكـن هنـاك أيضًـا مـن اسـتطاع أن يُبقـي عـلى بعـض مـن أموالـه لفتـح تجـارة صغـيرة بعـد أن سـدد كل مسـتحقات البنـوك.

وظلـت الأخبـار تتواتـر عـلى مسـامع الحـاج "عـلي" ويبالـغ النـاس فيـما حـدث لأصحـاب الـوكالات والدكاكـين الأخـرى، إلى أن سـمع بإعـلان البنـك عـن إفـلاس الحـاج "منـدور ختـم" العـلّاف، أقـرب أصدقائـه، وأحـد أفـراد فرقـة مراهنـات الطفولـة، والـذي بـدأ معـه مشـواره منـذ مـا يقـرب مـن عشريـن عامًـا. كان "منـدور" كثـير الـكلام، كثـير الشـكوى، ذلـق اللسـان، يحـب الخطـب الرنانـة والجمـل الحماسـية منـذ أن كان صغـيرًا. زاره "عـلي" بعـد حجـز البنـك عـلى دكان علافتـه ليطمـئن عليـه ويطلـب مشـورته..

- خلصوا علينا يا "علي".. خلصوا علينا ولاد القحايب.

- البنك بياخد حقه يا "مندور".. مش أكتر.

- أنـا ماقصـدش البنـك.. أقصـد الإنجليـز.. مصمصونـا لحـد مـا اتطربقـت عـلى دماغنـا.

- بس الكساد ساري على الكل.. إنجلترا نفسها حالها وقف.

t.me/qurssan

وهي عشان حالها واقف تيجي تكبش مننا؟

عندك حق والله.. قلبي عندك.

خلي بالك انت من وكالتك.. البروطستو مابيرحمش يا "علي".

ماتشغلش حالك بيا.. هتتدبّر.. المهم انت هتعمل إيه؟

ولا حاجة.. هجيب ضرفها وأدور على سكة تانية.. يمكن أفتح دكان أبويا وأشتغل بإيدي تاني.

فانتفض "علي" واعتدل في جلسته..

دكان أبوك! صرماتي يا "مندور"؟

أيوه صرماتي.. هو عيب ولا إيه؟ أحسن ما نقعد في بيوتنا زي الولايا.. المهم ربنا يبارك لنا فيها.

بدأ الحاج "علي" التفكير في بدائل لتجارته في حال أن أطاح به "بروطستو" البنك كما أطاح بصديقه الحاج "مندور"، فلم تكن خياراته حاضرة في ذهنه بعد، لم يتخيل نفسه في كار آخر غير كار الأقمشة، ولا في تجارة صغيرة مماثلة.

ثم جاء دور وكالته في الفحص.

حضر مندوب البنك لحصر البضاعة الكائنة بالعقارين، الوكالة والمصبغة، وأمضى اليوم كاملاً مع "محيي" بصفته مديرًا للوكالة، يقلب كل شبر من أركانها ومخزنها ليَجرِدها، بينما كان الحاج "علي" يجلس أمام الوكالة يدخن شيشته في توتر، حتى انتهى المُحضر من فحصه وأنهك معه "محيي" وكل العاملين،

t.me/qurssan

وأصدر قراره في نهاية اليوم بأن عقار الوكالة وما يحويه من أقمشة ولوازم، كافٍ لتسديد ديون البنك، وبالتالي فلا حاجة لهم في الحجز على المصبغة.

t.me/qurssan

20

كعادته دوما وكما عهدته الست "فاطمة" عفويًا مدفوعًا بكبريائه، لم يكن يفكر كثيرًا في مردود أفعاله، فحينما علم يقينًا أنه لا مفر من قرار الحجز على الوكالة كان أكبر همه هو اسم "وكالة الحاج علي"، كيف لاسم عاش يبنيه طوال عمره أن يوضع مرة أخرى على حانوت صغير في تجارة أخرى، أو كيف له وبعد أن أصبحت تجارة الأقمشة في "إمبابة" تذكر مقترنة باسمه أن يعود تاجرًا صغيرًا في "كارِه".

استيقظت "فاطمة" صبيحة اليوم التالي للبروطستو فلم تجده إلى جوارها. قامت من سريرها ونادت عليه فلم يرد. خرجت من غرفتها وبحثت عنه في ساحة المنزل فلم تجده. جالت في كل أرجاء المنزل فلم تجد أثرًا له. بدأ التوتر يتسلل إلى قلبها فأرسلت "إبراهيم" إلى المصبغة عسى أن يكون قد سبقه إلى هناك، لكنه حين وصل إلى المصبغة وجدها لا تزال

t.me/qurssan

مغلقـة، فعـاد إلى أمـه قلقًـا ليخبرهـا بأنـه لم يجـده هنـاك أيضًـا. أمـضى أهـل البيـت مـا تبقـى مـن يومهـم ينتظرونـه ليعـود، لكنه لم يعـد. وعـلى مـدار ثلاثـة أسـابيع أخـرى تـاه فيهـا أبنـاؤه بحثًـا عنـه في كل ركـن مـن أركان "تـاج الـدول" وإلى أطـراف "كفـر الشـوام"، و"ميـت كـردك"، لم يصـل أي منهـم لخيـط قـد يدلهـم عـلى مكانـه.

تفاقـم الوضـع، ولم يـدر "محيـي" كيفيـة الخـلاص. أُغلقـت الوكالـة، مصـدر دخلهـم الأسـاسي، بأمـر البنـك، واختفـى الحـاج دون سـابق تنويـه، فحـين ضاقـت بـه الدنيـا وفقـد الأمـل، ذهـب إلى بعـض التجـار الذيـن كانـوا يعرفونـه في "سـوق الجـمال" وشـارع السـوق ليسـألهم عنـه، حتـى وصـل بسـؤاله إلى كازينـو "الكيـت كات"، وشـارع الترعـة، فلـم يـره أو يسـمع عنـه أحـد.

كانـت "فاطمـة" قـد قاربـت السـتين، لم يَجُـر الزمـن عـلى مظهرهـا، بـل صـادق جمالهـا وزانـه، رسـم بياضـه خصـالاً مكتملـة لا تخالـط السـواد في شـعرها، تـرك فيـه موجاتـه الهادئـة، لم يكنـز الزمـن شـحمًا في ثنايـا جسـدها، بـل ظـل عودهـا مرسـومًا مـن تحـت عباءتهـا التـي اتسـعت -عـن قصـد- مـع سـنوات عمرهـا، لم يتغـير قدهـا أو يعـوجّ، فعملهـا كسـيدة البيـت الوحيـدة في منـزل يسـكنه أربعـة رجـال كان بمثابـة تمريـن يومـي إجبـاري، اشـتد بـه جسـدها، واكتظـت حياتهـا بحياتهـم فصـارت لا تفكـر إلا فيهـم أو لهـم، أفنـت سـنينها فيهـم، وكانـت قنوعـة شـاكرة، تحـب الحـاج ولا تتمنـى إلا رضـاه، لكنهـا حـين اسـتيقظت في اليـوم التـالي ولم تجـده إلى جوارهـا، تنبهـت، اسـتفاقت عـلى بيـت لا رب لـه، هـي ربـه مـن الليلـة.

t.me/qurssan

أعـدت عدتهـا، واتجهـت في زيارتهـا الأسـبوعية إلى مسـجد "سـيدي إسـماعيل" محملـة هـذه المـرة بدعـاء مكـرر ورجـاء مختلـف. الدعـاء هـو أن يسـدد اللـه خطـى "عـلي" أينـما كان، وألا يذلـه ولا يحـط مـن شـأنه في مسـعاه الجديـد. أمـا الرجـاء فـكان أن يلهمهـا الصـواب والحكمـة والجلـد كي تقـوم مقـام الحـاج، وأن يبـارك لهـا في "فهمـي" وباقـي أولادهـا، لعلهـا تتمكـن معهـم مـن تدبـير أمـر البيـت دون الحاجـة إلى "عـلي" ولا شـطحات جنونـه وكبريائـه اللعينـة.

كانـت "فاطمـة" تعلـم أن الحـاج بخـير وأنـه سـيعود، حتـما سـيعود، لكـن ليـس وهـو محنـي الـرأس، سـيعود وبجعبتـه حيلـة جديـدة للـرزق، لكـن مـا لم تتمكـن مـن غفرانـه لـه هـو، كيـف يتركهـم بـلا تحذيـر، ولا سـؤال، ألا يعلـم أن الحيـاة لا تتوقـف؟ خلقهـا اللـه كذلـك، تسـتمر، يجـب أن يجـد البيـت معيـلاً، فقـررت أن تتنـاسى غيـاب "عـلي" وأن تدبـر حالهـا مـن دونـه.

جلـس الإخـوة ثلاثتهـم مـع أمهـم بعـد أن انقـضى شـهر عـلى رحيـل أبيهـم، واتفقـوا عـلى أن يسـتمر "إبراهيـم" في إدارة المصبغـة رغـم الكبـوة التـي كانـت تمـر بهـا، وأن يتوسـط "فهمـي" لـ"محيـي" عنـد السـيد "هـارون الصبـاغ" ليعمـل في مطبعتـه حتـى يتـم فتـح بـاب قبـول العـمال في المطابـع الأميريـة مـرة أخـرى، وأن يـوصي بـكل معارفـه ورؤسـائه ليسـعوا في تعيـين أخيـه "محيـي" معـه في المطابـع الأميريـة، وليحمـل "فهمـي" ابـن الثانيـة والعشريـن لـواء عائـل الأسرة، فاسـتطاعا، براتبـه الضئيـل وحنكتهـا المعهـودة، أن يدبـرا كفـاف يومهـم، أمـا "رحيـم" و"نظاكـة" فقـد تعهـد "فهمـي"

t.me/qurssan

بطبيعـة الحـال والأعـراف بـأن يربيهـما، لم يخـتر بنوتهـما، لكنـه تعهـد.

كحـال النـاس في الـدرب، وكل درب، فقـد بـدأوا يلمّحـون ويتغامـزون عليهـم ويعايرونهـم بغيـاب أبيهـم وتخليـه عنهـم، وظلـت الحكايـات عـن سـبب اختفائـه في التواتـر والانتشـار قرابـة العـام، وفـاض الكيـل حـين دخـل "رحيـم" إلى البيـت في أحـد الأيـام وهـو يبـكي، فـرآه أخـوه "فهمـي"، ولمـا سـأله، قـال بغضـب منهنهًـا..

- الواد "محمود" قال لي.. قال لي يلا يا اللي أبوك طفشان.

فأمسـك "فهمـي" بيـده وخـرج ووقـف بـه في منتصـف الـدرب مستشـيطًا وقـال بصـوت جهـوري مسـمعًا القـاصي قبـل الـداني في حـزم..

- إنـت ابـن "عـلي أبـو طويلـة".. أجـدع مـن أجـدع راجـل في المنطقـة.. والـلي يجيـب سـيرته بكلمـة قدامـك.. اضربـه هـو وأهلـه.. إنـت ماحـدش كاسر عينـك بحاجـة.. فاهـم!

مـرت شـهور عـلى تلـك الواقعـة، وقـارب اختفـاء الحـاج "عـلي" اكتـمال الحـول، إلى أن جـاء الشـيخ "سـلامة"، أحـد تجـار الكليـم في "سـوق الجـمال"، لزيارتهـم في أحـد الأيـام عـلى غـير المعتـاد، وأخبرهـم بأنـه قـد رأى الحـاج "عـلي" يجلـس في أحـد أسـواق "الخرقانيـة"، في "قليـوب"، معـه بعـض أثـواب الأقمشـة يبيعهـا، ومـن أمامـه طشـت مـن الفخـار يصبـغ فيـه الأقمشـة والملابـس.

كانـت السـت "فاطمـة" تتفـادى سـماع أيـة أخبـار جديـدة عنه، فحتـى وإن كان بالفعـل موجـودًا في "قليـوب" فهـذا هـو اختيـاره،

t.me/qurssan

.. هابهم إليه أو طلبهم منه العودة لن يغير شيئًا في خطته، ،إذا كان من عودته بُدّ فسيعود بقرار منه هو، ليس لأنهم وجدوه".

كان "فهمي" بالفعل قد بدأ الإعداد للسفر، فباغتته أمه ،كلامها..

مش هيرجع معاك.

- يعني إيه يامّه؟ أنا هاروح اجيبه..

وأنا باقول لك مش هيرجع معاك.

ليه إن شاء الله؟

هو أبوك مش عارف السكة؟

- إيه؟

- أبوك.. مش عارف السكة؟ ولا عيل صغير؟ لما مشي كان حد ضربه على إيده ولا مشي بمزاجه؟ أبوك لو عايز يرجع هيرجع لما يلدّ عليه الرجوع.. مش لاجل ما احنا عرفنا مكانه.. المهم إننا اتطمنا إنه بخير.. مرواحك ولا هيقدم ولا هيأخر.

لم يبال "فهمي" لكلام أمه واصطحب أخاه "محيي"، وسافرا في صباح اليوم التالي إلى "الخرقانية"، ليتأكدا من كلام الشيخ "سلامة" ويعودا بأبيهما إن كان حقًا هناك.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

21

نـزل الأخـوان محطـة "قليـوب" لا يعرفـان سـوى اسـم سـوق "شـلقان" الـذي أمـلاه عليهـما الشـيخ "سـلامة"، آملـين العثـور عـلى أبيهـما، واتفقـا عـلى أن يفترقـا ليذهـب كل منهـما في اتجـاه ليقتلـه بحثًـا، ويعـودا ليتقابـلا مـرة أخـرى فيصليـا الظهـر في ذلـك المسـجد الكبـير بالقـرب مـن السـوق.

بحــث "محيــي" كثــيرًا في معظـم أنحــاء الســوق فــكان كمــن يبحــث عــن إبــرة في كومــة قــش، ومــرت الســاعات تباعًــا دون جدوى، حتـى سـمع أذان الظهـر، فعـاد إلى المسـجد وقـت إقامـة الصـلاة ودخلـه خائـب الأمـل، ولمـا رأى أخـاه "فهمـي" يقـف في الصفـوف الأولى علـم أن الحـظ لم يحالفـه هـو الآخـر، فدخـل وتوضـأ وانضـم إلى الجماعـة.

t.me/qurssan

أنهى "محيي" صلاته وجلس، ثم بدأ يتأمل المسجد في أثناء تسبيحه، مسجد أبيض كبير لا يتمتع بزخارف كثيرة كمساجد القاهرة، لكنه يبدو أنه قد تم تجديده وطلاء جدرانه مؤخرًا، أعاد النظر إلى أخيه "فهمي" فرآه واقفًا بالقرب من المنبر يصلي السنة، ولما أشاح النظر في أحد جوانب المسجد انتفض حين رأى أباه يجلس وحيدًا، يبدو عليه الإنهاك وقد فقد الكثير من وزنه وقوته، كان جلبابه مجعدًا، هيئته ليست في هندامها الذي تعوده منه، ويتمتم أدعيته بصوت خافت.

انفرجت أسارير "محيي"، وهلل وكبر وعلا صوته في صحن المسجد، وجرى نحوه واحتضنه، فأمطره الحاج بوابل من الأسئلة عن أمه وإخوته، عن حالهم وكيف مر عليهم العام المنصرم. كست وجه "محيي" سعادة عارمة، واسترسل في سرد أحوالهم وأخبار المصبغة وترتيبات أمه لإدارة البيت براتب "فهمي" فقط.

للحظة خاطفة نسي "محيي" أخاه "فهمي"، فما إن عاد إليه عقله وتذكره حتى تلفت حوله، فرآه ينهي صلاة السنة، فصاح به..

- الحاج هنا يا فهمي".

ظهرت على "فهمي" ملامح الدهشة لكنه لم يبتسم، فاقترب من مجلسهم واحتضن أباه في اقتضاب، وعلت وجهه نظرة لائمة متسائلة عن أي سبب قد يكون مقنعًا لهذا الاختفاء، ولكن حياءه واحترامه لأبيه منعاه من سؤاله كما منع أخاه "محيي" من قبله.

t.me/qurssan

لم يتركهما الحاج كثيرًا لشياطينهم، فكانت نظرة "فهمي" ...ط كفيلة بأن تجعله يبدأ الحكي دون سؤال، فأجلسهم إلى ...واره في ركن المسجد وبدأ الحكاية برحلته إلى "الإسكندرية" ...ثًا عن صديقه "رجب الشجاع"، الذي كان يطلب منه دومًا أن يقصده حين يحتاج إلى المساعدة، فلما وجده علم أن الكساد ...د تمكن من تجارته هو الآخر...

"نزلت إسكندرية ورحت لعمكو (رجب) على الدكان عدل.. بس لقيته مقفول.. سألت على القهوة اللي قدامه قالوا لي إنه قافل بقى له أسبوعين.. وفيه مندوب من البنك جه سأل عنه تلات مرات.. قعدت في لوكاندة في محطة الرمل وبقيت بانزل أقعد على القهوة اللي قدام الدكان كل يوم.. تالت يوم لقيت الواد (شرنوبي) الصبي بتاعه جاي بيفتح باب الدكان نص فتحة كده وداخل وهو بيتلفت حواليه.. قفشته من قفاه فاتنفض.. قلت له معلمك (رجب) فين يا واد؟ قال لي هاجيب حاجة من الدكان وآخدك ليه.. ركبنا ورحنا له سيدي بشر.. طلع هو كمان البنك كان هيجي له قريب.. بس هو قفل الدكان ونقل البضاعة لمخزن في سيدي بشر قبل ما يبعتوا له الجواب.. عشان يعرف يعززها ويبيعها بضعف سعرها بدل ما البروطستو ياخدها ويخسف بسعرها الأرض.

قعدت معاه ييجي شهر ونص باساعده يصرّف بضاعته، لحد ما ربنا كرمه وعرف يسد ديون البنك والبنك ماخادش منه الدكان.. ورجعنا فتحناها تاني وواحدة

t.me/qurssan

واحدة عرفنا نمشيها.. وكان الاتفاق إني أكمل شغل معاه في (إسكندرية) لحد ما ربنا يكرمه، وهو يساعدني عشان أرجع أفتح الوكالة في (إمبابة) تاني.. لولا بس جالي المنام اللي غير كل حاجة..

عمكو "رجب" حكّم رأيه إني لازم آخد منه قرشين يساعدني أرجع أقف تاني.. خدت بعضي وجيت على "قليوب".. اشتريت الطشت وكام توب قماش وابتديت أشتغل تاني.. لحد ما ربنا كرم ولميت قرشين على القرشين اللي خدتهم من "رجب" ويا دوب جبت تمن دكان هنا.. وكنت راجع أبلغكم عن باب الرزق الجديد اللي ربنا فتحه لنا".

رد "فهمي" بصوت مضطرب..

- منام! إحنا كنا فاكرينك جرى لك حاجة لحد ما الأغراب شافوك وجم يطمنونا عليك.

فأضاف "محيي" وقد ظهر عليه التشوش..

- وتشتري دكان هنا ليه؟ لينا مين هنا؟ ما ترجع "إمبابة"!

قام الحاج من مقامه وقال في عجالة كأنه لم يسمع كلامهما..

- هافهّمكو كل حاجة لما أجي لكو "إمبابة".. أنا راجع أول الشهر بإذن المولى.

فرد "فهمي" بابتسامة ساخرة..

- أمي كان عندها حق.. قالت لي إنك مش هترجع معانا.

t.me/qurssan

قال الحاج مخففًا حدة الأمور..

أمك قالت كده؟ ماشي يا "فهمي".. أنا بس ورايا التزامات هنا ويومين وهارجع.. إنتو راجعين في قطر أربعة، مش كده؟

أومأ "محيي" بالتصديق، فأكمل الحاج ملاطفته..

- طب القطر قدامه ولا تلات ساعات عقبال ما يقوم.. وده مش أوان غدا بس فيه واحد هنا بيعمل لحمة راس إنما إيبييه! من اللي وصى عليها لقمان لابنه.. باكل منه كل جمعة.. هنتغدا سوا قبل ما ترجعوا.. وهنحلي برز بلبن يدفن لحمة الراس.

فرغ ثلاثتهم من الأكل ثم قاموا وقصدوا محطة القطار، وأخذ يؤكد عليهم في طريقهم إلى هناك ما اتفقوا عليه..

- طمنوا أمكم.. أنا يومين وهابقى عندكم.. وسلامي لـ"نظاكة".. وقولوا لـ"رحيم" إن أبوه ماهربش.. قولوا له إن أبوه حر وراجع.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

22

مـر أسـبوع كامـل، وعـاد الحـاج "عـلي" في عـصر أحـد الأيـام الأولى مـن الشـهر الجديـد كـما وعدهـم. كان اسـتقباله حافـلاً منـذ أن دخـل الـدرب، يسـأله النـاس عـن أحوالـه وعـن سـبب غيابـه فيرد بابتسـامة وإيمـاءة حيبـة، يعاتبـه أصدقـاؤه عـلى غيابـه بعتاب المحبين، فيراضيهـم باعتـذار قـاصر وتربيتـة حميمـة عـلى أكتافهـم، وبعـد العديـد مـن السـلامات والاعتـذارات، وصـل إلى بـاب البيـت وطرقـه، فاسـتقبله "رحيـم" و"نظاكـة" بفـرح شـديد، وهـما يقفـزان ويتعلقـان برقبتـه، وأخـذ "إبراهيـم" يقبلـه ويبـكي في سـعادة غامـرة كأنـه جـاء ليخلصـه مـن مصائـب المصبغـة.

أمـا السـت "فاطمـة" فكانـت تملأهـا الكثـير مـن المشـاعر المختلطـة، مـا بـين شـوق وغضـب وأسى عـلى حالهـا وحالـه، لم تنقطـع زياراتهـا الأسـبوعية لمقـام "سـيدي إسـماعيل"، ولا دعاؤهـا المتكـرر بـأن يعـود الحـاج إلى أحضانهـا منصـورًا مرفـوع الـرأس

t.me/qurssan

ليس كما غادرها، لكنها لم تكن تحمل أيًا من تساؤلات أهل الدرب، فهي تعلم، بالطبع تعلم كل ما دار في ذهنه ليلة أن غادر، وإلى تلك الليلة، فظلت صامتة وأسرّت كل تلك المشاعر في قلبها إلى أن أنهى تحياته وتبريراته الواهية للسائلين من أهالي الدرب، وأقربائهم الذين جاءوا حالما سمعوا بأمر عودته. فلما أنهى جلساته وأكرم ضيوفه وانصرف كل منهم إلى حاله واتجه هو إلى غرفته ليرتاح ويخلع ملابسه.

فتح الباب. كانت "فاطمة" تجلس على الكنبة المقابلة للباب في انتظاره، فوقف للحظة ينظر إليها في توتر، ثم أغلق الباب وبدأ في خلع ملابسه كأن شيئًا لم يكن. لم تبدأ هي الكلام. فمعركة الصمت قائمة، تعرف النساء خباياها وقوانينها، أين يبدأن الحديث ومتى يمسكونه، لن يهزمها فيها الحاج مهما حاول أن يتجاهل الحديث، فظلت تتابعه بنظرتها في صمت حتى اخترقته وأخارت كل دفاعاته التي ظل عامًا كاملاً يصوغها كي يتلوها عليها حين تغضب، لكنها لم تغضب، لم تسأله سؤالاً واحدًا كي يرد عليه، فاستسلم وطأطأ رأسه وجلس بجانبها..

- سامحيني يا ست الستات.

- أسامحك على إيه؟ هو كان إيه اللي جرى؟

- أنا عارف إنك واخدة على خاطرك.

- أنا ولا واخدة على خاطري ولا حاجة.. أنا كنت حاسة انك ماشي.. بس ماصدقتش إن قلبك يطاوعك تمشي من غير ما تستعنى تقول لي.

t.me/qurssan

على عيني والله!

لأ.. ده كان على عيني أنا يا "أبو فهمي".

هم الحاج "علي" واقفًا وانفعل صوته واحتد..

ماكانـش هينفـع يـا "فاطمـة".. ماكانـش هينفـع أرجـع صغـير وسـط نـاس أنـا كنـت كبيرهـم.

وأنـا قلـت لـك ان الشـغل مـش عيـب ومقامـك محفـوظ منـين مـا تـروح.

بـس النـاس شـمّاتة وأنـا مـش هاسـتحمل كلمـة عليكـو أو عليـا في السـن ده.

أنـا بقـى اسـتحملت الـلي أصعـب مـن كـده وماسـبتش العيـال ومشـيت.. وفي الآخـر الـلي كان سـاري علينـا كان سـاري عـلى الـكل وكل النـاس اسـتحملت.

- بس ماحدش فيهم كان ولا هيبقى الحاج "علي".

- طب وبعدين.. أديك غبت قد ما غبت.. حليت إيه؟

هـدأت حـدة صوتـه وجلـس بجانبهـا مـرة أخـرى وأكمـل حديثـه وهـو ينظـر إليهـا في حـماس..

- الحل جالي من عنده.. أنا شفته في المنام.. جـ..

- هو مين ده اللي جالك؟!

- سيدي "إسماعيل".. جالي وقال لي "مد طرفك في قليوب".

- تمد طرفك إزاي يعني!

t.me/qurssan

- يعني نروح "قليوب".. أنا جبت قرشين نفتح دكان صغير ونعمل هناك زي ما عملنا هنا زمان.

- كلام زمان معمول لزمان.. عايزني أسيب اخواتي وأهلي وحالي عشان منام؟

- ده سيدي "إسماعيل" بذات نفسه.

قامت "فاطمة" من مجلسها وعلا صوتها..

- شي لله يا سيدنا.. بس هو قال لك انت يبقى روح له انت.. أنا ما اسيبش أهلي وأقلع عيالي من جدرهم عشان انت حلمت.

- قصدك ايه يا "أم فهمي"؟ عايزة تفرقينا؟!

- إنت اللي فارقت يا "علي" وجاي تاخدنا في سكتك كأننا قلل.

- بس أنا ما اقدرش أعيش من غيرك.. كبرت وما اقدرش أعيش لوحدي.

- ما انت قدرت خلاص.. ولو على الخدمة اتجوّز يا حاج.. اتجوز وشوف واحدة تخدمك وربنا يكرمك فيها.

- أتجوز واسيبك يا "فاطمة"؟!

- إنت سيبتنا خلاص يا "علي".. واحنا الحمد لله عرفنا ندبأها ونعيش.

- طب والعيال؟ "رحيم" و"نظاكة" مين يربيهم؟!

t.me/qurssan

ردت "فاطمـة" في حـزم حـدد مصـير الجميـع، وأحـل "عـلي" مـن الـمزام كان قـد ربطـه بهـم، حـزم قاطـع أتـاح لـه فرصـة أخـرى لتحقيـق حلمـه الجديـد..

أخوهم "فهمي" يربيهم.

لم يكـن اختيـار الحاجـة "فاطمـة" لـ"فهمـي" عائـلاً لـلأسرة بعـد أمرًا غريبًـا بـين العائلـة، ولا يُعـد تفضـلاً مـن "فهمـي" ولا ردًّا لفضل والـده عليـه، لكنـه كان واجبًـا وفـرض عـينٍ لا يسـتطيع أن يتنصل منـه، فـكان العـرف والواجـب يحتـمان بالـضرورة أن غيـاب الأب يعنـي بالطبيعـة ترقيًـا في المراتـب العائليـة، والفقـر يحتـم قاعدة الإخـوة دون مقابـل أو انتظـار لـرد الديـن. كان هـذا هـو العهد دومًـا بينهـم، وهـو أهـم مـا تـرك الحـاج "عـلي" فيهـم.

خرج الحـاج مـن المنـزل بالقـرب مـن منتصـف الليـل مدهوشًـا لما آلـت إليـه الأمـور، صـار يجـول في دروب "تـاج الـدول" حتـى انفلـت منهـا إلى سـاحة المسـجد، ووقـف خارجـه ينظـر إلى القبـة الخضراء مـن بـين مـا تبقـى مـن عربـات العربجيـة، ومجاذيـب ودراويـش الشـيخ "إسـماعيل" الذيـن يمنعهـم خـادم المسـجد مـن المبيـت فيـه فيبيتـون عـلى العربـات، وقـف يناجـي شـيخه..

"مـاذا حـدث لـ(فاطمـة) يـا شـيخنا! كيـف وصـل بهـا الجفاء إلى ذلـك الحـد؟ هـل جـار الزمـن عـلى قلبهـا لهـذه الدرجـة؟ ألم يعـد في نفسـها أي قـدر مـن حبهـا القديـم؟ تطـردني ولا تأبـه لأمـري! بـل وتحثنـي عـلى الـزواج مـن غيرهـا! هـل آذيتهـا إلى هـذه الدرجـة؟

t.me/qurssan

ومـاذا عـن الحلـم؟ لسـت نبيًّـا.. لكـن الرؤيـا جليـة.. أنّى لهـا أن تتجاهـل رؤيـاك يـا شـيخنا؟ هـل أقـدم عـلى الحلـم مـن دونهـا؟ وكيـف لي أن أفعـل أي شيء مـن دونهـا؟ يبـدو أنهـا غاضبـة حقًّـا.. سـوف تهـدأ.. سـوف تهـدأ ولسـوف أعـود لأصحبهـا معـي...

لكـن.. أمـا وإن لم تفعـل؟ (فاطمـة) هـي أرضي.. هـي مـن وهبتنـي جـذوري.. لا.. لا.. لا.. بـل أنـا مـن غرسـت البـذرة.. سـأذهب إلى (قليـوب) وإن لم تلحـق بي سـأغرس بـذرة أخـرى.. سـأحقق الرؤيـا مهـما كلـف الأمـر".

t.me/qurssan

الفصل الرابع

قليوب

t.me/qurssan

t.me/qurssan

23

بعـد أن تجـاوز السـتين وسـاد الشـيب في رأسـه، وجـد الحـاج "علي" نفسـه عـلى مـتن قطـار يحملـه إلى "قليـوب"، ويحمـل معـه المزيـد مـن المشـاعر المختلطـة التـي أثقلـت كاهلـه فيـما بعـد، ودفعـت حياتـه دومًـا إلى حافـة الغرابـة. ومـا إن تحـرك القطـار وبـدأت مئذنـة مسـجد سـيدي "إسـماعيل" ومـن خلفهـا عقـود كوبـري "إمبابـة" في الاختبـاء في طيـات الأفـق، حتـى أحـس بعمـره الـذي ولى ينسـل مـن بـين أصابعـه، وهـا هـو ذا يهجـر سـنين صبـاه وفتوتـه ورشـده مـن أجـل وعـد ضبـابي وحلـم غـير واضـح.

سَرَت فيـه رجفـة شـوق لذكرياتـه مـع أبنائـه وأحبابـه، ومـرّرت حلقـه مـرارة نـدم عـلى تخليـه عـن رفيقـة عمـره، لكنـه لم يسـتطع احتـواء غضبـه الدفـين منهـا لتخليهـا عنـه وعـن أحلامـه. أمـا الخـوف مـن الحيـاة الجديـدة والأمـل في اسـتعادة مكانتـه وتجارتـه

t.me/qurssan

واسـمه، كان تأثيرهـما عليـه حينهـا هينًـا، أو بشـكل آخـر، مُرجئًا لحـين آخـر.

وعـلى الرغـم مـن طباعـه الرافضـة للواقـع، والتـي أبـت عليـه أن يسـتمع لصوت العقـل في نصيحـة السـت "فاطمـة" لـه بـأن ينضـم إلى السـواد الأعظـم مـن البـشر في الاستسـلام لقدرهـم، إلا أن هـذه الطبـاع كانـت هـي الدافـع عـلى مواصلـة رحلـة القطـار وإثبـات صحـة اختيـاره ومسـعاه، فليـس كل البـشر تابعـين، ليـس كلهـم خانعـين لتلـك الفكـرة التـي لَكِـثَّر مـا خدعـوا أنفسـهم بهـا. كانـت قناعتـه راسـخة بـأن اللـه لم يكتـب عـلى النـاس طريقًـا إلا طريقًـا قـد اختـاروه لأنفسـهم، لم يسـيِّرهم إلى مصـير مـا بعينـه، بـل إنهـم يسـيرون إليـه طوعًـا. أمـا هـو فـلا، بـل كان يعلـم أنـه لم يُخلـق ليكـون مثـل باقـي البـشر، لم يخذلـه حدسـه مـن قبـل قـط، ورؤيـا شـيخه "إسـماعيل الإمبـابي" في منامـه كانـت إشـارة كاشـفة كافيـة لاتبـاع حدسـه دون تـردد.

هبـط القطـار محطـة "قليـوب"، ووطئـت قدمـا الحـاج "عـلي" موطنـه الجديـد ولكـن بوعـد آخـر، وعـد ألا يمنعـه أي ظـرف عـن "مـد طرفـه" في "قليـوب". أن يكـون نجاحـه في إعـمار هـذه البقعـة مـن الأرض هـو مسـعاه الجديـد، وألا يفقـده في زخـم الدنيـا.

اسـتأجر هـذه المـرة بيتًـا صغـيرًا بـ"الخرقانيـة" شرقـي مسـجد "طمـيرة" ليكـون قريبًـا مـن السـوق، بعـد أن كان يسـكن طيلـة العـام المنصرم وحـده في إحـدى غـرف "سـبيل الخديـوي" الرديئـة. اسـتقر في بيتـه الجديـد بعـد أن نقـل إليـه حاجياتـه، ثـم نـزل

t.me/qurssan

ال السوق في رحلة بحث جديدة عن دكانٍ صغيرٍ فيه، أو في الـ.ـوارع المحيطة به.

كان في بداية مجيئه لـ"قليوب" قد اصطفى مقهىً بدائيًا ..ـيرًا يقع على ناصية شارع السوق، يهجع إليه كلما أحس ..ـب أو هفه شوقه لحجر دافئ من المعسل، لكنه لم يجد .ه شيشته المعتادة، ولا أيًا من أنواع التبغ المعروفة، فلم يكن المقهى يقدم سوى "الجوزة"، ويرص صبي المقهى في كراسيها .وعًا واحدًا من التبغ المنقوع في العسل الأسود، يتراوح ريحه ..ا بين تبغ الزغلول والسلوم، ولكن بنكهة معطنة، حتى "الولعة" التي تحترق أحجار الجوزة من تحتها، لم تكن من الفحم الصغير كعادة المقاهي في القاهرة، بل كانت من قوالح الذرة الجافة التي كانت تترك طعمًا ترابيًا في نهاية كل نفس .سحبه، لكنه لسبب ما، لا يعلمه، استساغ طعم أحجار الجوزة تلك، وصارت هي متنفسه من تعب اليوم، فقرر أن يكون هذا المقهى هو مركز رحلة بحثه.

ظل "علي" يطوف هنا وهناك طيلة ثلاثة أيام، من أطراف السوق وإلى قلبه، يقطعه ذهابًا إيابًا عدة مرات في اليوم الواحد، لا يبحث فقط، بل يراقب وكالات الأقمشة، عددها وأماكنها، يدرس أنواع الزبائن السائرين في السوق وطبيعتهم، حتى انتصف عليه نهار اليوم الرابع وظن أن اليوم قد تآمر عليه كثلاثة سبقته لكيلا يجد مبتغاه، إلى أن رأى ذاك الحانوت القديم، دكان متوسط المساحة، ذو باب لبني كبير تغطيه الأتربة وخيوط العنكبوت، له درفتان مغلقتان بمزلاج خشبي كبير وقفل صدئ، يبعد عن السوق مسافة شارعين، يبدو أنه

t.me/qurssan

لم يـره في أول بحثـه لِقِدَمـه وتواريـه خلـف الصناديـق الخشـبية الفارغـة، فتوسـم فيـه مبـدأ رحلتـه الأخـيرة.

طـرق بـاب البيـت الـذي كان بـه الـدكان، فخـرج لـه فتى أصهـب طويـل القامـة، أبيـض البـشرة، يغطـي النمـش وجنتيه وأنفـه الدقيـق، عـلى وشـك أن يزاحـم الرجـال في عالمهـم، ألقى عليـه "عـلي" السـلام، فـرد سـلامه باقتضـاب ملـول، فتجاهـل الحاج إيماءاتـه الموحيـة بقلـة الاحـترام، وأخـبره عـن رغبتـه في تأجير الـدكان، فأجابـه بملـل لم يفارقـه أن الـدكان ليـس للإيجـار، فسأله مـرة أخـرى عـما إذا كان أبـوه موجـودًا ليتحـدث معـه، فـرد بنبرة النافـد صـبره..

- أبويـا ميـت مـن تـلات سـنين.. وأمـي لـو نزلـت لـك هتقـول لـك نفـس الـكلام.. الـدكان مـش هنأجرها.

ثم أغلق الباب في وجهه دون أن ينتظر منه ردًا.

وقـف الحـاج لبرهـة أمـام الـدكان، مذهـولاً محرجًـا خائـب الأمـل، ثـم لملـم أذيـال الخيبـة وهـمّ بالرحيـل، لكنـه سـمع صوتًـا يناديـه عـلى الجهـة الأخـرى مـن الطريـق، فاسـتدار ناحيـة الصوت فـرأى رجـلاً ضخـمًا مكـوّرًا يجلـس أمـام محـل الجـزارة القابـع قبالـة الشـارع، يشـير إليـه كي يأتيـه، يبـدو مـن هيأتـه ولطخـات الدمـاء الجافـة في ملابسـه بأنـه صاحـب الجـزارة، وكأنـه رأى مـا حـدث، فذهـب إليـه وألقـى عليـه التحيـة، فأخـذ الرجـل نفسًـا طويـلاً مـن جوزتـه، ثـم رد عليـه السـلام وبـادره بالسـؤال..

- بتدور على مين يا حاج؟

t.me/qurssan

لا والله يا بني.. أنا أصلي مش من النواحيدي.

يبقى بتدور على حاجة مش على حد.

شـكلك ابـن حـلال.. أنـا تاجـر قـماش عـلى بـاب اللـه وكنـت بافكّـر آخـد دكانـة هنـا في السـوق.. بـاب رزق جديـد.

ومالقيتـش غـير الدكانـة دي! ماتتعبـش نفسـك.. ده واد لمـض ومقـاوح.. وأمـه مشـترطة الـلي يفتـح الـدكان ياخـده يشـغله صبـي معـاه.. عشـان كـده مافيـش حـد مـن قلـب السـوق ولا مـن أهـل البلـد كلهـم عايـز الـدكان.. يغـور الـدكان مـن لماضـة الـواد.

انجلـت النظـرة الخائبـة مـن عـلى جبـين الحـاج، وابتسـم، ورد بهـدوء..

- لو الأمر كده تبقى محلولة بإذن الله.

عـبر الحـاج الطريـق مـرة أخـرى للـدكان، وعـاود طـرق بـاب البيـت، فخـرج لـه الولـد مـرة أخـرى، فأخـبره مجـددًا برغبتـه في إيجـار الـدكان. اعتلـت وجـه الولـد نظـرة دهشـة غاضبـة، وقبـل أن يـرد عليـه أو يشـتبك معـه بحديـث غـير لائـق، أمـره بـأن ينـادي عـلى أمـه، فتأفـف الولـد وزمجـر ودخـل ليحـضر أمـه.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

24

كان "قاسم"، الولد الأصهب، بالفعل صعب المراس، ولم يتعلم مهنة بيع الأقمشة بسهولة، فبعد أن وافق الحاج على شرط أمه على تعيينه صبيًا له، وافتتح الوكالة، عانى كثيراً من غلبته وكثرة مناطحته له وللزبائن، فكانت السيدات يتركن الوكالة غاضبات من سوء معاملته لهن، فيركض الحاج وراءهن أمام باب الدكان ليستعيد ودهن ويسترضيهن، ويقسم بعقاب "قاسم" على فعلته، تارة بالتحذير وتارة بالخصم وتارة بإبلاغ أمه عنه. كم من أثواب تلفت على يديه حتى تعلم الصباغة، وكم من أمتار هُدرت من رعونته في القص، فكان الحاج بالفعل تاجرًا محنكًا صبورًا، يعرف كيف يقرأ طباع الناس ويكسب كل إنسان بطريقته.

مرت السنوات القليلة الأولى بصعوبة حتى.اكتسب الحاج ثقة الناس وذاع صيت "وكالة الحاج علي" في السوق وأقطاره

t.me/qurssan

المحيطـة، وتـشرّب "قاسـم" المهنـة منـه، حتـى صـار ذراعـه اليمنـى وكاتـم أسراره، وتشـبع حساسـية البيـع، فصـار الحـاج يعتمـد عليـه بشـكل كبـير في إدارة الوكالـة والتعامـل مـع الزبائـن، حتـى إنـه كان يتركهـا تحـت إدارتـه في بعـض الأحيـان أيامًـا عديـدة حـين يذهـب في رحلاتـه الشـمالية إلى "الإسـكندرية" عنـد صديقـه الأقـدم، وسر نجـاح تجارتـه عـلى مـدار سـنوات عمـره، "رجـب الشـجاع"، الـذي لم تنقطـع علاقتـه بـه قـط.

وعـلى قـدر ازدهـار التجـارة واسـتقرار الحيـاة في "قليـوب"، لم ينـس "عـلي" قـط عمـره المنقـضي مـع أهلـه في "إمبابـة"، لم يقطـع زياراتـه الشـهرية إليهـم، كان يركـب القطـار في مطلـع كل شـهر مملـوءًا بفرحـة غامـرة لرؤيتهـم، لرؤيـة "فاطمـة"، يعـود عـلى أمـل بعيـد، عـسى أن تكـون قـد أعـادت النظـر في أمـر انضمامهـم إليـه في حياتـه الجديـدة في "قليـوب"، لكنهـا كانـت تسـأله في نهايـة كل زيـارة عـما إذا كان قـد وجـد عروسًـا للـزواج، فيجيبهـا باقتضـاب بـأن اللـه لم يـأذن بعـد.

أمـا ليـالي "قليـوب" فـما كانـت تـزداد إلا طـولاً ووحشـةً، فقـد قـارب السـبعين بالفعـل وتملـك منـه شـعور قـوي بـأن زواجـه صـار أمـرًا لا بـد منـه، عليـه اختيـار مـن يؤنسـه ويرعـاه، فلـم تبـارح كلـمات الحاجـة "فاطمـة" خيالـه منـذ أن رحـل "اتجـوز وشـوف نصيبـك"، يبـدو أنهـا كانـت تعنـي كلامهـا حقًّـا، بـل إنهـا تـزداد إصرارًا عـلى قرارهـا كل يـوم أكـثر مـن سـابقه.

عصفـت الأفـكار برأسـه كثـيرًا في تلـك الليلـة حـين عـاد إلى "قليـوب" مـن رحلتـه إلى "إمبابـة". هـل يتـزوج بامـرأة جديـدة

t.me/qurssan

ـا؟ وهـل مـن حـل آخـر؟ هـل تعنـي "فاطمـة" كلماتهـا المؤلمـة أن يتـزوج بأخـرى؟ أم أنهـا تلقـي بهـا هبـاءً ولا تعنيهـا. وبعـد ردد كبـير وأخـذ ورد، حسـم الحـاج قـراره، ففـي صبـاح اليـوم الـالي طلـب مـن السـت "أم قاسـم" أن تبحـث لـه عـن عـروس جديـدة، ليسـت صغـيرة السـن فتكـره عَجـزه، ولا كبـيرة فتنـوء خدمتـه، لكنـه يفضلهـا أن تكـون بـلا أولاد، فهـو لم يعد باسـتطاعته الاهتـمام بأطفـال مـرة أخـرى.

كانــت "أم قاســم" تعمــل كـ"خاطبــة" فلــم تجــد صعوبــة في إيجـاد العـروس المطلوبـة، وفي غضـون شـهور تلـت هـذا الطلـب، كان الحـاج يعـد لعقـد قرانـه عـلى "عزيـزة"، أرملـة أربعينيـة، قصـيرة ممتلئـة، ليـس فيهـا مـن السـت "فاطمـة" شيء، لم ينعـم عليهـا اللـه بجـمال آخـذ مثلهـا، لكنهـا كانـت سـمحة طيبـة المعـشر، ليس لديهـا أيـة أبنـاء، تحمـل كل المواصفـات التـي يبحـث عنهـا في رفيقتـه الجديـدة، لكنهـا كانـت طيبـة لدرجـة يصعـب تصديقهـا، فقبـل أن يحـدد موعـد الـزواج، طلـب مـن والدهـا -الـذي كان في سـن الحـاج "عـلي" نفسـه- أن يسـمح لـه بـأن يجلـس معهـا جلسـة أخـيرة لـكي يخبرهـا ببعـض الأمـور الهامـة التـي يجـب أن يطلعهـا عليهـا قبـل أن يتـما الـزواج.

ذهـب الحـاج "عـلي" إلى منـزل عروسـه الجديـدة قبـل يـوم العـرس بأسـبوع، فجلـس معهـا في غرفـة الجلـوس، وعـلى مـرأى مـن أبويهـا كـما اتفـق معهـما مـن قبـل، فألقـى عليهـا السـلام وبعـد أن طـاب الحديـث بينهـما، اعتـدل في جلسـته وهـم يخبرهـا بـسره..

t.me/qurssan

- بـصي يـا بنـت النـاس.. أنـا هاقـول لـك عـلى كلمتـين عشـان مـا
ابقـاش باغشّـك.. أنـا راجـل عجـوز.. بلغـت مـن العمـر أرذلـه
فمـش عـاوز أعشـمك بحاجـة ربنـا مـش كاتبهـا..

ربنـا أمـر بالوصـل يـا "عزيـزة".. وأنـا عمـري مـا أقطـع وصـل
ربنـا.. ولا أرضى إني أمنـع عنـك حـق أي سـت عـلى راجلهـا.. إلا
لـو انتـي ارتضيتـي وقبلتـي نعيـش مـع بعـض بالمعـروف.

فكان ردها مطمئنًا قنوعًا..

- العفـو يـا سي "عـلي".. ده انـت سـيد الرجالـة.. أهـم حاجـة
العـشرة الطيبـة والمعـروف يـا حـاج.. وحتـى لـو عشـت اخدمك
بـس.. أنـا سـترك وغطـاك.

t.me/qurssan

25

تزوجها الحاج "علي"، وكانت قرة عين وسندًا له، واستقرت له الحال في زيجته الجديدة، إلا أنه كان يعلم أن عليه أن يخبر "فاطمة"، يجب أن يعلم أبناؤه بأمر هذا الزواج، فقرر أن يأخذها معه في رحلته المقبلة إلى "إمبابة" لترى أهله ويراها أبناؤه، وتبارك الست "فاطمة" زواجهما بنفسها.

كانت "عزيزة" سعيدة بهذه الرحلة لدرجة كبيرة؛ فهي لم تغادر قليوب من قبل قط، ولطالما تمنت أن ترى القاهرة رأي العين، أن تطأها بقدميها، وليس من خلال عيني أبيها في حكاياته عنها فقط.

بدأت رحلتها المبهرة منذ أن تركت "قليوب" وركبت القطار للمرة الأولى، ذلك "الماعون الكبير"، كما كانت تطلق عليه، الذي يحمل كل أنواع البشر في آن واحد، إحساسها برائحة

t.me/qurssan

العاصمـة في رواده. بضعـة رجـال مـن ذوي البـزات الرسـميه الأنيقـة، ونسـاء بملابـس ذات ألـوان مغايـرة لألـوان الريـف السـوداء القاتمـة، يجلسـون مطعمـين فيـما بينهـم بجلابيـب وعبـاءات الفلاحـين الوافديـن إلى القاهـرة. يمـر ذلـك الرجـل ليبيـع حلقـات السـميط التـي يحملها في سـبته وينـادي عليهـا بكلـمات منغمـة، فيقابلـه رجـل آخـر يشـاطره أثـر القطـار بكلماتـه المنغمـة خاصتـه ليبيـع بعـض المشروبـات الغازيـة التـي يحملهـا في جردلـه المعـدني. وكأنهـما عـازفي جوقـة محترفـين لا يسـعيان إلا لنجـاح مقطوعتهـما الموسـيقية المشـتركة، التـي يبـدو أنهـا لاقـت نجاحًـا واستحسـانًا لدى الحـاج، فابتـاع لـ"عزيـزة" زجاجـة بـاردة منـه كي ترطـب عليهـا حـر صيـف القطـار.

عـالم آخـر، يسـكنه أنـاس آخـرون، ظلـت تراقبـه مـن مجلسـها وهـي ترشـف مـن زجاجـة المـشروب المرطـب البـارد الـذي استسـاغته، فتنظـر بعينـي السـائح إلى أهـل القطـار يتعاملـون بقوانـين يبـدو أن كل الراكبـين عـلى علـم بهـا إلا هـي. حتـى حـين توقـف القطـار ولاحظـت مـن نافذتـه اختـلاف شـكل المنـازل وتعـدد طوابقهـا عـن المنـازل التـي اعتادتهـا في "قليـوب"، كان طيـف الصـورة بالنسـبة إليهـا بمثابـة لوحـة بشريـة بديعـة تدعـو للتأمـل، فبـدأت تتجـلى لهـا أسـباب وقـوع النـاس في حـب القاهـرة. أمـا مـا لم تسـتطع تفهمـه منـذ أن نزلـوا المحطـة في "إمبابـة" هـو فـرط اختـلاط النسـاء بالرجـال دون سـاتر، ودون أن يلقـي أحدهـم بـالاً للآخـر، أيصـح هـذا؟ أم أن هـذا هـو مـا يميـز أهـل العاصمـة عـن الريفيـين؟ لم تتحـول أي مـن تلـك الخواطـر إلى سـؤال حقيقـي منطـوق في ظـل تمتعهـا بجـمال التجربـة الجديـدة.

t.me/qurssan

كادت تحلق من فرط سعادتها، لكن إحساسها بالفرحة
..ابة القاهرة تعكر قليلاً حين دخلت الدرب، ثم منزل
..احاجة "فاطمة"، فقد أحست بقرويتها الساذجة حين رأت
..احاجة بهيئتها المدنية المتحفظة المنمقة، وسائر نساء الدرب
..اختلافاتهن، فمنهن من ترتدي فستانًا أنيقًا بتطريزات دقيقة
..امين قصيرين، يغطي بالكاد ركبتيها، يشبه فساتين الأميرات
..سات الذوات، وأخريات يلبسن جلابيب ملونة ضيقة تلمع في
..وء النهار من تحت ملاءة سوداء، ويغطين أوجههن ببراقع
..وات قصبات ذهبية لافتة. لم يكن يشبهها، في مظهرها، أي
..ن نساء الحضر. لكنها لم تبال لأي من نظرات أهل الدرب
..لا البيت لها، غير أن طيبة الست "فاطمة" وحسها الدائم
..ا يجب فعله، طغى على كل المشاعر المختلطة، فرحبت بها
وأسكنتها الغرفة الكبيرة وعاملتها كابنتها، إكرامًا لها كضيفة،
واحترامًا للحاج "علي" ذاته.

ذهب الحاج كعادته إلى غرفة "محيي" كي يعرف منه أخبار المطبعة، وما آلت إليه أموره بها، فاستغلت الست "فاطمة" الفرصة ولحقت به إلى هناك، فما إن دخلت إلى الغرفة حتى باغتها بسؤاله عن "عزيزة"...

- "عزيزة" بخير؟

- قعّدتها في الأوضة الكبيرة واتطمنت عليها.. بتغير هدومها عقبال ما الغدا يجهز.

- تسلمي وتعيشي يا "أم فهمي".

t.me/qurssan

جلست الست "فاطمة" على طرف سرير "محيي"، ورمقت الحاج الذي كان لا يزال يجلس هو و"محيي" على الكنبة المقابلة لها بنظرة حادة متأملة..

- ألف مبروك يا حاج.

- الله يبارك فيكي يا "فاطمة".

- حلوة "عزيزة".. شكلها غلبانة وبنت ناس.

- آآآ.. أبوها تاجر مواشي كبير في "قليوب".. أمها ميتة وهي طيبة وعايزة تعيش.

- هممم.. فانت قلت تكسب فيها ثواب بقى!

تجاهل الحاج تلميحها وحدة نبرتها اللائمة، ورد عليها بهدوء..

- أيوة أمال إيه.. قبلت بسني وهترعاني.. تاخد بحسي وتونسني بدل ما انا قاعد لوحدي زي الولايا كده.

- لا ربنا يبارك لك وتقدر توفيها حقها.

قطع الحديث صوت "عزيزة" الآتي من باحة المنزل تنادي على الست "فاطمة"، فنظر الحاج إلى "محيي" وقد علم أنه لن يستطيع أن يكمل حديثه معه، ثم عاود النظر إلى الست "فاطمة"، وقال وابتسامته تعلو وجهه لما تلمّسه من غيرة وحب قديم في صوتها كان قد افتقده فيها منذ سنوات..

- طيب يا "محيي" نكمل كلامنا على الغدا.

t.me/qurssan

وهـم بالخـروج مـن الغرفـة، ليـترك "محيـي" يجلـس صامتًـا مـع
ا. ه وحيديـن، فقـام "محيـي" مـن فـوق كنبتـه، وجلـس بجانـب
ا. ه في حـيرة مـن تلـك النـبرة الجديـدة التـي كانـت تتحـدث بهـا.
..ـت طويـلاً ثـم قطـع صمتـه سـاخرًا..

مش انتي اللي قلتي له يروح يتجوز؟

أيوة.. وهو انا قلت حاجة؟

لا ماقلتيش، بس انتي شفتي كنتي بتكلميه ازاي؟

باكلِّمـه ازاي يعنـي؟ هتعلمنـي أكلـم أبـوك ازاي كـمان يـا واد انـت ولـلا إيـه؟!

الـلي يشـوفك دلوقتـي مايشـوفكيش أول كل شـهر لمـا كان يجـي لي ويسـوقني عليـكي عشـان أقـول لـك نـروح معـاه "قليـوب".. وانتـي تقـولي لي لأ.. يرجـع تـاني يقـول لـك إن الحـال اتعـدل.. تقـولي لـه شـوف حالـك واتجـوز يـا حـاج.. آديـه اتجـوز.. انتـي شـايلة منـه ليـه بقـى؟!

نظـرت إليـه بغضـب مكظـوم، ثـم انفرطـت مشـاعرها ودمعـت عيناهـا وتخلصـت مـن نبرتهـا الحـادة في الحديـث، وردت بعـد صمـت طويـل..

- كنــت فاكــراه هيزهــق ويرجــع "إمبابــة" لمــا يلاقــي نفســه لوحــده.. ولمـا طالـت قعدتـه هنـاك والحـال اتعـدل.. قلـت.. قلـت خـلاص اتعـود عـلى العيشـة لوحـده ومـش هيتجـوز.. ماهــو آدي لــه تــلات ســنين عايــش لوحــده أهــو.. يتجــوز ليــه؟!

t.me/qurssan

تلاشت النبرة الساخرة في حديث "محيي" وأمسك بيده ا
وأخذ يربت عليها..

- ياااااه.. ده انتي صعبة قوي يا "أم فهمي".. وشايلة جوا
كل ده.. وهو بردو دماغه ناشفة وصعيدي.. بس هتعملي
إيه؟ نصيبك كده بقى.. وآدينا كلنا جنبك أهو.. ومطلع
عينيكي معانا مش سايبينك في حالك يعني.. يللا قومي
اغسلي وشك زمان "نظاكة" حضرت الطبالي والغدا هيبرد
مش عايزين ضرتك تشمت فينا.

t.me/qurssan

26

جلس الحاج ومن حوله الست "فاطمة" و"عزيزة"، وأبناؤه الخمسة، أرضًا على طبالي الغداء يتسامرون، فقام "رحيم" الصغير يحكي لأبيه عن الفرقة العسكرية التي شكلها من أطفال الدرب، وعن العروض التي يتدربون عليها. كان "محيي" يجلس صامتًا تعلو وجهه ابتسامة متخفية، يراقب أمه وهي تتفحص "عزيزة" بنظرة "الفرّازة"، كأنها تتأكد من صلاحيتها في أن تحظى بلقب زوجة الحاج و"ضرتها". إلى أن قطع الحاج الحديث وتوجه بسؤاله لـ"إبراهيم" الذي كان يجلس صامتًا شاردًا..

- وانت يا "إبراهيم" يا بني.. مش ناوي تسيبك من المصبغة وتخلي أخوك "فهمي" يشوف لك وظيفة في المطبعة زي "محيي" كده؟ ولا انتو ماعندكوش مكان للتعيينات اليومين دول يا "فهمي"؟

t.me/qurssan

رد "فهمي" باقتضاب وهدوء صارمَين، فكان غضبه القدي م من سفر أبيه وتركه لهم لم ينقشع بعد، ولم يكن يتحدث إل ه كما اعتادا من قبل..

- لا لسه مافتحوش باب التعيينات من ساعة "محيي" ما اتعين.. وكمان "إبراهيم" هو اللي مش حابب شغل المطابع

- حقيقي ده يا "إبراهيم"؟

ترك "إبراهيم" الطعام من يديه، وتردد قليلاً..

- آآآ.. أيوة يابا.. المصبغة شغلها ماشي ومستورة الحمد لله وأنا بصراحة ماليش في الشغل الميري ده.

- شغلها ماشي إيه يا بني.. هو انا بتاع جاز ولا إيه؟! دي المصبغة من غير وكالة قماش جنبها تشغلها ولا تسوى. وبعدين هو حد طايل الميري دلوقتي؟ يا بني إن فاتك الميري اتمرمغ في ترابه.

- ماعلش يابا سيبني براحتي.. أنا مبسوط في المصبغة.. وأهي ماشية.

- خلاص.. على راحتك.

ثم نظر إليه فانتابته نوبة سعال ضاحكة خفيفة وهو يقول..

- ماتخافش.. أنا هابقى أبعت لك زباين من الوكالة عندي في "قليوب" ييجوا يصبغوا عندك هنا في "إمبابة".

t.me/qurssan

ولما انتهى الجميع من طعامهم قامت "عزيزة" لتساعد الست "فاطمة" في نقل فارغ الآنية إلى المطبخ. كانت الست "فاطمة" قد ارتاحت لها، وأحست فيها بطيبة وأصل كريم، فانتهزت فرصة انفرادهما ببعضهما في المطبخ وقالت مرحبة بها..

إنتي آنستينا والله يا "عزيزة".

الله يآنسك يا حاجة.. والله دار كرم.

وانتي بقى دي أول مرة تنزلي مصر؟

آه والنبي.. دي حلوة وكبيرة ياما.

طب بصي يا "عزيزة".. أنا عاوزة أوصيكي على الحاج.. خلي بالك عليه.. هو حِمَقِي حبتين إنما قلبه أبيض وبيصفى بسرعة.. وحتى لو داس لك على طرف في يوم ولا حاجة تعالي اشتكي لي أنا.

- كلام إيه ده حاجة.. سيدي الحاج "علي" في عينيا من غير وصاية.

- أنا عارفة.. بس حبيت أقول لك إن انا زي أمك الله يرحمها.. لو احتجتيني هتلاقيني في ضهرك.

كانت زيارة "عزيزة" الأولى للقاهرة حافلة بجدول مزدحم من زيارات المساجد، والأولياء الذين كانت تتمنى الوقوف ببابهم منذ صباها إذا ما سنحت لها فرصة القدوم إلى القاهرة يومًا ما. لم يكن "إسماعيل الإمبابي" من بينهم إلا أن الحاج أصر

t.me/qurssan

على زيارتها له، فصاحب الأحوال هو الولي وقاضي الحوائج، لا يصح أن تأتي إلى رحابه ولا تزوره.

انقضت أيام الرحلة الثلاثة وحان موعد نهاية الزيارة وبدأ الحاج "علي" في الاستعداد للّحاق بموعد القطار، فطلبت الست "عزيزة" من الحاجة "فاطمة" أن تُحدثها على انفراد. تعجبت الحاجة واصطحبتها إلى المطبخ كي يتحدثا دون حرج، فمالت عليها "عزيزة" واستأذنت منها في أدب شديد أن تعطيها بعضًا من تلك الحبوب الشهية التي تدعى "المكرونة"، كي تتباهى بها أمام قريناتها في "قليوب"، فلم تر أي منهن مثيلتها من قبل.

ضحكت الحاجة واحتضنتها، وأعطتها شكارة مكرونة كاملة من خزينها.

t.me/qurssan

27

علـم الحـاج مـن عشرتـه القصـيرة لـ"عزيـزة" أنهـا ثرثـارة نمامـة، تحـب الحديـث وجلسـات تناقـل أخبـار النـاس، ولكنـه لم يلـقِ بـالاً انـذاك لأي مـن جلسـاتها تلـك، فـكان عـلى صعيـد آخـر قـد وجـد فيهـا مـا كان يبحـث عنـه في زوجـة لكهـل جل مـا أراده هـو الرعاية وهـدوء البـال. لم يبـال لكـثرة حديثهـا مـع جاراتهـا، لم يكـن يعلـم أن ذلـك الطبـع قـد يكـون نقمـة عليـه بأيـة حـال في أحـد الأيـام. فبعـد مـرور عامـين مـن زواجهـما بـدأ الحـاج يلحـظ تغـيُّرًا مـا قـد طـرأ عـلى نظـرة أهـل السـوق إليـه، واختـلاف في طريقـة حديثهـم إليـه، منهـم مـن كان يحدثـه سـاخرًا بعـض الـشيء، أو يحدثـه آخـر مشـفقًا، دون سـبب واضـح لأي منهـما. انجـلى لـه هـذا السـبب بعـد بضعـة أيـام حـين قابلـه "ياقـوت" العطـار جارهـم لمّـا كان عائـدًا مـن صـلاة العشـاء...

- حاج "علي".. تقبل الله.

t.me/qurssan

ـ منا ومنكم.

ـ باقـول لـك يـا حـاج.. أنـا سـمعت خـبر كـده مـش ولا بـد بـس كل مشـكلة ولهـا حـلال.. عنـدي لـك لبخـة ترجعـك ابـن عشريـن.

ـ خـبر إيـه ولبخـة إيـه يـا بنـي؟ قصـدك إيـه يـا "ياقـوت"؟ ما تيجـي معايـا دوغـري!

ـ يـا حـاج الحكايـة مابقيتـش سر.. وانـا مـن سـاعة مـا الوليـة قالـت لي وانـا مكسـوف أكلمـك.. ووالله مـا في نيتـي غـير مصلحتـك انـت وأهـل بيتـك..

ـ أهل بيتي!

أحـس الحـاج "عـلي" بدفعـات مـن الدمـاء تتـسرب مـن ظهـره مندفعـة إلى رأسـه وصقيـع موجـع ينهـش ركبتيـه. تمكـن الغضـب منـه فـترك العطـار ينـادي عليـه دون رد، وذهـب إلى منزلـه مهـرولاً، دخـل وهـو ينـادي بمـلء فيـه..

ـ يا "عزيزة"!

ومـا إن ظهـرت حتـى صفعهـا صفعـة أسـقطتها أرضًـا، وقـال لهـا بصـوت مكلوم..

ـ السـت الـلي تخـرّج سر جوزهـا وهـي بتنـام بالليـل في فرشـته ماتسـتاهلش ولا ليلـة في بيتـه.. لمّـي هدومـك.. هترجعـي بيـت أبـوكي.. الليلـة.

عـادت "عزيـزة" إلي بيـت أبيهـا، وظـل الخـلاف قائمًـا بينهـما طيلـة شـهر كامـل، إذ فشـلت كل محـاولات أبيهـا للصلـح بينهـما،

t.me/qurssan

..ـه استطاع -وبصعوبة شديدة- إثناء الحاج عن قراره ..لاق. فوافق الحاج على تأجيل الطلاق حتى تهدأ نفسه ..بد ترتيب أموره. ظلت نظرة الناس إليه تزداد إيلامًا، ..نب الخروج من بيته إلا إلى الوكالة، لا يتحدث لأحد ولا ..ع لأي من الزبائن، بل كان بالكاد ينظر في عيني "قاسم" ..ين يحاسبه على إيراد الوكالة في نهاية اليوم.

ازداد الوضع سوءًا وحرجًا حتى إنه فكر في الرحيل عن ..بوب" بأكملها، لم ير خلاصًا من تلك المحنة إلا حين طرق الشيخ "جعفر" باب بيته. كان شيخًا نوبيًا طويل القامة، مهيب ..ن، يتحدث كأنه يملك مفاتيح الدنيا ولا يبتغي منها شيئًا، ..ان يراه كل يوم في مسجد "طميرة"، لكنه لم يتكلم معه قط، ..ل إنه لم ير أي من أهل "الخرقانية" يتحدث إليه من قبل. ..لب الشيخ "جعفر" منه أن يذهب معه، فقد يملك حلاً ..شكلاته مع أهل بيته. اعترض الحاج في بادئ الأمر ولكنه انصاع أمام هيبة الشيخ ورجاحة كلامه. فأغلق باب المنزل وراءه وتأبط ذراع الشيخ متكئًا عليه ومضى معه إلى وجهته.

ظن البعض أنها "حجامة إسلامية" عادية، وزعم آخرون أنه "طب نوبي شعبي" نادر، وأن الشيخ "جعفر" قد ذهب به إلى النوبة ذاتها في ليلة واحدة ليعالجه هناك، وتواترت حكايات أخرى عن أسحار سفلية لا يجوز التحدث عنها، وأخرى عن تشريط في الظهر يرسمونه في أثناء قراءة بعض العزائم، كانت آخرها حكاية عن امرأة فاتنة مسحورة، أجمل من حواري الجنة، تزوجها "علي" لليلة واحدة فشفته بجمالها وحلت المربوط. أما المقربون منه فقد ظنوا أن ما حدث هو مباركة

t.me/qurssan

مـن الشـيخ "إسـماعيل الإمبـابي" نفسـه، فهـو شـيخه القديـم، بـا ساقهم ظنهـم إلى أن الشـيخ "إسـماعيل" ذاتـه تجسـد في صـور الشـيخ "جعفـر" ليسـاعد تابعـه "عـلي" في ضائقتـه. أمـا مـا فعلـه الشيخ "جعفـر" بالحـاج "عـلي" حقًـا، ومـا حـدث حقيقـةً في هـذه الرحلـة، كان وسـيظل سرًا لا يعلمـه إلا اللـه وكلاهـما.

عـاد "عـلي" مـن تلـك الرحلـة أفتـى مـن أبنائـه، أقـوى مـما كان عليـه في سـابق عهـده بالفحولـة، وكان ذلـك مدعومًـا بشـهادة مـن "عزيـزة" نفسـها، فقـد توسـط أبوهـا للصلـح بينهـما، وأكـد للحـاج أنهـا لم تكـن تقصـد بـه سـوءًا وأن الأمـر لم يكـن سـوى زلـة لسـان عابـرة لـن تتكـرر. فحينهـا شـعر الحـاج أنـه، وبـزوال العلـة التـي اسـتولدت الخـلاف، يجـب عليـه أن يسـامح "عزيـزة". لم يكـن مـن الـضروري أن يتـمادى في عقابـه لهـا، فهـو الآن ليـس معلـولاً، ويجـب أن يعلـم بذلـك كل مـن سـمع بالعلـة القديمـة.

عـادت المياه إلى مجاريهـا وأصبحـت حياتهـما أسـعد مـما كانـت عليـه، أكـثر مـن مجـرد علاقـة كهـل بامـرأة تخدمـه، ولم يمانـع الحـاج تلـك المـرة مـن ثرثـرة "عزيـزة" في جلسـاتها مـع قريناتهـا، فكانـت النميمـة حينئـذ في صالحـه، وداحضـة لنميمـة الخـزي الأولى التـي وصمتـه.

علـم الحـاج "عـلي" بعـد ذلـك بأمـر انتشـار الأسـاطير عـن رحلتـه مـع الشـيخ "جعفـر"، فأعجبـه فضـول النـاس وأخـذ يتلاعـب بعقولهـم، فـسرد الحكايـات مهـارة يتقنهـا ويعـرف ألاعيبهـا. كان كلـما سـأله أحدهـم عـن الرحلـة، حـكى لـه قصـة جديـدة مـن نسـج خيالـه، حتـى اختلـف النـاس وغـاب أصـل الحكايـة بينهـم.

t.me/qurssan

أما "ياقوت" العطار فحاك له الحاج القصة الأغرب من
...مه، فحين علم من "عزيزة" أن "ياقوت" علم بأمر عودته
مانه من علته، آثر أن يتوارى عنه لأيام، فبات "ياقوت"
أل عنه من كل نهار في السوق، يزوره في دكانه، وينتظره
د صلاة العصر أمام المسجد كعادتهم، فلا يجده في ذاك أو
لك، وبعد انقضاء أيام ثلاثة تعذب فيها العطار بفضوله،
رقه مكظوم غيظه بأن الحاج قد حل به الشفاء على يد
يده، بوصفة غير وصفته، ما هو ذلك العلاج الذي حل
امه وفك عقدته.

ظهر الحاج في صلاة عصر اليوم الرابع يافعًا مشرقًا، يصلي
منتصبًا بعد أن كان يصلي منحنيًا أو -حين تنوء به رجلاه- فوق
كرسي، فجرى عليه "ياقوت" بمجرد أن شاهد طلته، انهال عليه
بسيل من سلامات ومباركات مشوبة بالتملق والزيف الملحوظ،
وأخذ يكرر حديثه عن قلقه الذي انتابه في الأيام الثلاثة
الماضية، فلم يكن يكذب بشأن هذا، وظل يسأل ويستفسر
ويحاول استدراج الحاج ليحكي له عن رحلته، فلا يروي الحاج
ظمأه إلا بإيماءة أو إجابة مسطحة تصلح لكل الأسئلة، حتى
انتاب العطار فتور واضح، وبدا له أن الحاج يلاعبه فتوقف
عن الأسئلة، وحينها فقط ابتسم الحاج متشفيًا وأخذه من
يده في صمت ومشى معه حتى جلسا على مقهاه الواقع على
ناصية السوق، وطلب لهما جوزتين وكوبين من الشاي، ثم بدأ
الحكاية..

"أنا هاريحك وهاحكي لك عشان ماتقعدش تلف وتدور
ويطق لك عرق.. ركبت القطر مع الشيخ (جعفر) أخر

t.me/qurssan

النهـار وأنـا مـا اعرفـش إحنـا رايحـين فـين.. كل مـا أسـأله يقـول لي (بـلاش أسـئلة مالهـاش عـازة).. والقطـر عـوّق قـوي في السـكة.. والشـيخ (جعفـر) مابينطقـش.. وصلنـا "كـوم امبـو" قـرب الفجـر.. ولقيتـه راح قـام وقـال لي يـلا وصلنـا.. خرجنـا مـن المحطـة وركبنـا حماريـن مـن عنـد عربجـي معرفتـه قـرب المحطـة.. ركبنـا ومشـينا ومشـينا.. وأنـا وراه وسـاكت قيمـة سـاعة كـده.. لحـد مـا وصلنـا لعشـة كبـيرة خـوص عـلى بـوص في قلـب الصحـرا.. واللـه مـا اعـرف أوصلهـا تـاني..

الشـيخ (جعفـر) خبـط عـلى البـاب، فتحـت لنـا واحـدة غجريـة مغطيـة وشـها ببرقـع بـس شـعرها مكشـوف.. قـال لهـا (ده الحـاج عـلي) وقـال لي إن إسـمها (وجـد) وإنهـا معرفـة قديمـة.. دخلـت العشـة لقيـت فيهـا بابـين مقفولـين.. قعدنـا و(وجـد) دخلـت بـاب مـن البابـين وغابـت شـوية ورجعـت لنـا بالفطـور.. فطرنـا وحبسـنا بالشـاي..

شـوية والشـيخ خـدني مـن إيـدي مـن غـير كلام ودخلنـا أوضـة مافيهـاش غـير كـرسي واحـد وقدامـه مسـتوقد بخـور.. سـابني وخـرج قيمـة عـشر دقايـق.. ودخـل ومعـاه (وجـد).. قـال لي أقعـد عـلى الكـرسي.. قامـت (وجـد) رمـت حتـة بخـور في المسـتوقد.. شـوية والدخـان مـلا الأوضـة وابتديـت أدروخ..

وعنهـا يـا (ياقـوت) ودخلـت علينـا واحـدة تانيـة شـكلها كانـت قاعـدة في الأوضـة التانيـة لمـا أنـا دخلـت.. بـس إيـه..

t.me/qurssan

اللهم صلي على كامل النور.. جمال أنا ماشفتلوش زَيّ.. سورية من الجنة.. سمرا.. شعرها إسود ليل.. عينين عسلي دُبّلي.. ولا لابسة برقع ولا طرحة.. يا دوب فستان أخضر خفيف مفسر تفاصيل كَسْمَها.. عود غزال شارد.. ماباقتش فاهم أنا باحلم ولا مُتّ ودخلت الجنة.. قامت (وجد) مالت على كتفي وقالت لي بصوت واطي في ودني: دي (جمال) أختي.. هتتجوزوا الليلة وهي هتفك المعقود...

بيني وبينك أنا عيني زاغت.. بس افتكرت (عزيزة) والحاجة (فاطمة).. وجيت أقوم عشان أقول للشيخ (جعفر) لأ بعلو صوتي.. رجلي ماشالتنيش.. وصوتي ماطلعش.. بصيت على (جمال) لقيتها بتضحك لي.. فضحكت لها.. ولقيت (وجد) راحت حطت إيدها على راسي وقالت (بسم الشافي المعافي).. والدنيا قلبت كحل.. وغبت في ملكوت ربنا.. مش فاكر أي حاجة غير إني لما فُقت لقيت نفسي قاعد على مصطبة قدام العشة وجنبي الشيخ (جعفر) وحاسس إن صحة الدنيا كلها فيا".

قام الحاج من مجلسه مع "ياقوت" العطار، وأخذ نفسًا أخيرًا من الجوزة وربت على كتفه وتركه في صدمة مما سمعه من الحكاية، ومشى خفيفًا مسرعًا أمامه، عائدًا إلى وكالته. كان الحاج "علي" يتعمد أن يحكي حكاية مختلفة أمام كل شخص ممن تطفلوا على أسرار بيته، ثم يتركهم لفضول يعبث بعقولهم.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

28

استلمت "عزيـزة" أول تلغـراف في عمرهـا، حينـما حـضر سـاعي البـريد "الخرقانيـة" وأخبرهـا بأنـه يحمـل تلغرافًـا للمدعـو "عـلي إبراهيـم أبـو طويلـة" وعليهـا أن توقـع أو أن تبصـم بالاسـتلام، فبصمـت بفرحـة غامـرة وبـطء شـديد وأخـذت التلغـراف بحـرص لتضعـه فـوق خـوان غرفـة النـوم كأنـه تمثـال مـن الزجاج، وجلسـت أمامـه متأملـة الحـروف التـي لا تفهـم منهـا شـيئًا في انتظـار الحـاج حتـى يعـود. ولمـا عـاد، رآهـا تجلـس هائمـة أمـام التلغـراف دون أن تلحـظ دخولـه، فناداهـا..

- سرحانة في إيه يا عزيزة"؟

فتلعثمت حين رأته وقالت له بفرحة طفولية..

- الحق يا حاج.. جالك البتاع دهو في البوسطة.

t.me/qurssan

فضحك من انبهارها الساذج وابتسامتها الطفلة، ثم تناول التلغراف وفتحه وبدأ في قراءته...

"ابنكم فهمي يستعد للزواج. يرجى الحضور لإتمام الخطبة"

أخذ الحاج يكبّر وتدمع عيناه ويهلل فرحًا، فهرع إلى محطة القطار لحجز أقرب القطارات المتاحة إلى "إمبابة"، ثم عاد إلى المنزل مسرعًا وبدأ يهرول في الاستعداد للسفر ويصيح في "عزيزة" لكي تسرع في حزم أمتعته، ولما سألته عما إذا كانت تستطيع أن تسافر معه، فنهرها..

- هو انتي هتيجي معايا كل نوبة ولا إيه؟ إن شاء المولى هاخدك معايا في الليلة الكبيرة.. المرة دي يا دوب هروح نشبك العروسة بس.

وفي ظرف سويعات قليلة استقل القطار إلى "إمبابة".

كعادته كان كلما ركب القطار تساوره أفكار لم تطرق خياله من قبل، فبدأ يفكر في دوره في حياة أبنائه، وبالأخص حياة "فهمي"، ومدى احتياجه إليه، فمنذ أن فارقهم ولديه شعور دفين بأنهم زهدوا مساعدته ولم يعودوا يحتاجونه إلا ليبلغوه أخبارهم، فها هو ابنه الأكبر أقبل على الزواج دون أن يستشيره. لم يتوقع أن تكون تلك هي ضريبة غيابه، لم يكن يعلم أن "فهمي" سيعامله بهذا الجفاء، وإلى متى ستستمر هذه القسوة، فلم يخفف وطأة هذه الفكرة عليه إلا ظهور مئذنة سيدي "إسماعيل" في الأفق.

t.me/qurssan

بعد الترحيب والسلام، والشكوى والملام، جلس الحاج "علي" م "فهمي" بمفرده ليسمع منه القصة، قصة حبه الجديد التي ال ينتظر أن يسمعها من ابنه الأكبر، قصة حب تعيد لقلبه ع الطبول القديم، فيتحقق مرة أخرى كعاشق وأب، لكن ابة "فهمي" لم تكن كما تمناها، لم تحمل له مبتغاه، فكانت ابة شاب مستقيم، صعب المراس، رب لأسرته، أعجب ارته "زينب"، وأحس القبول من جانبها فقرر الزواج بها، ات "زينب" جميلة الطلة، ذات بشرة شاهقة البياض، وعينين مراوين، يشع وجهها حيوية ونشاطًا، يظهر في عينيها جمود لأ نظرتها حدة ينفر الناس منها، أو بالأحرى يفكرون مليًا ل أن يقدموا على التساهل معها ومحادثتها، كان تشبه في نتها الست "فاطمة" نفسها، لكنها كانت تفتقر إلى رحابة سدر واللين اللذين كانت توليهما الست "فاطمة" في تعاملها ع البشر، كانت "زينب" حازمة صارمة، لا تلقي لكلامها بالاً ل أن تنطق به، فإن كان كلامها حقًا أطلقته دون أن تنمقه أو تزخرفه، بيد أن ذاك هو أشد ما أعجب "فهمي"، فقرر أن تقدم للزواج بها. حكى لأمه عنها وأرسل إلى أبيه ليكون معه ين يذهب لخطبتها، تلك كانت هي الأصول التي تربى عليها "فهمي" ولم يكن يتخطاها في حياته إطلاقًا، فعلى الرغم من سخطه الدفين تجاه أبيه، لم يخطر بباله أبدًا أن يُقْدِم على الزواج دون علم والده وإذنه.

لتتابع الأيام مفعول السحر، فعل الزمن فيها هادئ وحييّ، لا يضاهيه شيءٌ في مهارة فعله، نَدَبه الله ليقيم في البشر صفة النسيان، أوجدها الله فيهم واشتق لهم منها اسم "الإنسان"،

t.me/qurssan

ثـم جعـل الزمـن عليهـا رقيبًـا، عـلى ألا يـترك البـشر عـلى حالهـم أبـدًا، ينسـيهم حالهـم التـي كانـت، فيبدلهـم حـالاً غيرهـا، ثـم ينسـيهم إياهـا مـرة أخـرى، يقلـب قلوبهـم ويغـير هواهـا.

تجلـت مهـارة الزمـن وبرقـت حـين اسـتطاع أن يُنـسي "فهمـي" غضبـه تجـاه أبيـه، ففـي نهايـة جلسـتهم تلـك، أبلـغ أبـاه بقـراره -الـذي اتخـذه بمشـورة أمـه- أن يقيـم، وعروسـه "زينـب"، في غرفتـه في البيـت الكبـير مـع السـت "فاطمـة"، فهـو لا يـزال راعـي الأسرة وعائلهـا، ولا يصـح أن يـترك بيتـه وعيالـه ليتزوج في بيـت جديد. لكن لم يكـن وقـع القـرار عـلى الحـاج هينًـا، فاسـتحالت فرحتـه صمتًـا، وأحـس بتحـرّج شـديد مـما تـرك لـ"فهمـي" مـن مسـؤوليات وهمـوم أوجبـت عليـه هـذا القـرار، فغالـب تحرّجـه وأمسـك بكتفـه وبـارك لـه الزيجـة، ثـم أعلـن بحـزم تكفلـه الكامـل بتكاليـف تجديـد ودهـان وفـرش وتأثيـث الغرفـة لـكي تليـق بالعروسـين الجديديـن.

بـدا "فهمـي" في بدايـة الأمـر متأففًـا ضجـرًا، رافضًـا غـير آبـه لفرحـة أبيـه ولا لإصراره عـلى تحمـل تلـك التكاليـف، لكـن بعـد أيـام مـن الزيـارة، والعديـد مـن المناقشـات والمشـاحنات، لانـت صلابتـه المعهـودة، وأعـرض عـن تصديـه للعـرض أمـام سـيل أبيـه مـن التكـرار والإصرار والتمسـك، وللمـرة الأولى منـذ أن رحـل الحـاج إلى "قليـوب" تَلمّـس "فهمـي" في صوتـه لهفـة وصدقًـا لم يتلمسـهما فيـه منـذ سـنين، وشـعر فيـه برغبـة حقيقيـة في تحمـل ولـو جـزء صغـير مـن مسـؤولياته، فتخـلى "فهمـي" -للمـرة الأولى- عـن مناطحتـه لأبيـه، وتركـه يظفـر هـذه المـرة بقـراره.

t.me/qurssan

عـاد الحـاج "عـلي" هـذه المـرة إلى "قليـوب" في حالـة مـن الرضـا ا ا آلـت إليـه الأحـوال، فقـد علـم يقينـا بقـدره الكبـير عنـد أولاده، ،: عـر -ولـو لفـترة وجيـزة- بقـدر مـن التواصـل مـع ابنـه الأكـبر، وهـو شيء لطالمـا افتقـده معـه عـلى عكـس علاقتـه مـع "إبراهيـم" ،"محيـي" التـي كانـت دومًـا ودودة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الخامس

البيت الكبير

t.me/qurssan

t.me/qurssan

29

أبويا العزيز،

تحية طيبة وبعد

أرسل إليك رسالتي هذه لأطمئن عليك وعلى أحوالك، فغيابك عن زيارتنا الشهر الماضي أقلقنا جميعًا، أتمنى أن تكون بأفضل صحة وأحسن حال، الحاجة "فاطمة" تدعو لك في كل صلواتها بالصحة وراحة البال، أما "فهمي" أخويا فمنذ زيارتك الأخيرة وقد تغيرت طريقة كلامه عنك، وصارت سيرتك لا تأتي على لسانه إلا بالخير بعد أن كان يتجنب ذكرها.

t.me/qurssan

أما عن أحوالنا، فبسم الله والله أكبر علمنا أن "زينب" زوجة "فهمي" حامل في الشهر الثاني، وكل الأسرة في انتظار أول أحفاد "علي أبو طويلة" بفارغ الصبر، بارك الله لك فيه وجعله ذرية صالحة وامتدادًا طيبًا لذكرك بإذن الله.

"نظاكة" مريضة شوية ومغلبة الحاجة معاها، لكنها ترسل إليك سلامها وتبلغك أنها ستتفوق في امتحانات نصف العام كما وعدتك إن شاء الله. أما أنا -ولله الحمد- فقد حصلت على أول ترقية لي في المطبعة، وأصبحت أصغر "أسطى مكنة" في المطبعة كلها.

"رحيم" ده بقى حكاية حكاية، زي ما انت عارف لامم صحابه وعامل فرقة عساكر من عيال الشارع وهو القائد بتاعهم، وكل يوم الصبح قبل ما يروح المدرسة يخرج يعمل لهم طابور عسكري، ومفصل لهم بنادق خشب من عند عم "حمدان" النجار وطواقي ورق وعاملين فيها جيش وبيعملوا عروض ويحموا الدرب بحق وحقيقي، تقولش حامي حمى الديار!

من أسبوعين مأمور القسم عرف بأمر فرقة "رحيم" العسكرية ولقيناه أرسل إلينا عسكري بيقول إنه عايز "رحيم" وفرقته يمشوا أمام تشريفة الشرطة في عيد تتويج الملك، وعنها يا سيدي و"رحيم" صدق نفسه، وابتدوا يتدربوا مرتين في اليوم على العرض اللي هيقدموه قدام التشريفة، مرة الصبح قبل ما يروح المدرسة، ومرة تانية

t.me/qurssan

اخـر النهـار، ومأمـور القسـم جـه قبلهـا بيومـين بنفسـه
،شـوف العـرض، ويـوم التتويـج خرجـوا فعـلاً قـدام التشريفة
وعملـوا العـرض وشـكلهم كان يفـرح، وخـدوا نياشـين ملكيـة
كمان، المأمـور بيقـول إن الملـك بنفسـه أثنـى عـلى عرضهـم..
يـا ريتـك كنـت هنـا عشـان تشـوفهم.

لكـن الموضـوع الأهـم والـذي أكتـب إليـك بشـأنه هـو
أخويـا "إبراهيـم"، فبسـبب أحـوال الحـرب والـلي بيحصـل
في البلـد زي مـا انـت عـارف، أصبـح مـن الصعـب عليـه أن
يشـتري "نيلـة" عشـان يشـغل المصبغـة، ومـن كام يـوم كـده
راح المصبغـة لخـالي "نجيـب" يسـأله هـو بيشـتري الصبغـة
منـين ويطلـب منـه يسـاعده، فـأول لمـا راحلـه يبـدو كـده
إن خـالي فهـم طلبـه غلـط، وافتكـره جـي يطلـب إيـد بنتـه
"حُسـن"، فـرد عليـه وقـال لـه "ومكسـوف ليـه.. مـا هـي
لحمـك وأنـت أولى بيهـا" فرجـع للحاجـة وقـال لهـا إن خـالي
افتكـره كان جـاي يطلـب منـه إيـد "حُسـن" وهـو زي مـا
انـت عـارف لبخـة وبيغـرق في شـبر ميّـة، وأحـرج يقـول لـه
إنـه جـاي عشـان الصبغـة مـش عشـان "حُسـن"، وأمـي طبعًا
روحهـا في خـالي "نجيـب" فوافقـت ورحبـت. "إبراهيـم" زي
مـا انـت عـارف مـش عايـز يزعـل خالـه ولا الحاجـة بـس
هـو مخطـوف وماكانـش عامـل حسـابه عـلى جـواز دلوقتـي
في وسـط أزمـة المصبغـة.

t.me/qurssan

"إبراهيـم" طلـب منـي أبلغـك إنـه عايـزك تيجـي في أقـرب فرصـة عشـان يشـورك في الحكايـة دي، أتمنـى ألا تغيـب عنـا أكـثر مـن ذلـك وأن تعجـل بالزيـارة.

أنـا والحاجـة والجميـع هنـا نرسـل إليـك السـلام، ونتمنـى إنـك تكـون بأفضـل صحـة وأحسـن حـال.

ابنك المحب دومًا

"محيي"

t.me/qurssan

30

انتظر الحاج "علي" حتى لانت قبضة المرض على جسده، واستقل القطار مرة أخرى عائدًا لـ"إمبابة"، فكان قد مر بعدة ،زلات شعبية شديدة بسبب دخول فصل الشتاء منعته حتى من مباشرة عمله بالوكالة، فاضطر إلى الاعتماد مرة أخرى وبشكل كامل على مساعده العنيد "قاسم"، فكان "قاسم" هذه المرة، وعلى عكس عهد الناس به، عند حسن ظن الحاج، فاستطاع أن يدير العمل في الوكالة على أكمل وجه، فكان يساير الزبونات ويلبي طلباتهن حتى انتهت الوعكة التي أصابت الحاج.

ذهب الحاج إلى "إمبابة" هذه المرة مملوءًا بإحساس المسؤولية تجاه أولاده، فكان "إبراهيم" في أمس الحاجة إلى نصيحته، وها هو ذا يطلبها منه صريحة، لقد مر زمن طويل منذ أن خالجه إحساس مشابه لذلك، فحين وصل إلى بيت

t.me/qurssan

العائلة توجه مباشرة إلى غرفة "إبراهيم" ليجلس معه، وا
سأله، بدأ "إبراهيم" يحكى له تفاصيل سوء التفاهم مع خال

- عملت إيه يا خايب؟ خالك لبسك العِمّة يا طرُبْش؟

- يا دوب والله يابا دخلت عليه وباقول له "أنا مكسو
منك يا خال ومش عارف أقول لك إيه.. بس انت م
غريب ومش هترد طلبي".. لقيته بيقول لي "دي لحم
ودمك" وراح الكلام في سكة الجواز من "حُسن".. وأنا والل
كان قصدي على الصبغة مش أكتر.

انفجر الحاج "علي" ضاحكًا ودخل في نوبة سعال ضار
حتى احمر وجهه، وأشار لـ"إبراهيم" بيده ليتوقف عن الح
حتى يلتقط أنفاسه، ثم أشار له بأن يكمل حين هدأ
النوبة..

- ... خالك "نجيب" ده طول عمره كده.. كمّل كمّل.

- مافيهاش كمالة.. ماعرفتش أرد عليه فسكتّ.. ولقيته رفع
إيديه وبيقرا الفاتحة.. فقريت معاه فاتحة.

- وأمك رأيها إيه في الكلام ده؟

- أمي الكلام جه على هواها طبعًا.. قالت لي هي "حُسن"
مش حلوة قوي بس بنت حلال وهتصونك.. ويللا على
بركة الله.

- إن جيت للحق هي مش حلوة خالص.

- يابا مش وقت هزار يابا.. دبرني أعمل إيه؟

t.me/qurssan

- ري إيه ياض ما تنشف كده.. اسمع.. إنت كاره البت؟..
..ي شايف فيها اللي احنا بنشوفه في نسواننا؟ ولا مافيش
.. ول خالص؟

لا مش كاره يابا.. "حُسن" ماتتعيِّبش.. بس مش هو ده
.ربط الفرس.. الحال مش ولا بد والدنيا ضنك.. ما انت
.ارف اللي فيها.. مش وقت جواز وصرف اليومين دول.

.الما مش كاره يبقى ماتحملش هم.. هتتدبر.. لو "حُسن"
.ايزة بيت من بابه لوحدها ماتقلقش.. ولو حبكت قوي
البيت أهو يساعك انت واخواتك وعشرة غيركو.. وإذا كان
.لى الفلوس أنا موجود وسدّاد واخواتك معاك كمان..
.طول ما نيتك صافية واخواتك حواليك تفوت في الحديد..
صفي نيتك وتوكل على الله.

تمت ترتيبات الزواج بسرعة شديدة، وفي غضون شهرين
أ م "إبراهيم" شبكته على ابنة خاله ذات السبعة عشر ربيعًا،
لم يكن لهيئتها أي نصيب من اسمها، فكانت متوسطة الطول
.احظة العينين، لها أنف مستدير وفم صغير، يقع لون
.شرتها المنطفئة بين السمرة الخمرية المحببة والبياض الآخذ
الذي يتهافت عليه الرجال، لا تفارقها ربطة رأسها المربوطة
.إحكام لتداري بها شعرها الأشعث المتهالك؛ لم يكن لديها من
الوقت ما يسمح لها بالاعتناء به وهدهدته كما كانت تفعل
أختها "ورد"، فكانت "ورد" تشبهها كثيرًا في ملامحها، لكن تفرغها
للعناية بمظهرها وشعرها كان له أثر واضح في أن يلحظها الشباب
فتحظى باستحسان وقبول معقول منهم، بينما تحظى "حُسن"

t.me/qurssan

بـكل أعبـاء المنـزل مـن نظافـة وطبـخ وغسـيل، لكـن "حُسـن
الابنــة الكـبرى، ولا يصــح إلا أن تتــزوج قبــل "ورد"، فحـين حـد
"إبراهيـم" وزل لسـانه مـع خالـه، مـا كان مـن الأمـر إلا أن يتـم
زواجـه بـ"حُسـن"، ومـا كان ليتـم مـن دون اقـتراح أبيـه ومسـاعد
أخيـه "فهمـي"، الـذي كان أول المتكفلـين بطلبـات الشـبكة والمهر
أول المتقدمـين للسـداد، حتـى قبـل أن يفكـر الحـاج "عـلي" نفسه
في المسـاعدة، فـ"فهمـي" هـو كبـير العائلـة.

وفي عــصر اليــوم التــالي لعقــد القــران، نــادى "فهمــي" عـلى
"إبراهيـم" بعـد الغـداء كأن أمـرًا مـا قـد طـرأ بذهنـه..

- "إبراهيم".. عايزك في كلمتين.. هاسبقك على أوضتي.

ثم نادى "فهمي" على "نظاكة"..

- يا "نظاكة" هاتي لنا الشاي في الأوضة جوة.

- حاضر يا أبيه.

وما إن دخلا إلى الغرفة حتى باغته "فهمي" بالسؤال..

- فاضل لك قد إيه عقبال ما تجهز الشقة اللي في بيت خالك؟

- ليه؟!

- رد عليا.. متفق مع خالك الدخلة إمتى؟

- اتفقنا أول جمعة في الشهر الجديد.. يعني قيمة شهر كده.

- طب وهتلحق تجهز الشقة؟

- مش عارف.. حسب التساهيل.

t.me/qurssan

طب إيه رأيك تدخل هنا؟ وتبقى تخلص البيت هناك على مهلك.

هنا فين؟

في أوضتك.. نوضبها لك توضيب عرايس.. وتخلص الشقة اللي هناك على مهلك.. أنا عارف إن الفلوس هتقصر شوية.

والله أنا ماعنديش مانع.. بس انت عارف خالك.

مالكش دعوة بخالك أنا هاكلّمه.

وبالفعل، تمت مراسم العرس بسلاسة بعد اقتراح الحاج ومن بعده "فهمي" الذي ذلل الكثير من العقبات، فكان هذا هو عهدهم بـ"فهمي" في الأوقات الفاصلة، وهذا هو ما أعطاه مكانته بينهم، ما جعلهم دوما يحملون له قدرًا كبيرًا من الاحترام، وطالما انتظروا اللحظات المناسبة كي يردوا إليه ولو جزءًا من فضله.

ازداد عدد أفراد البيت الكبير فردًا، وامتلأ البيت من حول الحاجة "فاطمة". كان البيت الكبير في "درب الحافري" تتوسطه ساحة كبيرة بها ثلاث كنبات إسطنبولي عالية بسحارات، تغطي أرضه بعض الشلتات الصغيرة والطبالي الخشبية، وثلاث قطع من الكليم الفاخر، يتدلى من سقف الساحة مصباح كبير، يملأ نوره أركانها بعد صلاة المغرب، تطل على الساحة خمس غرف نوم واسعة. تتشارك نساء البيت في خدمته وتنظيفه، والطبخ وتحضير طبالي الطعام، ثم يجتمع أهل البيت لتناول الإفطار ثم الغداء معًا في الساحة الكبيرة، أما العشاء فلم يكن

t.me/qurssan

لـه طقـس يومـي، قـد يتناولـه كل رجـل مـع زوجتـه في الغرفـة، أو يتناولونـه منفرديـن في المطبـخ، أمـا الحاجـة "فاطمـة" فكانـ[ت] تتنـاول العشـاء مـع الأطفـال "رحيـم" و"نظاكـة" في غرفتهـا بعـ[د] أن تتأكـد مـن أن "محيـي" قـد تنـاول عشـاءه في غرفتـه، أو تدعـو[ه] ليـأكل معهـا في غرفتهـا بصحبـة الأطفـال. لم يتغـير هـذا الطقـس الـذي وضعتـه حتـى حينـما كان يعـود الحـاج مـن "قليـوب" لبضعـة أيـام، وإن كان بصحبـة السـت "عزيـزة" في المناسـبات.

حتـى لمـا غـادر "إبراهيـم" البيـت الكبـير إلى بيتـه الجديـد حـين انتهـى مـن تجهيـزه وتـرك غرفتـه خاليـة، لم يتغـير نظـام البيـت أدارتـه الحاجـة بحـب وكـرم وافريـن، حتـى إن جيرانهـا كانـوا كثـيرا مـا يلجـأون إليهـا في نهايـة الشـهر ليقترضـوا منهـا بعضًـا مـن حبوب خزينهـا، أو أكوابًـا مـن زلعـات عسـلها، أو حتـى قالبًـا أو قالبـين مـن المِـشّ الخـاص بطوارئهـا.

t.me/qurssan

31

اجتمعت نساء البيت بصحبة الست "لبيبة" الداية في غرفة "زينب" لما آن أوانها، واستقل "محيي" قطار الثامنة صباحا إلى "قليوب" ليبلغ أباه بأوان وصول حفيده الأول. ولما وصل إلى المنزل وطرق بابه العريض، فتحت له الست "عزيزة" وانتابها الذعر حين رأته واقفا بالباب يلتقط أنفاسه...

- خبر إيه يا "محيي".. أمك جرى لها حاجة؟

فرد "محيي" لاهثًا..

- لأ أمي كويسة.. بس "زينب" مرات أخويا بتولد، وأمي مشيعاني أبلغ أبويا.. هو فين؟

فقالت مهللة:

t.me/qurssan

- يـا ألـف نهـار أبيـض.. الحـاج في الوكالـة.. اسـتنى أوصـف ا ا السـكة.. دي قريبـة.

انتفـض الحـاج "عـلي" في فـرح حـين سـمع الخـبر، وفي طري عودتـه مـن الوكالـة إلى المنـزل مسـتندًا إلى كتـف "محيـي"، ظ يـردد أدعيـة وآيـات بصـوت خافـت، لا يظهـر منهـا لـ"محيـي" إلا اتـكاؤه عـلى حـرفي السـين والصـاد، وهـو يذكـر اسـم "إسـماء الإمبـابي" ويسـتجدي مـدده، وفي أثنـاء محاولتـه المتعجلـة لتجه أغراضـه مـع "عزيـزة"، علـم أن الوقـت قـد أزف، وأنـه لـن يستط اللحـاق بالقطـار التـالي، فآثـر أن يسـبقه "محيـي" ليكـون بجان أخيـه إذا مـا احتاجـه، عـلى أن يلحـق بـه مـع "عزيـزة" في قطا الثالثـة عـصرًا، حـين ينتهيـا مـن تجهيـز الحقائـب تجهيـزًا يليـق بإقامـة طويلـة حتـى يـوم السـبوع أو مـا بعـده.

عـاد "محيـي" في القطـار التـالي بمفـرده ووصـل إلى "إمبابـة" بعيـد الظهـيرة. طالـت ولادة "زينـب" حتـى اقتربـت صـلاة العشـاء، فـكان الحـاج قـد وصـل مـع "عزيـزة" إلى "إمبابـة" بالفعـل منـذ ساعات، فبـدأ التوتـر يتسلسـل إلى قلـب "فهمـي"، وصـارت ملامـح القلـق تعلـو وجهـه الصـارم بوضـوح، بعـد أن كان يحـاول إخفاءهـا منـذ الصبـاح، وبـات يقطـع عـرض السـاحة الكبـيرة غُـدُوًّا ورواحًـا في توتـر، ويسـأل أمـه عـن سـبب تأخـر الـولادة، فـترد الحاجـة "فاطمـة" للمـرة الرابعـة بـأن الـولادة البكريـة دائمًـا مـا تكـون صعبـة، فعليـه بالهـدوء لأن الانتظـار قـد يطـول لسـاعات أخـرى.

ولمـا لاحظـت أن كلامهـا لـه لم يلـق منـه تصديقًـا، ولم يمنحـه السـكينة التـي كانـت ترجوها، أشـارت إلى الحـاج، الـذي كان يجلس

t.me/qurssan

، لى كنبـة سـاحة المنـزل العاليـة يناكـف "محيـي" و"إبراهيـم"
.. ـاوب التنـدر عليهـما، أشـارت إليـه بإشـارة متواريـة لم يفهمهـا
لا كلاهـما، بـأن يُعمـل سـحره ويلطـف الأجـواء ويمتـص قلـق
فهمـي" ويطمئنـه بطريقتـه، فانطلـق الحـاج في حكايـة جديـدة
. ن حكاياتـه...

"عـارف يـا (فهمـي) في ولادة أمـك البكريـة.. (رزق) أخـوك الله يرحمـه.. والله ربنـا اختـاره عشـان يكـون سـبب إنـه يدخلنـا كلنـا الجنـة يـوم القيامـة إن شـاء الله.. بـس ولادتـه ماكانتـش صعبـة خالـص.. هـي يـا دوب قيمـة سـاعة وكانـت المسـألة كلهـا خلصـت.. وربنـا اختـاره بعدهـا بـكام يـوم عـلى طـول مالحقنـاش نتهنـى بيـه.. وسـبحان اللـه بقـى ربـك وتدابـيره.. ولادتـك انـت هـي الـلي كانـت صعبـة.. قعـدتْ ييجـي عـشر سـاعات مكفرنـا لحـد مـا نزلـت.. دماغـك ناشـفة حتـى وانـت ابـن يـوم.. حسـيت يوميهـا زي مـا يكـون ربنـا رايـد إن انـت الـلي تكـون البكـري.. وعرفـت إنـك هتعيـش وربنـا هيبـارك لنـا فيـك ونشـوف عيالـك.

لكـن بعـد كـده بقـى أنـا اتودكـت وبقيـت خـبرة.. اتعـودت عـلى الصريـخ والتعـب وشـكل أمـك بعـد مـا بتقـوم بالسـلامة.. مابقيتـش خفيـف زي أول مـرة.. وانـت كـمان إن شـاء اللـه لمـا ربنـا يكرمـك وتنـوي إنـك تخـاوي.. هتبقـى أنشـف مـن كـده.

أمـال لـو كنـت مـكان عمـك (رجـب الشـجاع) كنـت عملـت إيـه؟! كنـا في المينـا سـوا وشـيعوا لنـا إن السـت جماعتـه

t.me/qurssan

بتولـد.. سـيبنا الـلي في إيدينـا وجـري عـلى البيـت.. كانت أول بطـن ليهـا بـردو وهـو كان روحـه فيهـا ويخـاف عليهـا مـن الهـوا الطايـر.. قعدنـا ييجـي اتنـاشر سـاعة لحـد مـا ربنـا نتعهـا بالسـلامة لمـا عمـك (رجـب) كان عقلـه هيشـت.. راح قايـم في مكانـه مصـلي ركعتـين شـكر للـه.. يـا دوب بيخلـص الصلاة لقينـا الدايـة بتنـادي عليـه بتقـول لـه إلحـق جماعتـك جابـت ولـد كـمان.. كانـت شـايلة اتنـين في بطـن واحـدة.. راح قايـم جايـب ركعتـين كـمان.. سـلم الصـلاة مـن هنـا.. لقاهـم بينـادوا مـن الأوضـة تـاني.. اِلحَـق ده باينّهـم تلاتـة في بطـن واحـدة.. قـام قايـم ومعـلّي حسـه للدايـة وقـال لهـا: لمـا تبقـي تخلـصي الـلي جـوه عنـدك إبقـي قـولي لنـا عشـان نصـلي لهـم كلهـم مـرة واحـدة".

كان "محيـي" و"إبراهيـم" يجلسـان أرضًـا يسـتمعان للحكايـة في صمـت مـن عـلى طبليـة العشـاء، فانفجـرا ضاحكـين، ولم يتمكـن "فهمـي" مـن إخفـاء ضحكتـه هـو الآخـر، بعـد أن كان عاقـدًا الجبـين عـلى قلقـه، فنظـر الحـاج مـرة أخـرى إلى "فهمـي" وقـال بنـبرة مطمئنـة..

- قـوم يـا بنـي... قـوم يـلا صـلي ركعتـين حاجـة وادعـي ربنـا مـا يكونـش في "جـوه" أكـتر مـن عيـل واحـد...

وانـت يـا "محيـي" سـيب الأكل ده.. أنـا مـش فاهـم يـا نطـع منـك ليـه.. ليكـو نِفـس تاكلـوا ازاي دلوقتـي.. قـوم تعـالى معايـا نجيـب المُغـات مـن عنـد عمـك "محـب".. ولا انتـو جبتـوا خـلاص؟

t.me/qurssan

لا لسـه ماجبنـاش.. خليـك انـت.. "رحيـم" بيلعـب بـرة أنـا هابعتـه.

لا سيبه يلعب وتعالى معايا.. أنا عايز امشّي رجليّا.

هـمّ الحـاج بالوقـوف وبـدأ "فهمـي" صلاتـه، فجـاءت البـشري . ن داخـل غرفـة "زينـب" ببـكاء مصحـوب بزغاريـد عاليـة مبـشرة بـقدوم حفيـد "عـلي أبـو طويلـة" الأول.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

32

كان الأسبوع حافلاً، لم يتلق فيه أي من أفراد العائلة قسطًا من الراحة، فكان الحاج يدور أنحاء "إمبابة" من أطراف الزراعات بالقرب من الوراق شمالاً، وإلى كازينو "الكيت كات" جنوبًا، يمر بكل من كان يعرفهم يومًا فيبلغهم بوصول حفيده الأول "جلال"، ويستقبل مباركاتهم، ويزور أصدقاءه المقربين فيدعوهم لحضور سبوع "جلال" في نهاية الأسبوع.

أما الحاج "مندور ختم" كان هو آخر من تبقى من فرقة مراهنات الطفولة التي كان يترأسها "علي"، بعد أن توفي أكثر أعضائها وسافر من بقي منهم، فعرج عليه الحاج "علي" ليسلم عليه ويدعوه للسبوع..

- يخرب عقلك يا راجل يا عجوز.. بردو عملت اللي كنت ناوي عليه!

- يااااه.. علي أبو طويلة.. عاش من شافك يا راجل.. عين
عليك باردة!

- واحشني يا "مندور".. وللا بقوا يقولوا لك يا إسكافي؟

- كلها واحد.. إسكافي.. مراكيبي.. صرماتي.. المهم لقمة حلال.

جذب الحاج "مندور" كرسيين من المقهى المجاور لدكانه ووضع أحدهما لـ"علي" وجلس على الآخر، ثم نادى على صبي المقهى موصيًا إياه بفنجانين من القهوة، فجلس "علي" وهو يكمل حديثه..

- ربنا يرزقنا بالحلال.. ومبسوط على كده؟

- إيييييه.. أربعة وعشرين قيراط.. ولا عندي بضاعة خايف
عليها ولا هربان من بنك ولا عليا ديون.. رضا والحمد لله

- يا رب يزيدك ويراضيك يا مندور.. اللهم آمين.

- عارف يا "علي" بعد الكساد ما حط علينا كام واحد قفل تجارته زيي كده؟ يعني أنا لولا الصنعة اللي أبويا علمها لي دي كان زماني تهت زي ما انت تهت ولاقوك من كام سنة كده في قليوب.. إنما دلوقتي رِسْمالي هو دراعي.. صنعتي.. يبقوا ييجوا الإنجليز ياخدوهم مني بقي.

- أنا عارف إني مش هاخلص من لسانك يا إسكافي الغبرة انت.. إنت مابتحرّمش كلام عن الإنجليز يا "مندور".

- وأحرّم ليه؟ كاسرين عيني بإيه؟ ده احنا اللي بنأكّلهم.. وغصبانية كمان.

t.me/qurssan

ـلاص بقـى ماتاخدنيـش في الـكلام عـن التجـارة الـلي جابـت ،اغـك وعقّدتـك وخلّتـك صرمـاتي.. عايـز أعزمـك عـلى سـبوع "جـلال".

"جلال" مين؟ "فهمي" ابنك خلف؟

من يومين.

وبتقـول لي أنـا الـلي عجـوز.. بقيـت جـد يـا "عـلي"! بـس اتأخـرت انـت.. دي دفعتـك كلهـا بقـت جـدود.

عـلى قولـك واللـه.. أنـا كنـت فاكـر إني هامـوت قبـل مـا أشـوف عيـال عيـالي.. بـس ربـك كبـير لسـه كاتـب لي أعيـش وأشـوف.

ربنا يديك الصحة ويبارك لك فيه وتجوّزه على حياة عينك.

أقيـم السـبوع في الموعـد المحـدد وحـضر كل الأقـارب والأصدقـاء المقربـين وبعـض مـن معـارف الحـاج وأولاده، حتـى مـن لم يسـتطع منهـم الحضـور أرسـل بضـع زجاجـات مـن الشربـات أو قالبًـا كبـيرًا من السـكر ليهنئهـم بقـدوم المولـود الجديـد.

خرجـت "زينـب" مـن غرفتهـا تحمـل رضيعهـا "جـلال" وسـط غناء وزغاريـد نسـاء البيـت، فانطلقـت "عزيـزة" في غنـاء جديـد بأغـانٍ ريفيـة، مختلفـة عـن تلـك التـي تعـوّد عليهـا أهـل البنـدر في مناسـبات السـبوع والميـلاد، تشـدوها بصـوت عـذب فاجـأ الحاضريـن. أخـذت الحاجـة "فاطمـة" المولـود مـن أحضـان "زينـب" ووضعتـه أرضًـا فـوق غربـال خشـبي مسـتدير، وأشـارت إليهـا لتخطـو مـن فوقـه سـبع خطـوات وهـي تعـد الخطـوات وتُبسـمل،

t.me/qurssan

أما "حُسن" فكانت تجلس أرضًا بجانب الغربال فتكوّر ملا
المولود لتضعها تحت قدمي "زينب" في كل خطوة تخطوه

وكان الرجال يجلسون في غرفة الجلوس يتسامرون ويستمع
لأغاني "عزيزة" في طرب ملحوظ، وفي أوج انسجام الحاضر
واستمتاعهم قام "محيي" من مجلسه وأشار إليهم بالصم
فقد ألّف قصيدة زجلية من نظمه، يريد أن يلقيها على
الجمع الحاضر في ليلة السبوع، فهدأ المستمعون وأشار الحا
لـ"عزيزة" فتوقفت عن الغناء، وبدأ "محيي" إلقاءه.

ذهل الحاضرون من حضور "محيي" وتمكنه الطاغ
وأعجب الحاج "علي" وأصدقاؤه بالقصيدة ذاتها. كان الحا
يعلم بموهبة "محيي" في الزجل، وبأنه كان ينشر بعضًا منه
مجلة الحائط بالمدرسة حين يعجب بها الناظر، لكنه لم ينش
أيًا منه منذ أن أنهى دراسته، بل إن الحاج لم يكن يعلم بشأن
موهبته الطاغية في الإلقاء أيضًا، فانهال الناس عليه بالتصفيق
والتهليل والتهنئة بموهبة "محيي" ابن التاسعة عشرة.

انتهى السبوع، وعاد كل حي لساقيته، وفي صباح اليوم
التالي، وإذا بالست "فاطمة" تجلس في غرفتها تعد فنجانًا من
القهوة، تاركة باب غرفتها مفتوحًا كعادتها، رأت "عزيزة" تهرول
إليها من المطبخ وعبر ساحة البيت، تعلو وجهها ملامح خوف
واضحة وهي تنادي عليها بصوت منخفض متردد..

- الحقي يا حاجة.. قومي الحقي!

فانتفضت الست "فاطمة" من فوق الكنبة وردت بتوتر..

t.me/qurssan

إيه.. في إيه؟

في واحدة حرامية في المطبخ.

حرامية ازاي يعني؟

واحدة بتسرق من زلعة المِشّ.

وضعت الست "فاطمة" يدها على صدرها بعد أن هدأت

وعادت لتجلس على كنبتها...

الله يجازيكي يا "عزيزة" وقعتي قلبي.. حرامية إيه بس..

دي تلاقيها "أم شوقي" ولا الست "جليلة" جايين ياخدوا

شوية مش.

نظرت "عزيزة" إليها متعجبة..

ياخدوا كده من غير إذن؟

أنا سامحة لهم ييجوا ياخدوا زي ما هم عايزين من غير تكليف.. الجيران لبعضيها يا "عزيزة".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

33

مـر أسـبوع آخـر عـلى ولادة "جـلال"، وانتهـى "إبراهيـم" مـن تجهيـز شـقته في بيـت خالـه في "ميـت كـردك"، وآن أوان مغادرتـه بيـت العائلـة، فعـلى الرغـم مـما شـهده البيـت مـن تناغـم ومحبـة حرصـت عليهـا السـت "فاطمـة"، كان وعـد "إبراهيـم" لخالـه بـأن إقامتـه مـع "حُسـن" في بيـت العائلـة لم تكـن إلا وضعًـا مؤقتًـا؛ لحـين انتهائـه مـن تجهيـز الشـقة.

كانـت السـت "فاطمـة" هـي الأخـرى تعلـم بـأن إقامتـه معهـا في البيـت لـن تـدوم، ولكنـه حـين أخبرهـا بـأن تجهيـزات الشـقة الأخـرى قـد انتهـت، حاولـت بشـكل غير مبـاشر أن تسـتميله هـو و"حُسـن" لـكي يبقيـا معهـا، فالبيـت كبـير ويمكـن أن يسـعهم وأبناءهـم حـين يـأذن اللـه لهـم.

t.me/qurssan

ففي ذات صباح ذهبت لزيارة أخيها "نجيب" في "ميت كردك"، وحين سألها عن سبب زيارتها بعد الترحيب والسلام واجهته بوابل من الاتهامات عن "إبراهيم" و"حسن"...

- إنت مش عايزهم يقعدوا معايا ليه؟ إنت اللي معصّيهم عليا.

- أنا يا "فاطنة"؟!

- أيوة انت.. كل ما اقول لهم خليكو قاعدين معايا ماتمشوش.. يقولوا لي لأ نروح نقعد مع خالي "نجيب" في البيت ونخلي بالنا عليه.. ما انت ما شاء الله معاك أختها "ورد" من ساعة المرحومة وهي قاعدة معاك مش مخلياك محتاج حاجة.

اعتدل "نجيب" ووجه عنايته الكاملة لحديث "فاطمة"..

- الله يسامحك.. طب اسمعي بقى الأصول.. عشان شكلها فاتتك المرة دي يا أم الأصول.. أنا الحمد لله "ورد" ربنا يبارك لي فيها مش مخلياني محتاج حد.. ولا "إبراهيم" ولا "حسن" ولا غيرهم.. بس العيال بيقولوا لك كده عشان متحرجين منك.

بس الأصول بتقول إن "حسن" مش أقل من أي بنت من البنات.. من حقها بيت لوحدها.. هي اللي تؤمر وهي اللي تنهي.. هي اللي تقول مين يدخل ومين لأ.. تاكل إيه وماتاكلش إيه... حقها بيت تبقى هي سِته.

t.me/qurssan

و"إبراهيـم" مـا شـاء اللـه عليـه راجـل.. إداني كلمـة وهـو قدهـا.. وبينفذهـا دلوقتـي.. بـس بـردو مـش عايـز يزعلـك..

إيـه قولـك يـا أم الأصـول؟ مـين الـلي بييجـي عـلى حـق مـين دلوقتـي؟!

صمتت "فاطمة" للحظات كأنها هُزمت، ثم تابعت..

دي "حُسـن" دي سـت البنـات.. وحبيبـة عمتهـا.. ماحـدش يقـدر يقـول عليهـا كلمـة.. حقهـا طبعًـا يـا "نجيـب".. أنـا بـس كان غـرضي إنهـم يبقـوا حواليـا يونسـوني.

ما انتـي معـاكي عيالـك وعيـال عيالـك أهـو.. ربنـا يخـلي لـك "جـلال".. يعنـي البيـت مـش فـاضي ولا حاجـة.. ربنـا يبـارك لـك فيهـم ويبقـوا سـند ليـكي لمـا الزمـن يعمـل عمايلـه.

- مـاشي.. غلبتنـي بالـكلام المـرة دي.. ييجـوا بيتهـم وينـوروه.. وبيتـي هيفضـل مفتـوح لهـم في أي وقـت.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

34

لم ينعم الحاج "علي" بهناء البال كثيراً، فكان قد نسي، أو أنسته ملاهي الدنيا فتناسى، حربه الشعواء مع رفيق عمره العنيد. فلم يمر عام واحد على وصول أول أحفاده "جلال"، حتى فارقته رفيقته الست "عزيزة"، اختارها المولى إلى جواره قبل أن تشهد عامها الخمسين بشهور قليلة.

تمكن الحزن منه وأحس أن الله قد أقر له نهاية قصته، وأنه لا بد له أن يضع عن كاهله أحمال الطموح في المزيد، وينسى أمله الأخير بمد فرعه في "قليوب". لا بد أن يقر هزيمته أمام غريمه العتي، فمهما أوتي من قوة لن يضاهي قوته، ومهما هرب منه فلن يختبئ، ومهما صبر فصبر الموت لا ينفد.

سافر "فهمي" و"محيي" مرة أخرى إلى "قليوب" ليقدما واجب العزاء في زوجة أبيهما ويعيناه في أزمته. قضى الأخوان

t.me/qurssan

يومين كاملين مع أبيهما بعد انتهاء العزاء، يتحدثان عن أحوالهما ويحاولان إقناعه بأن يعود للعيش معهم في بيته القديم في "إمبابة"، ولكنه كان يرفض بحجة أن تجارته هنا قد ازدهرت وأصبحت "قليوب" هي الأولى بوجوده في أيامه الأخيرة، وأنه سيفكر في العودة حتمًا يومًا ما، حين ينوء به حمل التجارة، ولكنه في حقيقة الأمر كان قد بدأ يتشكك في مقصده من الحياة في "قليوب"، أو في تفسيره لحلم مولاه الشيخ "إسماعيل".

كان لا يزال محملاً بطاقة المقاومة لكن ما بال "قليوب" تنبذه بكل ما فيها، كأنها تدعوه للعودة لـ"إمبابة"، فأما إذا ما كانت العودة ولا مفر، كان ليعود لولا الكبر، لولا خوفه من نظرة الشفقة في عيني "فاطمة" إذا ما عاد خائب الرجاء، جل ما أراده هو الحصول على جولة أخرى مع خصمه يخوضها فتكون هي الفاصلة، إما أن تقر هزيمته النكراء وإما أن تكون بمثابة انتصاره الأخير، لكن يبدو أن الجولة -وإن واتته- لن تكون في "قليوب".

أما في البيت الكبير كان "إبراهيم" قد انتقل مع عروسه "حُسن" من "تاج الدول" إلى شقته الجديدة في بيت خاله بـ"ميت كردك"، وترك بيت الحاجة "فاطمة". لكن لم ينعم البيت بانسجامه المعتاد طويلاً فبعد انقضاء عام واحد على مغادرة "إبراهيم"، فوجئ أهل البيت بزيارة مفاجئة من محضر المحافظة، الذي أبلغهم بأن العقارين، الأول والثاني، الكائنين في عطفة "أبو طويلة" المتفرعة من "درب الحافري" آيلان للسقوط، وقد صدر قرار من المحافظة بإعطاء قاطنيهما

t.me/qurssan

مهلة شهرين لتنكيسهما، وإلا سيتم تنفيذ قرار الإزالة بلا هوادة.

استلم "فهمي" خطاب الإنذار ووقّع بالاستلام للمُحضَر، سرت في أهل البيت بلبلة جديدة من نوعها، فحتى بعد أن جمعوا كل ما يملكون من مدخرات وأموال لن يكفي ذلك ولو لنصف المبلغ المطلوب لتنكيس البيت ومنع قرار الإزالة.

علم الحاج "علي" بأمر خطاب الإنذار، وتلاشت لديه كل الآمال لجولة جديدة في "قليوب"، فأمر "قاسم" بإغلاق الوكالة لأجل غير مسمى، وقطع فترة حداده على الست "عزيزة" وقرر أن يعود إلى "إمبابة" في محاولة منه لإنقاذ بيت العائلة، فمهما كانت أولوياته فهذا البيت هو بيت أجداد أجداده، لم يعرف له أهل الدرب عائلة سوى عائلة "أبو طويلة"، ولم يجد الزمان اسمًا أجدر من اسم "عطفة أبو طويلة" لتلك العطفة، ومهما كانت محاولات فتوحاته ومد جذوره في بقاع أخرى، كان انتماؤه إلى "إمبابة" هو المحرك الأقوى له، ومهما عاش أولاده في ذلك المنزل بعد رحيله عنه، فلن يشعر أحدهم بذلك الارتباط الجِذري الذي يشعر هو به. قرر أن يعود ليحافظ على العهد الذي تركه له أجداده، فيموت تاركًا إياه لأحفاده، عاد ليوصيهم بالحفاظ عليه مثلما حافظ هو عليه.

وظن في بادئ الأمر أن وصول ذلك الخطاب في ذلك التوقيت، بعد رحيل "عزيزة" عنه، كان بمثابة إشارة من القدر لكي يعود إلى "إمبابة" ويتخلى عن حلم "قليوب". لأن الجولة التالية ستحتدم في "إمبابة" لا في "قليوب"، فأمر "قاسم" بأن

t.me/qurssan

يغلق الوكالة ويعلق لافتة عليها تحمل عبارة "مغلق لأجل غير مسمى"، وأسرّ متاعه وحاجياته ثم عاد إلى "إمبابة"، على أن يقرر بقاءه في "قليوب" من عدمه حين تنزاح هذه الغمة.

وصل الحاج إلى "إمبابة" ومعه كل ما ادخر وخبأ من أموال، وباعت الحاجة "فاطمة" كل ما تبقى من ذهبها، لإنقاذ بيت العائلة، بيتهم، تمامًا مثلما فعلا معًا قبل خمسين عامًا ليجمعا ما يكفي لابتياع دكانتهم الأولى في "إمبابة"، ها هم يجمعونه مرة أخرى دون أن يخبر أحدهم الأخر بمشاعره، باتفاق خفي فيما بينهم، ولكن في سبيل الحفاظ على البيت الذي انقضى فيه عمرهم الفائت، وما يحويه من ذكرياتهم.

ولكن حتى بعد أن اشترك كل أهل البيت بما ادخروا، وباعت "زينب" وكل نساء البيت ما لديهن من صيغة، وحاول الحاج الاقتراض ممن تبقى من أصدقائه في "إمبابة"، لم يكتمل المبلغ المطلوب للتنكيس. وفشلت كل محاولات "فهمي" و"محيي" لمكاتبة المحافظة بمد مهلة السماح لشهر آخر. فما كان لهم من مفر سوى لملمة أغراضهم وتوديع ذكرياتهم والاستعداد لتنفيذ قرار الإزالة بعد أن تنتهي المدة التي قررها خطاب المحافظة، والتي لم يتبق منها سوى ثلاثة أسابيع.

بدأت الحاجة "فاطمة" في حزم أمتعتها، والاتفاق مع جاراتها ومعارفها على إيداع أوانيها وفَرْشها وخزينها أمانة لديهن لحين استقرار أوضاعها في بيت آخر، لا يعلم إلا الله ما إذا كان هذا في "تاج الدول" أم غيرها، أم خارج "إمبابة" بجملتها. وفي أثناء فتحها للخزانات والسحارات القديمة، عثرت في إحدى الخزانات

t.me/qurssan

المبنية داخل حائط الغرفة الكبيرة على صندوق خشبي صغير مطعّم بحليات دقيقة من الخزف والنحاس، كان الحاج "علي" قد أتى على ذكره حين كان شابًا، قال إن به العديد من أسرار عائلاتهم، لكنها لم تره قبل ذلك اليوم، فنادت عليه من غرفته كي يفتح الصندوق بنفسه.

تعجب الحاج للوهلة الأولى من أن ذلك الصندوق لا يزال موجودًا، وتناوله منها بحذر وأخذ يتحسس زخارفه وأقفاله في افتتان شديد، وهو يبدي تعجبه من إتقان صنع الصندوق، ولما فتحه أخذ يخرج ما فيه ورقة تلو الأخرى، فوجد فيه حجة المنزل الذي يسكنونه، وعقود بيع أراضٍ زراعية لأقارب لهم من أرياف القاهرة، ومجموعة من وصول الأمانة التي كان يكتبها الناس لأبيه، وعقود قران لمعارفهم وصل عمرها لما يقرب من المئة عام.

لكنه بعد أن أخرج كل الأوراق من الصندوق، لاحظ طرف شريطة متهالكة من الكتان، ملتصقة بأحد الأركان، عفا عليها الزمن فاتخذت نفس لون الصندوق. جذب طرف الشريطة فارتفعت معها خشبة كانت ملتصقة بقاعدة الصندوق كأنها قاعدة أخرى وهمية، أو جيب خفي أعد خصوصًا لإخفاء الأوراق بينه وبين قاعدة الصندوق الأصلية، ولما أزاح الخشبة ونظر تحتها، وجد بعض الأوراق الصفراء المتآكلة، تحمل الورقة الأولى منها عنوانًا بخط كبير محكم الكتابة منمق الخطوط...

t.me/qurssan

شهادة إلى الله

عن

الشيخ العارف بالله إسماعيل الإمبابي

مقتطعة من تدوينات يومية للفقير إلى الله

"يحيى محمد الجيوشي"

نقلاً من العام الهجري ستة وثمانين وسبعمئة

وإلى العام الهجري تسعين وسبعمئة

t.me/qurssan

الفصل السادس

الوليّ

t.me/qurssan

t.me/qurssan

تذكرة للنفس، أو بالأحرى للزمن. . .

أقسم على الله، إني لم أر في كُتّاب الشيخ "زين" طوال سنوات درسي به، أو أي من شيوخ كاتيب "بلبيس"، عالمًا فذًا وذا شخصية جاذبة مثل الشيخ "العارف بالله يوسف إسماعيل الإمبابي". حتى حينما كنت طفلاً لم أعِر انتباهًا كبيرًا لأي من سفرات والدي الشيخ "محمد الجيوشي" المتعددة، إلا لرحلته السنوية إلى "إمبابة" لحضور المولد النبوي هناك، فدائمًا ما كان يعود بحكايات جديدة عن الشيخ السيد "إسماعيل الإمبابي"، الذي آذاه أهل "الوراقين" أذىً شديدًا فألقى عليهم حوله وصار يردد "حيدر حيدر" في أثناء هروبه منهم إلى بر "إمبابة"، حتى عُرفت فيما بعد أخبار عن أهل الوراقين بأن أرجُل نسائهم اليمنى انتفخت وتورمت حتى صارت أكبر من أرجلهن اليسرى، وأن رجالهم باتوا يحيضون مثل النساء.

t.me/qurssan

لم أكن قد غادرت "بلبيس" قط حتى بلغت الثانية عشرة. ذلك اليوم، حين أخبرني أبي أنه سيصحبني معه في رحلته الطويلة إلى بر "إمبابة" على صهوة جواده، قاصدين محل الشيخ "إسماعيل"، راجين شفاعته، متبركين بحوله، لنطلب منه الدعاء لأمي المريضة. أسررت غبطة الأطفال للسفر في صدري، ثم ذهبت إلى بيت خالتي "زليخة" فأخبرتها بأمر رحلتي مع أبي، واتفقت معها أن ترعى أمي وتعتني بها لحين عودتنا.

وحين رجعت إلى بيتنا ذهبت إلى غرفتي ولملمت أغراضي في صرة صغيرة، ثم دخلت إلى غرفة أمي وقد أعددت لها عشاءها، فجلست بجانبها على السرير وساعدتها في تناول الطعام، فكانت تدعو لي مع كل لقمة تأكلها وتربت بعدها يدي. ولما فرغت من الأكل، طلبت مني أن أتلو لها ما حفظت من القرآن طوال الأسبوع، وقد كانت تحب أن تستمع لتلاوتي الركيكة، وتصحح لي القراءة حين أخطئ.

أنهيت القراءة وبدأنا نخطط معًا لرحلتنا التي كنا تمناها معًا، إلى المولد النبوي في "إمبابة"، فطلبت مني أن أحفظ أو أدون تفاصيل كل ما سأراه في رحلتي مع أبي إلى هناك، لكي نستعيد كل ما أعجبني فيها مرة أخرى، حين نشرع في رحلتنا المنتظرة عندما تتماثل هي للشفاء بإذن الله.

ركبت الجواد خلف والدي مع أول نور بزغ في السماء وبدأنا الرحلة. كان والدي طويل القامة، قوي البنية، طيب المعشر، لا يترك فرصة ولو لحكاية صغيرة إلا وسردها علي، ولا نمر أو نقف للراحة بقرية صغيرة أو بلدة كبيرة إلا وفسر لي أصلها وبانيها وتاريخها. فلما قاربت الشمس على الانكسار نحو المغيب، عرج أبي إلى جانب الطريق ونزل عن صهوة الجواد،

t.me/qurssan

وأمسك اللجام وصار يمشي بجانبه وأنا من فوقه، متجهين إلى قرية ما، لاحت على مرأى منا . .

تلك هي "سرياقوس" يا "يحيى" . . عمّرها سلطان عظيم اسمه الملك "الناصر قلاوون" منذ أكثر من خمسين عامًا . . ومد إليها هذا الخليج من النيل . . الخليج "الناصري" . . ليبعث حياة جديدة لأهلها من المهاجرين . . والأهم من هذا وذاك أنه بنى فيها "خانقاة سرياقوس" لدراسة الفقه وتخريج علماء وشيوخ صوفيين جدد . .

لطالما تمنّت أمك أن تراك عالمًا كبيرا مثل الشيخ "إسماعيل". وقد اتفقتُ معها أن ننتقل للعيش في "سرياقوس" ما إن تتم حفظ القرآن وتتخرج في كتّاب الشيخ "زين" . . أعلم أنه سيكون لك شأنٌ كبيرٌ هنا بإذن الله.

أمضينا الليل في "سرياقوس" بغرفة من الغرف الملحقة بإحدى استراحات الأمراء المفتوحة لعابري السبيل، لم أر في مثل فخامتها وزخارفها المتقنة من قبل، فتحها لنا خولي حديقة الاستراحة، وقدّم لنا بعض كسرات الخبز والقليل من أطيب ما تذوقتُ من العسل الأسود، أخرجت دفتري ودونت فيه عن تلك الاستراحة وذلك العسل الطيب كما طلبت مني أمي، فلا بدَّ أن تأتي لتذوقه بنفسها في المرة المقبلة، ثم دعوت لها بالشفاء ونمت قريرًا .

ولما بزغ نور الفجر، لملمنا أغراضنا واستأنفنا طريقنا مرورًا من أمام خانقاة "سرياقوس" وإلى الطريق الرئيس الموازي للخليج .

انتصف نهار اليوم الثاني للرحلة وبدأت أشعر بالملل والتعب، لم أكن في مثل فتوّة والدي، ولا قدرته على الركب، لكنني استحييت أن أظهر له

t.me/qurssan

ذلك. مرّت ساعات وجيزة لم يهوّنها سوى أن والدي لم يتوقف عن الحكي، حتّى انزوى بالجواد عن ضفة النيل، واتجه شرقًا لساحة كبيرة تخلو من البيوت والبشر إلا من بعض الشحاذين والمجاذيب، أمام زاوية صغيرة لا يظهر بها أي من علامات البهاء الذي كنت أتوقعه..

- ها قد وصلنا..

- حقًا!

- ذاك هو جامع الشيخ.

- ظننته أكبر من ذلك!

- نعم.. الجامع صغير.. لكن شيخه كبير.. واليوم هو الجمعة، موعد درسه الأسبوعي قبيل صلاة العصر.. هيا بنا عسانا أن نلحق ما تبقى من الدرس ونحدثه في أمر "أم يحيى" بعده.

دخلنا صحن المسجد الصغير، فوقعت عيناي للمرة الأولى على شيخ بجسد هزيل، يجلس أرضًا في ثقة وبهاء ملحوظ، ومن أمامه يجلس بعض الشيوخ والتلاميذ لا يتجاوز عددهم العشرين، وكان هذا أوّل لقاء لي بشيخ والدي، وشيخي -منذ تلك اللحظة- السيد "إسماعيل الإمبابي".

جلستُ بجانب أبي أستمع لأول درس في الفقه، وما إن اعتدت صوته الرخيم الهادئ وهو يحادث الناس واثقًا بالحجة والبرهان، يصب عليهم العلم صبًا كلما أحس منهم تجاوبًا، ويمنعه عنهم إذا ما أحس إعراضًا، حتى أصبحتُ بحُمّى طلب العلم والاستزادة منه.

t.me/qurssan

لم أبرح مجلسي بين المتلمذين الجالسين، حتى بعد أن فرغ الشيخ "إسماعيل" من الحديث وهمّ واقفًا بصعوبة من مجلسه، فالتف الشيوخ حوله يسألونه ويحاجونه فيما ألقى عليهم، فيحاججهم.

لم أشعر بعد انفضاض الناس من حول الشيخ إلا بيد أبي تجذبني بقوة وهو يمشي مسرعًا في اتجاهه، وحين أقبلنا عليه ترك والدي كف يدي وأمسك بكف الشيخ ليقبّلها، فلم يمانع في ذلك، ما أثار امتعاضًا طفيفًا لدي. لكنه أشار لنا بالجلوس فجلسنا.

بدأ والدي في وصف حالة أمي ومرضها العضال، وكلما مضى في وصفه اكفهرّ وجه الشيخ شيئًا فشيئًا، حتى أنهى أبي حديثه بطلب الشفعة والدعاء لها. فوضع الشيخ "إسماعيل" يده اليمنى على كتف والدي اليسرى وبدأ يتمتم ببعض الأدعية والآيات بصوت غير مسموع، ولما فرغ من طقوسه أشار لنا بالانصراف حتى يستمع لحاجة أخرى من سيدة عجوز كانت تقف خلفنا. فقام أبي بهمّة مسرعًا، فقمت معه وجلسنا على بعد أمتار من الشيخ في ساحة المسجد ننتظر صلاة العصر.

أقمت مع أبي ليلتنا تلك في غرفة بإحدى وكالات "العربخانة"، إحدى المناطق المحيطة بالمسجد، لم تكن بجودة ولا نظافة غرفة "سرياقوس" بالتأكيد، لكنها أدّت الغرض منها، فأخرجت دفتري مرة أخرى ودوّنت فيه.. "يجب علينا ألا نقيم بالعربخانة إذا ما اضطررنا إلى المبيت في إمبابة".

شرعنا في رحلة العودة مع بزوغ نور الفجر كعادتنا، وعلى طول الطريق إلى "بلبيس" لم أفكر إلا في درس الشيخ "إسماعيل"، ما سمعته وما يمكن

t.me/qurssan

أن أتعلمه إذا ما صرتُ من تلاميذه، عما ينتظرني من علم إذا ما قرر، دراسة الفقه كما تمنى أمي ويعدني أبي.

كنتُ أتوق لرؤية أمي لأخبرها عن رحلتي الأولى وعن درس الشيخ "إسماعيل"، عن زيارة "سرياقوس" وإقامتنا في غرفة استراحة الأمراء الفخمة ومرورنا بالخانقاة هناك، وعن عسل سرياقوس الذي لا يفيه الوصف حقه، أتوق لأخبرها بأنني سأصبح عالم فقه كبيرًا، لكن توقي قد تلاشى حين عدنا إلى بيتنا فوجدت خالتي تجلس وسط جارات المتشحات بالسواد، وما إن رأتني حتى ناحت بعبارات متقطعة، فهمت من بين نهنهاتها أن أمي توفيت منذ يومين، في اليوم نفسه الذي وصلنا فيه إلى جامع الشيخ بـ"إمبابة" !

كنت قبل تلك اللحظة قد بدأت أصدق في شفاعة الشيخ "إسماعيل" وأظن حقًا أن أمي ستُشفى بفضل كرامات الشيخ وحوله، وإلا فيم كانت رحلتنا ؟ وأين كرامات الشيخ الإعجازية؟ لماذا لم تُشف أمي؟ هل هناك ما يُدعى بشفاعة الأولياء؟ ومن هم الأولياء؟ وما هي حدود قدرتهم؟ !

***

مر عامان على موت أمي عكفتُ فيهما على الدرس وحفظ القرآن، أملاً في دراسة الفقه وتحقيق حلم الراحلة. ولما أتممتُ حفظ القرآن وبلغت سن الالتحاق بالخانقاة، باع أبي دكانه وما تبقى به من بسط ومشغولات من الخوص وبعض متعلقاته، وباع البيت بمبلغ زهيد، ثم ودع

..الي وركبت خلفه مرة أخرى على جواده، ثم انطلقنا قاصدين حياة ..بدة في "سرياقوس".

هبطنا أرض "سرياقوس" وابتاع أبي بيتًا أصغر من بيتنا الذي كان في ..لمس"، وحانوتًا صغيرًا ليبيع فيه بُسُطه ومشغولاته من الخوص، وعلى ..فور صحبني إلى مبنى الخانقاة المهيب للتقدم بطلب للالتحاق به. كانت الأماكن محدودة، نحو مئة مقعد، إذ إن الملك "الناصر"، كما حكى لي ..، حين بنى الخانقاة خصص بها مئة خلوة فقط لإقامة الطلاب فيها في ..ء الدراسة، وأمر أن تُصرف لهم يوميًا حصة كافية من اللحم والصابون ..ت الزيتون، ومعاش شهري من خزانة الدولة وكسوة سنوية تليق بـ"حملة ..اء الصوفية الجدد".

وفي طريق العودة من الخانقاة إلى المنزل الجديد، أكمل أبي حكاياته عن "سرياقوس"، يعظم ويعدد أمامي مزايا العيش فيها، كأنه يخاف أن يزداد حزني على موت أمي بفراق خالتي، أو عدم ارتياحي للحياة الجديدة هناك..

- أترى تلك الأشجار؟ جلبها الملك "الناصر" خصوصًا من الشام لتُزرع على ضفتي الخليج.. وبنى خلفها تلك السرايات والاستراحات والحمامات لأمراء المماليك.. كنت قد رأيت عمليات البناء تلك في رحلتي مع جدك الأكبر إلى القاهرة حين كنت طفلاً.. أتذكر إقامتنا في تلك الاستراحات يا "يحيى"؟

- نعم أذكرها، في سفرتنا الأخيرة.. وأذكر العسل الأسود الطيب الذي قدّمه لنا خولي الحديقة.. ليتنا نأكل منه مرة أخرى.

t.me/qurssan

- سأشتري لك زلعة كبيرة لتأكل منه متى شئت. . السوق هنا مليء بأجود البضائع. . فمنذ أن أعفى الملك "الناصر" التجار وأصحاب الدكاكين من الضرائب، أصبحت "سرياقوس" بئر الخير لكل . . جاءها، وراجت تجارة الغلال والخيول والمواشي في سوقها الكـ... واتسعت رقعة الزراعة على ضفتي خليجها، حتى صارت مضرب الأمثال.

كان العامان التاليان لينين على والدي في جنة "سرياقوس" الجديدة تتسع تجارته فيها وتكبر كأول تاجر للبسط في السوق الكبير، أأتنـ... بصحبته في إجازاتي الأسبوعية وعطلاتي السنوية من الخانقاة، ولا يـ... يأتي موعد المولد النبوي حتى نشد رحالنا على ظهر جواده ونرتحل ... لحضوره في "إمبابة"، عند سيدنا الشيخ "إسماعيل"، وتلميذ شيخ أجدادنا "السيد البدوي" ولي أولياء طنطا، يحكي لي في أثناء الرحلة عن قرار جدي "الجيوشي" الكبير اتخاذ الشيخ "إسماعيل الإمبابي" وليًا له بعد وفاة "السيد البدوي"، فهو تلميذه وهو الأولى بالولاية من بعده.

أنهيت عامي الثاني في الخانقاة بتفوق ملحوظ على أقراني وبشهادة معلمِيّ، فكان أبي فخورًا بي ويُذكرني دومًا بأن أمي تنظر إليّ من السماء وتفخر بي وبثباتي على هذا التفوق، لكن ما إن أوشك العام الدراسي الثالث على البدء حتى ألقى لي القدر عَقَبة جديدة من جعبته، مات أبي الشيخ "الجيوشي"، وماتت معه خطته التي رسمها لي!

لم أملك وأنا ابن السابعة عشرة فرصة للحزن، وكعادة الحياة، في أحلك الأوقات وأشدها قسوة كان يجب عليّ أن أفكر فيما سيأتي، هل أبيع

t.me/qurssan

..ان أبي وأُكمل دراستي في "سرياقوس"؟ أم أعود أدراجي لأعيش مع ..الي في "بلبيس" وأنسى حلم التعلم والصوفية؟ حينها فقط جاءتني رؤيا ..يخ "إسماعيل" في حلم لا أذكره تفصيلاً ولكنه كان ينتهي بصوته ينادي ..اني بتلهف. . .

عندي ما يخصّك، فلا تتأخر.

قمت من منامي في اليوم التالي، فذهبت إلى الخانقاة دون تفكير، ..دمت طلبًا للالتحاق بأي من خوانق القاهرة كي أكون بالقرب من الشيخ ..ماعيل"، فلم يعد لديّ، في حلم طلب العلم، شريك سواه.

قوبل الطلب بالموافقة على الانتقال للدراسة في القاهرة بخانقاة "سعيد ..سعداء"، وأعطاني الشيخ "جلال الدين الأصفهاني" شيخ شيوخ خانقاة سرياقوس" خطابًا يحمل تزكيةً خاصةً لي عند شيخ شيوخ خانقاة "سعيد السعداء". لم تكن تلك الخانقاة الأكبر ولا الأعلى شأنًا في القاهرة، ولم تكن ..يضا الأقرب إلى بر "إمبابة" حيث تقع زاوية الشيخ "إسماعيل"، لكنها المتاحة لاستقبال طلاب وافدين من خوانق الأرياف، ورغم صعوبة الأمر آنذاك فإن تفوقي كان شفيعًا لي في قبول طلبي، فبعتُ الدكان والبيت بمبلغ لا بأس به، وامتطيت جواد أبي إلى "القاهرة".

***

وصلتُ إلى أبواب "القاهرة"، فأُسِرتُ بها منذ الوهلة الأولى، حتى قبل أن أعبر بوابة الفتح وتبتلعني المدينة. مآذن كبيرة وأبراج عالية، قباب ضخمة وسور مهيب لا ينام، لا أعلم أين بدأ أو ماذا يحمي. أحسست

t.me/qurssan

باحتواء مطمئن بعد اجتيازه، وحتى حين طال بحثي عن خانقاة "سـ
السعداء" كنت أشعر في قرارة نفسي أنني لن أضيع، فالسور يحميني

وبينما كنت أجوب الطرقات بحثًا عن الخانقاة، سمعت مناديًا ينا
بكلام مُنغَم، تلتف من حوله مجموعة كبيرة من المارة وأصحاب الدكاكـ
فاسترعى انتباهي ما كان يقول..

يا أهالي القاهرة

بأمر من السلطان العالي "الظاهر برقوق"

يعلن متولي حسبة الديار المصرية

أنه قد نما إلى علمه الشامل لكل ما هو آت

أن بعض من قناني خمر "الكازرونية"

عادت ليتم تداولها سرًا في بعض الحانات

فعلى التجار والأهالي

الإبلاغ عن أي مخالف غير مبالي

ومن يُضبط من السقاة وبائعي الخمور

بحوزته رشفة من الخمر المذكور

يجلد أربعين جلدة بلا معاودة

يا أهالي القاهرة

t.me/qurssan

كان أبي قد حكى لي عن خمر "الكازرونية" هذه التي أمر السلطان "الناصر قلاوون" قديمًا بالإقلاع عنها وإراقة كل ما تبقى منها من خوابي، لقوة تأثيرها على عقول البشر، حتى قيل إن مجرد رائحتها كانت كفيلة بإذهاب عقل أعتى عتاة المعاقرين. غير ما تواترت من حكايات عن أحد تجار خمر "الكازرونية" الذي كان في طريقه لنقل عدة زجاجات منها خلسة إلى القاهرة، فقطعت طريقه إحدى دوريات السلطان الناصر، فلاذ منهم بالفرار إلى قرية مجاورة تدعى "مجرى السيل"، وأخفى قنانيه في بئر القرية، غير أن الحظ لم يسعفه ليعود ويسترجعها، فقد استقبله أحد اللصوص على أطراف القرية فأرداه قتيلا من يومه ذاك، وما كانت إلا أيام حتى ذابت أقفال القناني واختلط خمرها بماء البئر، وانغمس فيه أهل "مجرى السيل" جميعهم شربًا ومعاقرةً، فجن منهم من جن، ومات من مات، واعتراهم هوس لم تشهده قرية من قبلهم قط، وصارت أصوات صراخهم تسمع من مسافات بعيدة، فاعتزلهم الناس، وهجروا سككهم، ولم يعد يعرف أحدٌ لقريتهم طريقًا منذ ذلك اليوم.

لكن كيف عادت الخمر الممنوعة بعد كل تلك السنوات؟ ومن الذي يصنعها؟ وأين يبيعها في ظل هذا التشديد المخيف من السلطان "برقوق"؟

انفضّ الجمع من حول المنادي، فأكملتُ طريقي وواصلت بحثي وسؤالي عن مبنى الخانقاة الجديدة، حتى عثرت عليه. طرقت البوابة الضخمة، ففتح لي حاجب الساحة الشرقية القصير وسألني عن سبب قدومي، فأخبرته أنني الوافد الجديد من "سرياقوس"، قال لي إن شيخ الشيوخ في انتظاري منذ الظهيرة، وصحبني إلى غرفته. طرق الحاجب باب غرفة

t.me/qurssan

الشيخ، فأمره صوت رخيم بالدخول، فتح الباب وسبقني إلى الداخل وقال بلهجة رسمية "الوافد الجديد من سرياقوس يا شيخنا"، وساد الصمت، فدخلت.

رحّب بي الشيخ ترحيبًا شديدًا، فشكرته وقدمت له خطاب أستاذي الشيخ "جلال الدين الأصفهاني" مع أوراق التحاقي بالخانقاه، فنادى مرة أخرى على الحاجب وطلب منه أن يأخذني ليعرّفني إلى رفقائي في الدرس، فذهبت معه، وحين قابلني بهم أكرموني وشرحوا لي اتجاهات الأروقة وأماكن ساحات الدرس، ثم عرفوني بدورهم إلى أساتذتي الجدد وأسكنوني خلوتي.

غرفة صغيرة يستقر بها سرير وثير بجانبه منضدة ليست معدة لأغراض عديدة، بل لغرض واحد: الدراسة، يشق عتمة الخلوة ضوء ضعيف منبعث من نافذة ضيقة أعلى الحائط المقابل للباب، لا أكاد أرى منه لولا أن أضاء الحاجب ذاك المصباح القابع فوق المنضدة.

انتهت جولتي الأولى في الخانقاة، وتركت عتادي في الخلوة وذهبت مسرعًا قاصدًا زاوية الشيخ "إسماعيل".

***

وصلت إلى الزاوية فتركت جواد أبي خارجها، ثم دخلت إلى المسجد. وجدت باب غرفة الشيخ مغلقًا فطرقته، فخرج لي. لم يتغير البتّة، قد يكون ازداد هزالًا، أو ازداد ظهره انحناءً، لكنه كان بكامل هيبته وبهائه الذي رأيته أول مرة، سلمت عليه بحرارة لكني لم أقبل يده. ذكرته

t.me/qurssan

ي، فتذكره. أخبرته أنه مات، فدعا له بالرحمة. مشى ببطء إلى مجلسه الساحة وجلس واستقر والتفت لي..

جئت تتبارك كما كان يفعل أبوك.. (ثم مشيرًا لمجموعة من رواد المسجد) كما يفعل هؤلاء؟

بل جئتك قاصدَ علم.. معاذ الله أن أتبارك بغير رحمة الله.

فما سفرك إذًا وارتحالك؟ إن كان العلم غايتك فيمكنك بلوغها من دوني.

سمعت درسًا لك في صغري حين جئتك مع أبي ففتنت بعلمك.. ثم عرفت حكاية رحلتك من طنطا وحتى مجلسك هنا فلمست صدق مسعاك.. لكني يا شيخي، ولك العتبى، لم أصدق يومًا كراماتك ولا أيا من أحوالك.

- هل تكذّب الناس وما رأوا رأي العين؟!

- يا سيدي.. إن كنت لم أرها بعيني فأنّى لي أن أصدقها؟ وإن لم تجزم أنت لي الآن بحدوثها فهي لم تحدث!

- يا بني.. لست بمحل أن أقر شيئًا على نفسي أو أنفي قدرة من قدرات الله.. فإن كنتَ صدقًا قاصد علم فثم بعض منه، انهل منه كيفما شئت.. ودعنا نرقب معًا حوائجُ الناس عسى أن تجد جوابًا لسؤالك وخلاصًا لي من إقرار القدرة على نفسي.. لعلك محقٌّ بشأني.

t.me/qurssan

- أنا تلميذك وخادمك المخلص. . فقد التحقت بخانقاة "سعيد السعداء" وسأقيم بها . . هي أقرب ما استطعت أن أكون منك. . آتيك بعد انتهاء ساعات الدرس من كل يوم وأرتحل قبل الغروب.

- بارك الله لك، وعسى أن يكون لنا فيما نرجو منال.

على مدار عام أعقب انتقالي إلى "القاهرة"، لم تنقطع زياراتي اليومية لزاوية الشيخ "إسماعيل" إلا في حالات المرض أو الطوارئ القصوى. شهدت معه خلالها أنواع البشر وأطيافهم شتى، كانوا يجيئون أملاً في شفاء أو حاجة أو دعاء أو بركة، فكان منهم أتراك أغنياء وزوجات قضاة أو أمراء مماليك ذائعو الصيت، ولم يخل المكان على الجانب الآخر من الفلاحين الفقراء، بل كان يعج بالكثير من العربجية والصيادين الذين يقطنون غيطان "إمبابة" وبرها.

كان الشيخ "إسماعيل" يستمع إليهم في هدوء شديد ويتأثر لتأثرهم حتى يفرغوا من حكاياتهم، وحين ينتهي صاحب الحاجة من الكلام يبدأ الشيخ في الدعاء وترتيل بعض آيات الذكر وإلقاء بعض العزائم والغمغمات، ثم يؤكد للجالسين وبصوت عالٍ على أن كل شيء إن كان مقضيا فهو مقضيّ بأمر الله، وأن الأمور لا تُقضى إلا بالإيمان بقضائها، وبأن قضاء الأحوال من عدمه ليس مقرونًا بإرادته، بل بإرادة الله.

اعتدت أن أرقب المشهد بعناية عسى أن أجد في كلام الشيخ ما يؤخذ عليه من تضليل للناس أو ادعاء للولاية، فأحاججه به في نقاشاتنا المستمرة، دون جدوى، لكنني لم أر أيضًا فيما يفعل أي كرامة تقر عليه القدرة أو تثبت الولاية، فازددت حيرة من أمر الشيخ، أحبه كثيرًا وأجله

t.me/qurssan

عالم ومعلم، ولكنني لا أعلم لم لا ينفي القدرة تمامًا عن نفسه فينفضّ عنه الناس ويتركوه لعزلته، إن كانت العزلة هي حقًا مسعاه.

تغيرت تلك الحيرة شيئًا فشيئًا بعد ما رأيته وسمعته في فترة إقامتي معه. أيقنت أنه حتى وإن شرع في دفع الناس عنه وإنكار الولاية فلن يصدقه أحد ولن ينفضوا عنه، بل سيُقبلون عليه أكثر، فزهد الولي في الولاية من علامات الولاية. وبطبيعة الحال صارت أساطير الطفل المقعد الذي خرج من عنده سائرًا، والشيخ العقيم الذي رُزق بثلاثة توائم بعد مباركة الشيخ له، دُرر الحكايات التي تتواتر عنه، فيتردد الناس عليه، لم أرها بنفسي رأي العين، ولم أر من رآها، لكنني فقط سمعت بها.

جرت الأيام تباعًا، ووجدت في ذات صباح بعض الفراشين يدقون أعمدة خشبية شرقي الزاوية، فاستشففت أن موعد المولد النبوي قد اقترب، كنت قد سمعت من الشيخ ذات مرة بأن المماليك الترك -فقراءً وأعيانًا- هم القائمون على تنظيم المولد، ويأتي إليه المريدون والمجاذيب والمنتفعون والتجار من أرجاء المحروسة شتى، إلا أن هذا العام شهد اضطرابات ومشاحنات بين المماليك الترك وطائفة من زراعات "إمبابة" تدعى "العربجية"، كانوا يرون دومًا أن المماليك ليسوا أهلاً لنيل شرف تنظيم المولد.

وفي صباح اليوم التالي، خلال توجهي إلى الزاوية استوقف جوادي رجل ضخم، ذو بطن منتفخ، رث الثياب، يلبس عمامة بيضاء تميل للاصفرار، يرتدي نعلاً جلديًا مهترئا، تظهر عليه ملامح القوة، يجر وراءه حماره الذي يجر بدوره عربة متهالكة..

t.me/qurssan

- يا شيخ.. يا شيخ.. أنت من تلاميذ سيدنا ؟

- نعم.

- أنا المعلم "طلبة".. كبير طائفة "العربجية".

نزلت عن صهوة الجواد تأدبًا، وبدأت في السير بجانب الرجل في اتجاه الزاوية وأنا أختلس نظرات خاطفة إليه متعجبًا..

- تشرفنا.. وأنا "يحيى" تلميذ الشيخ "إسماعيل".

- الشرف لينا والله.. أنا طالب شهادتك.. والشهادة لله.

- تفضل يا أخي.

- يرضيك يا مولانا.. مولد سيدنا النبي المماليك هم اللي يعملوه؟ المماليك اللي لا حد يعرف لهم أصل ولا ملة.. المماليك اللي ولا هم من البلد ولا يعرفوا عنها.. دول أستغفر الله العظيم الواحد فيهم ولا يعرف أبوه ولا أهله مين.. إحنا أولى بالنبي منهم.

- أستغفر الله العظيم... طالما طلبت شهادتي الحقة يا أبتِ فالحدث كله مليء بالموبقات.. والأولى بالعناية أن يمنع القائمون على المولد الخمور والسفاح والجهر بالمعاصي الذي يحدث في هذا اليوم.

- أبتِ! ونمنع الخمور والسفاح! آه.. إنت من بلد بعيد شكلك.. لا متشكرين يا شيخ على تعبك.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله الهادي.. السلام عليكم ورحمة الله.

t.me/qurssan

لم أرتح لسخرية الرجل مني ومن لهجتي، لكنني أكملت طريقي وربطت المواد خارج الزاوية ودخلت إلى الشيخ "إسماعيل"، فحكيت له ما دار بيني وبين المعلم "طلبة"، ثم سألته عاتبًا عليه عدم تدخله لإيقاف المجون الدائر في المولد الذي يزداد عامًا بعد الآخر، فكان رد الشيخ هادئًا..

جاءني منذ أشهر عدة رجل يسمي نفسه "تقي الدين المقريزي"، يبدو من هيئته ومن كثرة تابعيه أنه عظيم الشأن، قضى معي نهارًا بأكمله، وسألني أسئلة كثيرة، يقول إنه يجمع في كتاب له كل الشخوص ذوي الشأن في بر مصر، وكان من بين أسئلته ما يشبه سؤالك، لذا أجيبك كما أجبته..

اعتدت إقامة ليلة المولد النبوي أمام الزاوية من كل عام، لكنه كان بكل الأحوال ليس كمولد المماليك الآن. ولكني يا "يحيى" لست أهلاً لأدعو الناس إلى الصلاح، ولا لأمنعهم عن تقاليد اعتادوا عليها منذ سنوات. فإن جاء المولد وعمّ المجون أرجاء البر، أغلقت باب الزاوية والتزمت صومعتي حتى ينتهي كل فرد من فعله، لا أبرح محلي حتى ينتصف اليوم التالي، فيعود البشر إلى رشدهم.

أنصحك يا بني أنت الآخر التزام خلوتك في الخانقاة وألا تأتي إليّ غدًا.. سأنتظرك بعد غدٍ -بإذن الله- لنكمل درسنا.

استمعت لنصيحة الشيخ على مضض، والتزمت خلوتي الضيقة أستذكر في يوم المولد ولم أقرب "إمبابة"، ثم ذهبت إليه في عصر اليوم التالي لنكمل الدرس وعلى وجهي علامات استياء ملحوظ، لكن الشيخ لم يلحظ ذلك، أو تجاهله عن عمد، ولم يعاود الحديث في أمر المولد مجددًا، ما أثار

t.me/qurssan

حفيظتي واستشفقت من طريقة حديثه عن الأمر وقتها، وصمته عنه الا أن الشيخ يعلم أنه رغم أن المولد يقام على اسمه وأنه هو صاحب المقا فإن الحدث وما يجري فيه أكبر وأقوى من قدرته على مقاومته، وأن هـ هو ما كان تغصّ به نفسه كلما جاء ذكر الأمر أو اتهمه الناس بالصـ عن الحق.

انقضت خيام المولد وعادت الأمور إلى سابق عهدها، وأنهي سنتي الدراسية في الخانقاة، ثم أفنيت وقتي كله للشيخ وخدمته في أثنا استعدادي للسنة النهائية في الدراسة، أذهب إليه كلما اتسع الوقت ولا أعود لخلوتي إلا للاستذكار والكتابة، فهي لم تكن تسع شيئًا آخر على أ حال، يحتد النقاش بيني وبين الشيخ عما يجب علينا فعله بشأن المريدين أو ما إذا كان للكرامات وجود في حياته، فينتهي النقاش بلا نفي ولا جزم

انقضى عام آخر في رحاب الشيخ، أزداد منه علمًا ولا أومن بقدراته الإعجازية، حتى اقترب موعد المولد النبوي للعام التالي، وأحسست بشعور دفين يؤرقني بضرورة التحرك تجاه ما يحدث هذا العام، فإن لم يكن الشيخ "إسماعيل" ليفعل شيئًا ما إزاءه، فلا بد لي، على الأقل، من أن أنصح الناس بالبعد عن الفحش فيه.

وما إن بدأ نصب الخيام وفرش الأسواق حتى بدأت خطتي في وعظ الوافدين بالبعد عن الأفعال المشينة، فذهبت إلى أصحاب الخمارات المنصوبة وعجبت حين وجدت لديهم عشرات من قناني الخمر "الكازرونية" الممنوعة بأمر السلطان، وعلمت أن من يصنعها مجموعة من الغجر الرحالة، تُباع في يوم المولد، ويهرّبون ما تبقى منها إلى داخل القاهرة سرًا فتباع

t.me/qurssan

.. ماف قيمتها الأصلية، ولما حاولت نصحهم بترك هذه التجارة إكرامًا .. رسول الله، سخروا مني وكادوا يطردونني. حاولت التحدث أيضًا إلى .س فؤادي بائعات الهوى عسى أن يوقفوا نشاطهم ولو يوم المولد فقط، .. جدوى.

حل يوم المولد. أنهيت يومي في الخانقاة وطرت على جواد أبي إلى .امة" لأكمل خطتي الوعظية، ولما دخلت إلى الساحة الشاسعة أمام .اوية بعيد صلاة العصر أحسست بإشارات قوية في الأجواء بحلول .رب، لكنني استمررت في الحديث إلى الناس بدأب شديد حتى أسدل .ل ستاره.

بدأ الناس يترنحون يمينًا ويسارًا، بين راقص وثمل، وتعالت أصوات .خيرات والأغاني وامتزجت بأصوات الصياح ونداءات التجار. تتطاير .مات الخمر في كل الأنحاء وتعج الخيام بآهات بائعات الهوى، يتناوب على .طنهن السكارى مرارًا، ازدادت المشاحنات والمشاجرات كلما غاص اليوم .. عتمته، وعلا السُباب وسط الإنشاد والتوشيح. أما عن السوق المنصوبة .نشطت فيها حركة البيع وخصوصًا التجارات الوهمية والمنتجات المعيبة، .عاث اللصوص وقطاعي الطرق فسادًا ونهبًا على أطراف الساحة، فيما .طوف بينهم ذهابًا وإيابًا أستغفر لهم وأحاول أن أنصح من استطعت إليه سبيلًا.

مرت ساعات، ازداد الناس فيها فحشًا ومجونًا، وازددت فيها إحباطًا، لكنني لم أستسلم قط، أراقب من كثب وأشبك بالحديث الهادئ حين سنح لي الفرصة. وقبل أن يتملك اليأس مني تمامًا قام شجار عنيف بين

t.me/qurssan

أحد العربجية وبائع خمر من الأتراك، فركضت إليهم مسرعًا لأحاول فض،
عسى أن يكون لمظهري الوقور أو لعمامتي وزيي الغريب قدر من الاحترام
في قلوب الناس، فما كان نصيبي من المعركة سوى قنينة خمر ألقيت على
رأسي، فأطاحت بالعمامة وأصابت جبهتي فدارت بي الدنيا وترنحت
ثواني حتى هويت بالقرب من مشعل النار المجاور لإحدى الخيام.

نظرت طويلاً إلى السماء التي كادت تحترق فتهوي علينا جميعًا، وأدركت حينئذ، حين كنت ملقى على ظهري، صحة كلمات الشيخ وظنه بأن ما يحدث في المولد صار، بكل الأحوال، أكبر مني، ومنه، ومن السلطان "برقوق" شخصيًا، وبأن دورنا لم يكن هنا. أظلمت الدنيا من حولي وغاب صوت المعركة عن سمعي ورحت في سبات عميق.

مر حينٌ، لا أعلم مدّته، ولا كيف مر، حتى أحسست بوخز الألم في رأسي مرة أخرى، عقدت جبيني وفتحت عيني بصعوبة بالغة حتى رأيت الفجر، فقد بزغ ضوء النهار في الأفق، ثم تحسست رأسي فأحسست به رطبًا، نظرت إلى كفي فرأيته مخضبًا بالدماء ملطخًا بالطين، فأخرجت منديلي من جيبي بيدي الأخرى وضغطت به على الجرح.

جلست على الأرض برهة حتى استعدت توازني وقوتي ووقفت مستندًا إلى عمود الخيمة، هي نصف محروقة، تبدو كما لو كانت قد أنقذت من اللهيب ببعض الماء في تلك الأواني النحاسية الملقاة بجانب المشعل المنطفئ.

رحت أتجول بين الركام والخيام، والسكارى النائمين في العراء. كلما وطئت موضع قدم ركلت قنينة خمر. تخلو الساحة من أي حركة سوى

t.me/qurssan

..اف بعض لصوص الثلث الأخير من الليل، ينهلون ما تبقى من فتات ..اد في الخيام، أو الزلعات، أو جيوب السكارى والمتهاوين الغائبين. كلما ..حت بنظري رأيت إحدى الفتيات ملقاة عارية أو مقطعة الثياب، كلما ..اولت مساعدة أو إنقاذ إحداهن وجدت من هي أجدر منها بالمساعدة، ..ى ظننت أن السماء قد سقطت علينا بالفعل في أثناء نومي.

لم أكن أعلم حتى هذا اليوم أن الفحش قد وصل بأهل المولد إلى ..لك الدرجة، وتملكني شعور شديد بالضيق أثقل صدري، فرفعت رأسي ..ددت يدي إلى السماء استنجادًا بالله وبدأت في النواح، ثم رأيت زاوية ..يخ "إسماعيل" قابعة في الأفق يشير إليها ضوء الشمس الأول، كأنها ..صد دعوتي إلى الله، فهرولت متثاقلاً إليها، إلى شيخي، إلى معلمي، ..سى أن يفتيني ويطببني. ولما وصلت إلى باب الزاوية، دفعته في وهن ودخلت ببطء إلى ساحة الصلاة، وخررتُ جاثيًا هناك..

"يا الله.. يا شيخي العارف بالله.. أغيثوني.. هل هي الساعة؟ أغضب الله واقع؟ غمرتهم معاصيهم وأخطأت حين ظننت أني مصلحهم.. لقد شهدت النهاية.. ولكنك ربي أعلم بما في صدري، فهل من متاب؟ اللهم أعذني من شياطينهم ومما يصنعون.. أستغفرك اللهم لهم.. لكن لا.. لا أستغفرك لهم.. ليس اليوم".

كان باب غرفة الشيخ "إسماعيل" مغلقًا، لم أدخل تلك الغرفة قط طيلة عامين قضيتهما معه، لم يرد الشيخ، انتظرت قليلاً ثم استجمعت قواي مرة أخرى فهممت واقفًا، واقتربت من باب الغرفة ونقرت عليه برفق، فلم

t.me/qurssan

أتلقّ ردًا، لكنني سمعت صوتًا ما يتحرك في الداخل فظننت أن الشيخ ق
استيقظ من نومه وسيخرج ليلقاني، ولكن مرت دقائق أخرى ولم يخرج
فناديته "يا سيدي إسماعيل"، دون رد، فلم أجد بدًا من دفع الباب لأرى
ما يحدث.

فتحت باب الغرفة ببطء، فإذا بنور أبيض قوي يدخل من نافذة الغرفة
المفتوحة، ويعبرها ليخرج من بابها، تصعب الرؤية من خلاله. رفعت يدي
أمام عينيّ لأحتمي من شدة النور، حتى أتمكن من رؤية باقي الغرفة
ومن رؤية الشيخ، لكنني حين اعتادت عيناي شدة النور، قلبت النظر في
الغرفة، فوجدتها خالية إلا من سرير قديم متهالك بجانبه صندوق خشبي
صغير مفتوح يحوي بعض قصاصات الأوراق والكتب الفقهية، دون أي أثر
للشيخ. ولما أمعنت النظر من خلال النافذة مصدر النور، رأيت خيالا
يشبه خيال الشيخ يطفو أو يهرول مسرعًا في الزراعات الغربية خلف
الزاوية، مبتعدًا عنها، مبتعدًا عني، مبتعدًا عن كل من كان هنا يومًا.

وقبل أن أتأكد من رؤياي، أو ما إذا كان هذا المشهد حقيقيًا، أم من
نسج خيالاتي، ما إذا كان هذا الخيال هو ذات الشيخ أو شيء آخر،
سمعت صوتًا أجشّ في مدخل الزاوية ينادي بقوة..

- سلام عليكم يا سيدنا.. الفطار يا مولانا...

وقف المعلم "طلبة" بجسده الضخم وبطنه المنتفخ يسد مدخل الزاوية
ويحمل صينية من الطعام مغطاة بقطعة كبيرة من القماش، ينظر إلى الأسفل
يحاول خلع نعليه من قدميه قبل الدخول. ولما انتهى من نعليه ونظر إلى
أعلى، رآني أقف بباب الشيخ، أحمل في يدي منديلاً مصبوغًا بالدماء.

t.me/qurssan

..و يخرج منبعثا بقوة من داخل الغرفة يملأ أرجاء الزاوية، حتى إنه ..صب النظر في اتجاهها.

كان يعلم بالتأكيد ما قد حدث لي في الليلة السابقة، بصفته كبيرًا ..لم يأبه لإصابتي الواضحة، حتى إنه لم يتكبد عناء السؤال ..ن حالي، وبدأ يحدثني بتعالٍ ظاهر . . .

إنت هنا يا شيخ؟! يا أهلاً بك. . الفطار يكفي ويفيض بإذن الله.

لم أرد عليه، وظللت أفكر فيما رأيت منذ قليل، عما سأقوله للمعلم ..لبة" في تلك اللحظة حين يسألني، عما سأحكيه لكل الأتباع والمريدين ..وسين فيما بعد، فقطع حبل أفكاري مرة أخرى بصوته الجهوري. .

أمال فين سيدنا؟

نظرت إليه في تردد، أحاول رسم ملامح الحزن على وجهي الجامد، ودارت في رأسي كل الاحتمالات والإجابات التي يمكنها أن تنقذني من بطش المعلم "طلبة"، فخرجت مني الكلمات دون حساب، قبل أن أختارها . .

. الشيخ "إسماعيل" توفاه الله.

سقطت الصينية من الصدمة وهمّ المعلم بالدخول إلى الغرفة مسرعًا . .

. إيه! مات؟! جوه في الخلوة؟!

فاستوقفته بحزم، هو الذي يكبرني أضعافًا، حجمًا وسنًا، وقلت له وأنا أنظر إلى الأرض متأثرًا، وقد بدأت تتضح في ذهني ملامح الحكاية التي سأحيكها . .

t.me/qurssan

- الشيخ "العارف بالله" من أولياء الله الصالحين.. اختاره الله ا
جواره.. فرد إليه جسده.. نزل النور من السماء فرفعه إليه ا

جرى المعلم "طلبة" إلى الغرفة فوجدها خالية، ورأى النور السا
القادم من النافذة فتهلل وجه وخرج من الزاوية يجري حافي القدمين و
يردد:

- الشيخ إسماعيل ارتفع.. نزل نور من السما وسحبه عند ربه
الشيخ إسماعيل ارتفع...

ظللت واقفًا بباب الزاوية أنظر إلى المعلم "طلبة" وهو يجري في السا
لينال شرف نشر الخبر، أشهد لحظة تحرّر الشيخ من قيود مريديه، دون
أفهم ما قد حدث حقًا.

t.me/qurssan

الفصل السابع

"فردوس"

t.me/qurssan

t.me/qurssan

35

فرغـت الحاجـة "فاطمـة" مـن حـزم أغراضهـا، وانتهـى الحـاج "عـلي" مـن قـراءة التدوينـات، وأصابتـه حـيرة التأويـل، أمـا مـن دلالـة مـن وقوعهـا في يـده في ذلـك التوقيـت؟ بعـد أن كان قـد اقـترب مـن حسـم قـراره بالعـودة إلى "إمبابـة" بشـكل نهائي مـع اقـتراب موعـد الإزالـة، واستسـلم أهـل البيـت جميعهـم لقرار الإخـلاء. وضـع الحـاج رقائـق التدوينـات المهترئـة كـما كانـت في صندوقهـا الصـدفي العتيـق، وجلـس ينظـر إليهـا مهمومًـا، فـإذا بقـرعٍ قـويٍ يـضرب بـاب المنـزل، ويسـتقبل أهـل البيـت زيـارة لم يكـن يتوقعهـا أي منهـم.

وقف الحاج "علي" مشدوهًا حين فُتح باب البيت..

- "رجب"! انت بتعمل إيه هنا؟!

t.me/qurssan

كان الحاج "رجب الشجاع" يقف بباب البيت يلفظ أنفا... الضائعة، يبدو عليه تعب السفر والعمر، مستندًا إلى سا... أحد أبنائه الثلاثة، كأنه جاء مهرولاً لا راكبًا. نظر إلى "علي... طويلاً بعينين لائمتين دون أن يرد، حتى استعاد حبل الحدي... فانفجر فيه عاتبًا..

- ينفع! يا راجل يا عايب.. أعرف إنك مزنوق من برة ومش عايز تبعت لأخوك...
- من برة منين! إنت مين اللي قال لك؟
- ابنك "محيي" شيّع لي من يومين.
- آه يا بن الكلب يا واطي.. والله لأوريه!
- سيبك من "محيي".. اتصرف معاه براحتك بعدين.. إنـ... مش عايز تكلمني وانت في زنقة ليه يا "علي"؟!
- مش القصد.. دي ولا زنقة ولا حاجة.. كنا هنتصرف.
- تتصرف إزاي؟ ده فاضل تلات أيام ويبجوا يشيلوا البيت.. لو كنت هتتصرف كنت اتصرفت من بدري.
- وانت ذنبك إيه انت.. بكفاية جمايل يا "رجب" لحد كده.
- كفاية إيه وجمايل إيه يا راجل يا هُزُؤ! وهو احنا فاضل لنا قد إيه؟ وبعدين مين فينا ليه إيه عند مين.. يا راجل بلاش كلام أهبل.
- بلاش يا "رجب" المرة دي.

t.me/qurssan

بلا بلاش بلا كلام فاضي.. قوم خد الفلوس وادفع التنكيس
يا جدع.. بدل ما تقعد انت وأهلك في الشارع.

انتهت الأزمة، وبدأت إجراءات تنكيس البيت. أما قرار الحاج بعدم العودة لـ"قليوب" مرة أخرى والذي كان قد أوشك على اتخاذه بشكل قاطع، فقرر أن يعيد النظر فيه بعد ما قرأه عن الشيخ "إسماعيل" في التدوينات التي وجدها في الصندوق، والتي آثر أن يصدق بأن "يحيى الجيوشي" الذي قام بتدوينها كان أحد أسلافه أو تربطهما صلة قرابة ما، وإلا لما كانت وجدت تلك الرقائق في صندوق العائلة الصدفي العتيق، وأن وصول تلك التدوينات إلى يديه في ذلك التوقيت، وظهور صديقه ومخلصه "رجب الشجاع" لينقذه في تلك اللحظة، كان بمثابة إشارة له بعدم التواني عن متابعة مساعيه وأحلامه، وتجديد لإيمانه بشيخه وشفيعه "إسماعيل الإمبابي". فمكث في إمبابة لحين إتمام إجراءات التنكيس، وبدء عمليات الترميم، ثم قرر أن يعود إلى "قليوب" مرة أخرى، على أمل أن يجد ما كان يبحث عنه في بادئ سفره إلى هناك.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

36

كان الحاج "علي" لا يفتأ يذكر لأبنائه مدى كرهه للمتطفلين وذوي الأنوف الطويلة، ويعدد لهم بعضًا من "بُرَداء[1]" الأخلاق الذين ابتلاه الله بمقابلتهم على مدار حياته، فلا يتخلص من أحدهم حتى يرسل الله إليه بديلاً أكثر تطفلاً ممن سبقه، كان كلما تعرف إلى أنف طويل جديد، يعود فيحكي عنه لأبنائه ويصنفه لهم وينهي حديثه بمقولة كان يسمعها حين كان صغيراً من الشيخ "نصر"، أستاذه في الكُتاب..

"سبعة برداء في الأخلاق

نُوتي وحانوتي وفقي تربة ودلّال في الأسواق وسقّا وإسكافي

وشيخهم في البَرَادة[2]... الحلاق"

---

(1) برداء: جمع ركيك من صنع الشيخ "نصر" لكلمة "بارد"، ويقصد بها المتطفل.

(2) البرادة: لفظ ركيك آخر من ألفاظ الشيخ "نصر"، يقصد به التطفل.

t.me/qurssan

يبعـد دكان الأسـطى "ميـلاد" الحـلاق أمتـارًا قليلـة عـن ..
الحـاج في "الخرقانيـة"، فبحكـم طبـاع "ميـلاد" وطبيعـة ..
اكتسـب مهـارة يصعـب مضاهاتهـا في اختـلاق الأحاديـث ..
زبائنـه، ومعرفـة تفاصيـل حياتهـم وحكايـات غايـة في الخصو..
عـن كل بيـت مـن بيـوت القريـة، وكل فـرد فيهـا، ويتلـذذ بإ..
تلـك الخبايـا كلـما سـنحت لـه الفرصـة، كأنهـا مقـدرة خا..
اصطفـاه اللـه بهـا عـلى سـائر الخلـق، فيتباهـى بمعرفـة الأسرار أ..
أصحابهـا.

مـر عـامٌ كامـلٌ عـلى رحيـل السـت "عزيـزة"، وانتهـز "ميـلا..
فرصـة زيـارة الحـاج الأسـبوعية لـه لحلاقـة ذقنـه، وفاتحـه في خا..
طـرأت عـلى ذهنـه، خطـة تثبـت نظريـة الحـاج عـن مـدى تطـ..
الحلاقـين وتصنيفـه لهـم عـلى قمـة هـرم "الـبرداء في الأخـلاق"..

- شـكلك تعبـان قـوي انـت يـا حـاج.. غيـاب السـت اللـه يرحمهـ.. بايـن عليك.
- هنعمل ايه بقى يا أسطى "ميلاد".. حكمته.. الله يرحمها.
- بـس بـردو لازم حـد يبقـى معـاك يخدمـك.. حـد مـن الـولا.. ييجـي يقعـد معـاك أو انـت تـروح لهـم.
- يـا ريـت واللـه.. بـس ماعـادش ينفـع.. إنـت عـارف بقـى كل بيـت ولـه ظروفـه.
- خلاص يبقى تتجوز.. حد ياخد باله منك وياخد بحسك.
- جـواز إيـه بـس يـا بنـي ده انـا خطيـت التمانـين وعيـال عيـالي بيمشـوا دلوقتـي.. ثـم مـين اللـي تـرضى بيـا كـده؟

t.me/qurssan

ا.ت اللهم صلي ع النبي صحتك وكلنا عارفين انها ميـة ..ـة.. وجيبك عمران والحمد لله.. هتعوز إيه أكتر من ١ـده؟ وإن كان على العروسة موجودة.

موجودة!

البت "نصرة" بنت المعلم "سالم".

نظر الحاج إليه في ذهول، فابتسم "ميلاد" واستطرد في ...شه بعد أن نجح في جذب انتباهه وعلم أن الفكرة ليست ..فوضة بشكل قاطع...

من كام سنة كده البت اتخطبت لواحد من دورها.. وفي ليلة الدخلة الواد جات له رصاصة طايشة جابت داغه.. فالبت اتنحست وبقى كل ما يجي لها عريس ويسمع عن جوزها اللي مات ليلة دخلتها يخاف وياخد بعضه ويمشي.. مع إنها زي فلقة القمر.. بس أديها خطت العشرين أهي وهتعنس.. اتجوزها يا حاج واكسب فيها ثواب...

عاد الحلم يراوده مرة أخرى بعد أن كان قد دفنه في ثنايا إحساسه بالهزيمة، بعد أن أيقن في كل الأحوال بأن الموت أقوى وأقدر على مد أطرافه إلى أعز من كان يحبهم، حلم عتيق أعاد نبشه "ميلاد" الحلاق حين ذكر اسم الفاتنة الصغيرة "نصرة"، فتعرى الحلم وتذكر "علي" أن الموت لم يسلبه روحه، لم يتسرب إلى عزيمته بعد، بالطبع أنهكه صراعه معه وسلبه أحبابًا كُثُر، لكنه لا يزال يملك قلبًا يرغب في الامتداد، يحتاج فقط إلى مساعدة، إلى باعث جديد، يحمله على إتمام رسالته التي لم تكتمل.

t.me/qurssan

جـاءت "نـصرة" لتمـلأ فراغًـا مدويًـا، قطعـة أحجيـة مثاليـة تعطـي الصـورة نواقصهـا، تدفـع حياتـه إلى اكتمالهـا. كان لها نصيـب مـن سـليقة وطيبـة السـت "عزيـزة"، ونصيـب أكـبر من ذكاء وهـدوء الحاجـة "فاطمـة"، حالهـا بـين هـذا وذاك، أمـا في هيئتهـا، فلـم تشـبه هـذه ولا تلـك، كانـت بهيـة لافتـة، بضـة بيضاء، شـعرها البنـي ينسـاب مـن تحـت منديـل رأسـها دون التفـات منها. سـابغة الطـول، هيفـاء، لهـا عينـان زرقـاوان حزينتـان، أحـس "عـلي" فيهـما الأسى حـين رآهـا في السـوق تسـاعد أمهـا في حمـل حقائب مشـترياتها، كان يحـزن لمجـرد رؤيـة عينيهـا، ولا يعلـم مـا يجب عليـه فعلـه ليسـعدها، فتواتيـه أسـئلة أشـبه بتلـك التسـاؤلات التي يطرحهـا انكسـار نظراتهـا، مـاذا تنتظـر؟ أو بالأحـرى، مـن تنتظر؟ ولمـاذا طـال انتظارهـا؟ لمـاذا اختارهـا القـدر ليقتـل زوجهـا في يـوم العـرس؟ تسـاؤلات ظلـت سـابحة في هالـة مـن الجـمال الـذي يحيـط بتلـك العـذراء العشرينيـة، إلى أن جـاء "ميـلاد" في ذلـك اليـوم وزرع فكرتـه الغريبـة في رأس الحـاج، فبـدأ ينظـر إلى "نـصرة" بعـين جديـدة، كأنـه هـو نفسـه حـل اللغـز والجـواب لـكل تلـك التسـاؤلات، وكأن انتظارهـا كل تلـك السـنوات كان مرسـومًا لـه هـو.

لكـن السـؤال الأحـق بالطـرح، هـل توافـق "نـصرة" عـلى الـزواج بـه حقًـا، هـو الشـيخ صاحـب الاثنـين والثمانـين عامًـا، هـل يوافـق أبوهـا عـلى أن يـزوج ابنتـه البكـر الفاتنـة بكهـل وحيـد لتخدمـه؟ بـل والأنـكى مـن ذاك، مـاذا سـيكون رد الحاجـة "فاطمـة" حـين تعلـم أنـه يريـد أن يتـزوج مـرة أخـرى؟ كانـت دومًـا تطلـب منـه الـزواج ليجـد مـن يؤنسـه ويخدمـه في "قليـوب"، لكنهـا بمجـرد أن تنظـر إلى عينيـه حـين يخبرهـا أن العـروس الجديـدة ابنـة عشريـن،

t.me/qurssan

. تعلم أنه لا يبحث عن رفيقة فقط، ستعلم أنه اشتهاها واستساغ شبابها، وأن زواجه هذه المرة لن يكون كزواجه من الست "عزيزة"، رحمها الله، لأهداف الخدمة والرعاية.

عقد الحاج عزمه وذهب هذه المرة في رحلته الشهرية إلى إمبابة" ليتشاور مع الحاجة "فاطمة" في أمر زواجه للمرة الثالثة، يحمل في قلبه بعضًا من مشاعر خزي مبرر، وإحساس .فين بأنه قد تناسى قدرها عنده، وأغفل حبه لها، بأنه ..لبها العديد من حقوقها عليه دون أن يشعر. ها هو ذا .رة أخرى لا يلقي بالاً لما قد تشعر به بسبب قراره، وتلاشى داخله إحساسه القديم بالغضب لقرارها بعدم السفر معه إلى "قليوب"، تجلت له الآن منطقية دوافعها لاتخاذ قرار البقاء، بدا له بعد كل تلك السنوات أن قرار البقاء كان هو الأحكم وقتها لها ولأبنائها، فما كان القرار إلا حرصًا على استقرارهم وحفاظًا عليهم من الانخراط في تجربة قد تبوء بفشل لا تُحمد عقباه.

أما الحاجة "فاطمة" فكانت قد طورت مشاعرها تجاهه على مر سنوات غيابه من حب الزوجة إلى حب أم ورفيقة درب، فحين طلب أن يتحدث إليها على انفراد، وحاول أن يفاجئها بخبر زواجه، لم يكن ردها عليه كما توقع، كأنها كانت تعلم ما أخفت سريرته منذ أن بدأ حديثه. لم تنظر إلى قراره بعين الغيرة أو الغضب، بل أولته عين الحكمة والزمن. كانت تعلم أنه فارقهم منذ زمن بعيد، ولن يعود إلى بيتها إلا كابن ضال يتحسس شَماله ليعيد ضبط بوصلته ويكمل طريقه،

t.me/qurssan

فباركت زواجه بروح راضية هادئة ودعت له بدوام الصحة وهناء البال.

ذهل الحاج من ردها، واعتراه غضب عارم من ذلك الهدوء الشديد الذي قابلت به الخبر، كأنها لم تعد تكترث لأمره، لكنه لم يملك ردًا، فقد تحقق له ما جاء من أجله، وباركت رفيقة الأولى زواجه الثالث. فخرج من غرفة الحاجة مشوشًا ليبلغ أبناءه بقراره الأخير... سيتزوج بتلك الفاتنة ذات العشرين ربيعًا.

وعلى الفور من عودته إلى "قليوب"، طلب من الأسطى "ميلاد" أن يمهد له زيارة إلى منزل الحاج "سالم" أبو "نصرة" العروس المطلوبة، وبالفعل في غضون أيام زار منزلهم وطلب منه يد ابنته "نصرة" للزواج، فقبلت، وقبل أبوها، ولم يجد أي منهم غضاضة من فارق السن الفسيح بينهما، بل وتم العرس كامل الأركان وسط فرح عارم وسعادة طامحة، وبحضور ابنيه "فهمي" و"محيي" وبعلم الحاجة "فاطمة" نفسها ومباركتها.

t.me/qurssan

37

عـاد الحـاج في أولى زياراتـه الشـهرية إلى "إمبابـة" مـع عروسـه الجديـدة "نـصرة"، لتتعـرف عـلى أهلـه فيها، فـكان اسـتقبال الحاجة "فاطمـة" لهـا لا يقـل حفـاوة عـن اسـتقبال سـابقتها "عزيـزة"، عادة لم تفارقهـا مـع مـرور الزمـن وكـر السـنين، تكـرم زوارهـا دون تـردد، حتـى وإن كانـت زائرتهـا هـي عـروس زوجهـا التـي تصغـر بكريّهـا "فهمـي" بمـا يزيـد عـلى العشريـن عامًـا، فـلا يجـوز أن يضـام ضيـف في بيـت الكـرام.

انتظـر "محيـي" عـودة أبيـه الشـهرية تلـك ليخـبره بخـبرٍ مماثـل، فقـد عقـد العـزم هـو الآخـر عـلى التقـدم لخطبـة "فـردوس"، ابنـة الشـيخ الراحـل "أبـو طالـب الصيـاد"، وأخـت صديقـه ورفيـق عمـره "منعـم الصيـاد". كان الشـيخ "أبـو طالـب" هـو ابـن عمـة الحاجـة "فاطمـة"، فـتربى "محيـي" و"منعـم" أخـين تربطهـما العلاقـة العريقة بـين عائلـة "الصيـاد" وعائلـة "أبـو طويلـة".

t.me/qurssan

كان حب "محيي" الخفي لـ"فردوس" حملاً ثقيلاً أرّقه منذ أن كانا صغيرين، بدأت شرارته في يوم تتويج الملك، حين خرجت هي ومن معها من فريق الكشافة ليصطفوا على كوبري قصر النيل في استقبال الملك "فؤاد" وولي عهده الأمير "فاروق الأول"، رئيس جمعية الكشافة المصرية، ليؤدوا له تحية الكشافة. لم يعلم "محيي" أنى له بذلك الدافع القوي ليخرج وراءها، لم يتفتق ذهن ابن الثالثة عشرة عن سبب منطقي لذهابه وراءها سوى أنه يستمتع برؤيتها؛ كانت طفلة مختلفة عن أترابها اللاتي يراهن من بنات "درب الحافري"، كانت ابنة "كفر الشوام" منمنمة الملامح، قصيرة القامة، لها جديلتا شعر ذهبيتان تحاكي ألوانهما ألوان عينيها، فكانت هذه هي المرة الأولى من مرات عدة لحق فيها "محيي" بـ"فردوس" بحجة مشاهدة موكب الملك في عيد التتويج السنوي. لكنه لم يجرؤ قط على أن يخبر أحدًا بشأن هذا الافتتان، احترامًا لصديقه "منعم" في المقام الأول، وتجنبًا لأي خلاف قد ينشب بين العائلتين فيعكر صفو علاقتهما القديمة.

استمرت مشاعر "محيي" تتأجج تجاهها على طول السنين، فحين وصل إلى سن الزواج واستقرت أوضاع البيت بعد تفادي قرار الإزالة، فاضت مشاعره، ولم يعد بوسعه أن يكتم حبه لها. فذهب إلى الحاجة "فاطمة" في صبيحة أحد الأيام، وقرر أن يصرح لها بحقيقة مشاعره تجاه "فردوس"...

- أنا عايز أقول لك على حاجة يامّا بس سايق عليكي النبي ما تزعلي مني.

t.me/qurssan

يا واد قول دوغري!

... أنا عايز اتجوز.

طب ما انا عارفة.

- عارفة؟! يا مسهل يا رب.. طب عارفة أنا عايز أتجوز مين؟

- بردو عارفة.

انتفض "محيي" من الرعب..

- عارفة! عارفة إيه؟

- عايز تشبك "فردوس الصياد".. وعينك منها من زمان.. وهي كمان عينها منك.

- إيه! عرفتي منين؟!

- وانت فاكر انك حويط وماحدش عارف يا مفضوح انت! دي هي يا دوب بتهل كده ووشك بيجيب ألوان.. وهي تتلخبط في الكلام.. ولو في بالك ان محدش واخد باله تبقى عبيط.. أي حد مركز معاك ياخد باله.. ادعي بس ان اخوها مايكونش مركز معاك زي ما انا مركزة معاك.. أحسن ما تخسروا بعض.

- نخسر بعض! ليه يامًّا؟ ده انا شاريها وداخل البيت من بابه...

- أيوة بس بردو حكاية إنكم اتكلمتو سوا وهي قالت لك إنها ميالة لك دي مش شوية، وأخوها لو عرف مش هيفوّتها لك.. مش انتو اتكلمتو سوا بردو؟!

t.me/qurssan

- إيه يامّا ده.. الحكاية مش كده.. ده أنا بس كنت بـ.

- يبقـى اتكلمتـو.. أنـا بـس مـش عايـزاك تنـسى ان هـو صاحـ
قبـل مـا يكـون في مقـام ابـن خالـك.. وهـو مـا شـاء اللـه بق
راجـل ملـو هدومـه مـش عيـل صغـير.. يعنـي الأصـول إنـ
تطلبهـا منـه الأول.. ولـو مـش ممانـع يبقـى تـروح لهـم البيـ
رسـمي.

- فكرك كده؟!

- "منعـم" عاقـل ومـا اظنـش انـه هيمانـع.. وبعديـن هـو هيلاقـ
أحسـن منـك فـين؟ اتـوكل عـلى اللـه.

فوجـئ "محيـي" بالفعـل مـن عـدم معارضـة "منعـم" لطلبـ
بـل إنـه بـارك الخطبـة وأخـبره بأنـه سـيزكيه عنـد أمـه. فعـا
"محيـي" لأمـه تمـلأه فرحـة عامـرة ليخبرهـا بموافقـة "منعـم" عـلى
طلبـه...

- ألف مبروك يا حبيبي وربنا يتمم لك على خير.

- الله يبارك فيكي يامًّا.. هنروح إمتى نطلبها بقى؟

- لا يـا "محيـي" الأصـول أصـول.. هتسـتنى أبـوك هـو اللـي يـروح
معـاك.. الحـاج "أبـو طالـب" اللـه يرحمـه كان في مقـام أخويـا
آه.. والسـت "أم منعـم" أختـي.. بـس لازم أبـوك هـو اللـي يـروح
معاك.

- لا إله إلا الله.. ماشي يامًّا.. هاستناه.

- بـس يكـون في علمـك.. فـردوس دي دلوعـة أهلهـا مـن أيـام مـا
كانـوا في بـولاق.. ومـش متعـودة عـلى بهدلـة.. كرامتهـا عندهـا

t.me/qurssan

أهـم حاجـة.. بنـت اخويـا وانـا عارفاهـا؛ لـو هتاخدهـا تعمـل حسـابك عـلى كـده.. وأنـا ليـك عليـا لأخـلي لـك البيـت قـد المقـام لمـا تيجـي تقعـد معانـا بالسـلامة.

عـاد الحـاج "عـلي" إلى "إمبابـة" وفاتحـه "محيـي" بشـأن الخطبـة، فرحـب بشـدة وقـرر أن يعجـل بموعـد زيـارة بيـت عائلـة "الصيـاد"، والتـي قوبـل فيهـا طلبهـم بالموافقـة؛ وبـدأت عـلى الفـور مراسـم الإعـداد للعـرس وانتقـال "فـردوس" إلى البيـت الكبـير في "تـاج الـدول".

كانـت الحاجـة "فاطمـة" تعلـم بـأن عائلـة "الصيـاد" قـد هبطـت منـذ سـنوات مـن "بـولاق" لتسـكن عـلى أطـراف "كفـر الشـوام"، بعـد أن تُـوفي عائلهـا الشـيخ "أبوطالـب الصيـاد"، وبـأن "فـردوس" عاشـت حياتهـا السـابقة كلهـا في "بـولاق" ثـم مـن بعدهـا في "كفـر الشـوام"، التـي تدخـل الميـاه إلى بيوتهـا عـبر الحنفيـات ولا يعـرف "جبريـل" السـقا لهـا طريقًـا، وبأنهـا سـتأتي لتعيـش معهـم في "تـاج الـدول" التـي تدخـل بيوتهـا الميـاه مـرة واحـدة في اليـوم عـن طريـق "جبريـل". فآثـرت أن تكـرم عـروس ابنهـا الجديـدة، واتفقـت مـع "جبريـل" أن يأتيهـم لمـلء الزيـر ثـلاث مـرات يوميًـا منـذ بدايـة الشـهر بـدلاً مـن مـرة واحـدة، فلديهـم ضيفـة جديـدة مـن "بيـوت الحنفيـات"، ولا يصـح أن تشـعر ابنـة عائلـة "الصيـاد" بنقـص الميـاه في بيـت عائلـة "أبـو طويلـة".

أمـا "محيـي" فـكان مهمومًـا بشـكل الـدرب، وبمـا إذا كان لائقًـا باسـتقبال عروسـه الجديـدة، وزيـارات أهلهـا التاليـة مـن "كفـر الشـوام"، فحتـى وإن كان "درب الحافـري" قـد دخـل في دائـرة بنـدر

t.me/qurssan

"إمبابة" تحت إدارة شياخة "كفر الشوام" منذ سنوات، وصار الحكومة لا تعتبره من أرياف "إمبابة"، فإنه لا يزال يفتقر إل بعض أهم امتيازات البندر. فقرر "محيي" أن يكاتب مفتش الصحة بشأن أكبر مشكلة يعاني منها أهل الدرب، والتي كان يرجو لها حلاً قبل حلول عروسه الجديدة..

حضرة صاحب العزة مفتش صحة بندر امبابة

بعد الاحترام

مقدموه لعزتكم سكان وأهالي حارة درب الحافري المتفرعة من شارع فاروق الاول شياخة كفر الشوام بإمبابة

نتشرف بعرض الآتي ـــــ

حارة درب الحافري عبارة عن زقاق ضيق جدًا وآهل بالسكان يبلغ عدد قاطنيه نحو 600 شخص حسب آخر احصاء، وعلاوة على ذلك فإنه غير مرصوف ولا يعتني به من كنس أو رش، وذلك ما لا نشكو منه ولكن مما زاد الطين بلة، وهو الامر الذي نرفع به شكوانا الى عزتكم، وجود عربيات كارو وبكثرة تعترض المرور ليلاً ونهارًا، ويضطر أصحابها علاوة على ذلك الى أن يؤووا بهائمهم (الحمير وخلافه) داخل منازلهم التي يملكونها، علاوة على وجود سكان معهم.

ولا يخفى على عزتكم وجود هذا الوضع الشاذ في حارة ضيقة آهلة بالسكان لا يدخلها الشمس ولا الهواء، ووجود

t.me/qurssan

روائح كريهة يتسبب عنها معظم الامراض، وفي هذه الحارة بالذات حصل وفيات بامراض معدية نتيجة مثل هذه القاذورات.

وخوفًا من حدوث ما لا تحمد عقباه نرسل هذا الخطاب الى عزتكم ونحن على تمام المعرفة بان عزتكم ستهتمون بهذه الشكوى، ووضع حد لامثال هؤلاء الناس الذين سبق ان تفاهمنا معهم مرارًا بإزالة هذه الاشياء من منازلهم، فكان ردهم الرفض والعراك ـــــ

ملحوظة: بندر امبابة ممنوع من وجود زرايب البهائم فيه بمقتضى قوانين الصحة، وكان قبلاً موجود به مثل هذه الأشياء، لكنها أزيلت واستبعدت خارج كردون السكن ـــــ

t.me/qurssan

t.me/qurssan

38

أما "إبراهيم" فقد عانى ومصبغته لثلاثة أعوام متتالية، منذ قيام الحرب الكبرى الثانية، من سوء أحوال التجارة وحركة السفن ونقص "النيلة"، تمامًا مثلما حدث مع أبيه في بداية الكساد الكبير قبيل الحرب الكبرى الأولى. لكن في بداية العام الجديد من الأزمة، تفاقم الوضع حتى صار شبح الديون يهدد بإغلاق المصبغة، مصدر رزقه الأوحد، فكانت التزاماته بتوفير عدد معين من الأثواب المصبوغة قد فاقت قدرته، وصار تدخل البنك وشيكًا.

على الجانب الآخر كان "محيي" في أوج تجهيزاته للزواج، إذ طلب من "منعم" التعجيل بعقد القران وتأجيل الزفاف والدخلة ولو لأسابيع أخرى، حتى يتمكن من صرف عدد أثواب الأقمشة وأشولة القطن التي خصصتها الحكومة، كي تُصرف للمتزوجين حديثًا بقسيمة الزواج. فقد ساءت أحوال

t.me/qurssan

التجارة بسبب ظروف الحرب واختفت الأقمشة الحرة تمامًا من الأسواق، ولم يتبق أمام "محيي" منفذًا لابتياع الأقمشة سوى تلك الأثواب المدعمة من قبل النظارة، والتي لا يتم بيعها إلا لمستحقيها، أو عن طريق المخاطرة بابتياعها مهربة من السوق السوداء.

وافق "منعم" على اقتراح "محيي" بعقد القران وتأجيل الدخلة لحين إنهاء ما تبقى من استعدادات، والتي كان آخرها التنجيد وتفصيل فرش غرفة النوم وكسوات الكنب وخلافه، فاستلم "محيي" حصته من الأقمشة وأشولة القطن وعاد بها ليخزنها في فناء البيت الخلفي، وما هي إلا أيام قليلة حتى سمع بأمر أزمة مصبغة "إبراهيم"، فانتابته مشاعر متضاربة، بين أن يفك كربة أخيه بما لديه من أثواب، وبين أن يُتِم اتفاقه مع "منعم" وينهي التنجيد في موعده ويتمم الزيجة.

لم يدم هذا الصراع طويلاً ورجحت كفة "إبراهيم"، فاتفق معه أن يقرضه أثواب عرسه المخزنة في فناء البيت ليحل بها أزمة مصبغته، ويطلب من "منعم" أن يؤخر الدخلة لبضعة أسابيع أخرى بحجة كثرة التجهيزات، على أن يعيد "إبراهيم" تلك الأثواب قبل الموعد المحدد للعرس.

مرت الأسابيع تباعًا وانتهت أزمة "إبراهيم"، واستطاع بالكاد أن يمر بالمصبغة من أزمتها، وعلى الرغم من كل الوعود والتعهدات التي أعطاها لـ"محيي" بأن يعيد له أثواب عرسه، لم يستطع أن يوفيه إياها قبل الموعد المحدد للزفاف. اقترب الموعد وغاب كل أمل لدى "محيي" في استعادة أثوابه، أو

t.me/qurssan

الحصول على غيرها سواء بالطرق الشرعية أو غير الشرعية، حتى صار شغل الأسرة الشاغل الوصول إلى طريقة لابتياع أثواب بديلة دون أن يعلم أهل "فردوس" أو أي من أفراد عائلة الصياد عن هذه الفاجعة.

تواترت الأخبار بسرعة من إحدى جارات الحاجة "فاطمة"، الست "صفية الصياد"، إحدى قريبات الشيخ "أبو طالب"، والتي يطل شباك منورها على ساحة الفناء الخلفي لبيت الست "فاطمة"، فانتشر الخبر كالنار في الهشيم، بأن أشولة القطن الخاصة بعرس "فردوس" قابعة في فناء بيت الحاجة "فاطمة" ولا أثر للأثواب التي كانت بجوارها. فحين علم "منعم" بالأمر ذهب على فوره إلى "محيي" ليفهم منه حقيقة الأمر..

- إيه اللي احنا سمعناه ده يا "محيي"؟!

- سمعت إيه؟

- خالتي "صفية" بتقول إن القماش بتاع "فردوس" مش موجود جنب القطن!

- طب اقعد كده وصلي على النبي.. أنا هافهّمك.

جلس "منعم" وحكى له "محيي" تفاصيل أزمة المصبغة وظروف "إبراهيم" المادية، وأخبره بأنه لم يملك إلا أن يساعد أخاه، فصمت "منعم" لفترة ثم رد بهدوئه المعتاد...

- جدع.. وابن أصول.. وأنا لو مكانك هاعمل كده.. بس أنا مش مكانك.. وحق "فردوس" عليّا أهم عندي من حق

t.me/qurssan

"إبراهيـم" عليـك.. ماتآخذنيـش يعنـي يـا "محيـي" إحنـا أ
مـن اخـوات بـس انـت جيـت عـلى حـق "فـردوس".. والقـا
الـلي انـت اتصرفـت فيـه ده مـش بتاعـك.. ده انـت جا
عـلى قسـيمة جوازكـم.. واتصرفـت فيـه مـن غـير مـا تشـاو
الأزمـة دي انـت الـلي مسـؤول عنهـا وانـت الـلي ملـزم تحلها
وأمـي ماعرفـش هـترضى تصـبر أكـتر مـن كـده ولا لأ.

- هتتحـل إن شـاء اللـه يـا "منعـم" يـا أخـي ماتقاطعـش.. قو
للحاجـة إني عنـد كلمتـي.

- مش بالكلام يا "محيي".. مش بالكلام.

حـل الموعـد المحـدد وتفاقـم الوضـع فلـم يعـد "محيـي" يملك
أيـة حيـل، وبـدأ صـبر "منعـم" ينفـد، فذهـب مـرة أخـرى إلى بيـ
الحاجـة "فاطمـة" ليخبرهـم بـأن نهايـة الأسـبوع هـي آخـر مهلـ
سـيعطيها لـ"محيـي" كي يـأتي بالأثـواب البديلـة، وذلـك إكرامـا
لعلاقتهـم الطيبـة عـبر السـنين الطويلـة الماضيـة ليـس إلا، وأن هـذه
هـي القشـة الأخـيرة.

مـرت ثـلاث ليـالٍ، وفي عتمـة الليلـة الرابعـة الممطـرة، بالقـرب مـن صـلاة الفجـر، سـمعت عائلـة "الصيـاد" طرقًـا قويًـا عـلى بـاب بيتهـم، فتـح "منعـم" البـاب فـإذ بالحـاج "عـلي" يقـف بعتبـة البيـت مبلـلاً بفعـل الأمطـار، ومعـه أربعـة أثـواب مـن الأقمشـة ينـوء بحملهـا الفتيـة أولـو البـأس، يحملهـا عـلى سـاعديه ويقـف في قـوة وثبـات لا يتفقـان مـع أعوامـه الثمانـين، فباغـت "منعـم" بسـؤاله بصـوت منخفـض...

- أمك فين يا منعم؟!

t.me/qurssan

فرد "منعم" هو الآخر عليه بصوت منخفض...

- نايمة يابا "علي".. هات عنك وادخل استناها جوه وأنا هاصحّيها لك.

- لا مش هادخل.. صحّي أمك وخليها تجي لي على الباب هنا.

نظر إليه "منعم" في تعجب وجرى مسرعًا إلى الداخل، وظل الحاج "علي" واقفًا بعتبة الباب دون أن يضع عن ساعديه حمل الأثواب، فخرجت الست "أم منعم" ومن ورائها "فردوس" التي كانت تحاول أن تغطي رأسها بمنديلها، فبادرته الست "أم منعم" متعجبة..

- إيه يا حاج اللي حصل كفى الله الشر؟

نظر الحاج إلى الست "أم منعم" في حزم ولم يجبها، ثم وجّه كلامه لـ"منعم"..

- بص يا "منعم" يا بني قدام أمك.. حق "فردوس" أهو.. ده قماش التنجيد.. تروح الصبح تاخد القطن من بيت خالتك "فاطمة" وتبتدي التنجيد...

لو حد سألكم القماش جه منين تقولوا هو ده القماش اللي "محيي" استلمه من النظارة، والحاجة "فاطمة" كانت شايلاه عشان مايشيطش من الشمس...

ماحدش فيكو شافني النهارده.. وأنا ماجبتش حاجة.. القماش ده أنا تعبت قوي على بال ما جبته، ولو حد عرف

t.me/qurssan

مصــدره أنــا الــلي هــروح في أبــو نكلــة.. اقفلــوا البــاب ورا، وربنــا يتمــم عــلى خــير..

ثم استدار وتوارى في الأمطار دون أن ينتظر منهما ردًا.

t.me/qurssan

39

أما بعد عودة الحاج "علي" إلى "قليوب" وما حدث تباعًا فهو درب من الغرابة، قصة لا يزال يتداولها أهل الخرقانية حتى اليوم، مضربًا للمثل بقوة علاج الشيخ "جعفر" ومدى نفاذ "الطب الشعبي" أو كما يدعي البعض بركات سيدي "إسماعيل الإمبابي".

فبعد بضعة أشهر من العرس ذهبت "نصرة" لتزور بيت أهلها، وفي طريق عودتها إلى المنزل عرجت على دكان الحاج مع والدتها لتبلغه بخبر هام...

- خير يا ست "نعمات".. إيه اللي جابكو يا "نصرة"؟ حصل حاجة؟!

- إيه يا "حاج".. هو إحنا مانجيلكش غير لو في مصيبة حصلت ولا إيه؟

t.me/qurssan

- لا مش القصد.. بس أصل مش عوايدكم.

- طب إيه قولك بقى إننا جايين لك بأخبار زي الفل!

- الخير على قدوم الواردين.. خير يا ست "نصرة".. أخبار إيه؟

- إيه أكتر خبر ممكن يفرحك يا حاج.. غاية مناك من الدنيا؟

- يا "نصرة" قولي ماتلاعبينيش.

لم تتمالك الست "نعمات" فرحتها فانطلقت في الحديث قبل أن تنطق "نصرة" بالخبر...

- "نصرة" حبلى يا حاج "علي".. الله أكبر عليك وعليها.

وأطلقت إثر إفشائها الخبر زغرودة طويلة مدوية كسرت الصمت، وأضفت احتفالاً كان قد نسيه الحاج منذ أن أنجب "نظاكة" قبل عشرة أعوام. فنهرتها "نصرة" في خجل وهي تخفي ابتسامة عريضة وحمرة تفاحية قد صبغت وجنتيها.

- ليه كده يامّا؟ كنت عايزة انا اللي أقول له!

وقع الخبر على الحاج "علي" كرؤية هلال العيد...

"أيعقل! هل يمكن أن يكون هذا هو الوعد الجديد؟ أيكتب الله الخلاص لي في (نصرة)، وخلاصها فيّ أنا؟ ... أنا الكهل العجوز، أنا العائد إلى الحياة من الموت، أنا المستعين على ضعف الكهولة بحول الله وقوته".

t.me/qurssan

ثـم بـدأت تتجـلى لـه أسرار الخطـة الجديـدة التـي رسـمها الله لـه، فهـذا هـو السـبب الـذي كان يشـعر بـأن عليـه ألا يـترك "قليـوب" مـن أجلـه، هـذا هـو معنـى رسـالة "إسـماعيل الإمبـابي" لـه بـأن "يمـد جـدره في قليـوب"، هـذا هـو رد الاعتبـار لكرامتـه أمـام أهـل الخرقانيـة الذيـن آذوه حـين علمـوا بـسره مـع السـت "عزيـزة"، مـاذا سـيكون قولهـم الآن في أمـر اللـه النافـذ؟

أنجبـت "نـصرة" اول وعـد اللـه لهـا فتـاة جميلـة تشـبهها، أسـموها "غزالـة"، قـرت بهـا عـين الحـاج، واسـتحالت دنيـاه إلى حال جديـدة مـن الرضـا وهنـاء البـال وطيـب السريـرة، لكـن مـا لم يكـن يخطـر لـه عـلى بـال وسـط هـذا الانجـراف غـير المحسـوب نحـو السـعادة، هـو عـودة عـدوه اللـدود، فهـا هـو ذا مـرة أخـرى يسـدد ضرباتـه إلى أهلـه، هـا هـو ذا يأخـذ منـه ابنتـه "غزالـة"، جـذره الجديـد في "قليـوب"، دون أن يحـرك سـاكنًا.

لمـاذا يأخـذ منـا اللـه الأمـل؟ بـل الأحـرى بالتسـاؤل، لمـاذا يعطينـا اللـه الأمـل مـن البدايـة؟ ألـن تكـون الحيـاة أليـق بـلا أمـل مفقـود؟ أم أن المشـكلة مـن الأصـل في التعلـق؟ ولـو أن الأمـر كذلـك، فلـماذا خلـق اللـه فينـا التعلـق مـن الأسـاس؟ نولـد فنأمـل، نُعطـى فنتعلـق، نُسـلب فنتسـاءل، ثـم نتنـاسى. دائـرة مفرغـة لا مخـرج منهـا إلا بالنسـيان، ووعـد جديـد بتحـدٍ نسـعى لتحقيقـه.

لم يملـك الحـاج في ذلـك الوقـت سـلاحًا آخـر ليتغلـب بـه عـلى غريمـه سـوى أن يفوقـه عـددًا، فالرسـالة التـي حُمِّـل بهـا صـارت واضحـة لـه، يجـب عليـه أن يقـوم بـدوره البسـيط في الخطـة الكـبرى، فحتـى وإن لم يكـن الإعـمار هـو مـلء الأرض بأبنـاء مـن

t.me/qurssan

صلبـه، فعليـه أن يسـتمر في ذلـك عـسى أن يـأتي مـن نسـله م ،
يعـرف معنـى "إعـمار الأرض"، عليـه أن يكمـل معركتـه حـ ،
النهايـة.

وحتـى بعـد عامـين حـين اسـتباح الجفـاف قتـل ابنتـه الثان
التـي أسـماها "غزالـة" هـي الأخـرى إحيـاءً لذكـرى "غزالتـه" الأو
لم يفقـد الحـاج "عـلي" بوصلتـه، فالـصراع بـات جليًـا، يحـزن بـ ا
مـا أوتي قلبـه مـن قـدرة، لكنـه لا يـكل مـن المعركـة القائمـة.

t.me/qurssan

40

على صعيد آخر، كان ابنه "محيي" يمر بظروف أحلك وأشد قسوة من أبيه، فمنذ اللحظة التي قرر فيها أن يتزوج هو ووالده في العام نفسه وقد اقترن مصيراهما معًا على مستوى الخط الزمني وفداحة الأحداث، ففي غضون الأعوام القليلة التالية لزواجه أنجب "محيي" بنتا فأسماها "ابتسام" وما إن أتمت عامها الأول إلا وحصد الجفاف روحها، ثم أنجب ولدًا يدعى "ذكاء" فكتب الله له عمرًا أطول من أخته بحين قصير. أحس "محيي" وزوجته "فردوس" بأن الفرح قد ألف بابهما وكتب لهما نجاة "ذكاء" من نوبات الجفاف الأولى التي أودت بحياة أخته، فقررا المحاولة للمرة الثالثة فرزقهما الله بفتاة أسمياها "ابتسام" هي الأخرى. لكن إن كان الفرح قد ألف بيتهما فدائمًا ما كان المرض هو الأقوى في تخييم شباكه على بيت آل "أبو طويلة"، فما إن أتمت "ابتسام" شهرها الخامس

t.me/qurssan

حتى انتابتها نوبة الجفاف الشهيرة، وأودت بحياتها في واقعة لا تقل وطأة عن سابقتها مع أختها.

أنهكت "فردوس" من فرط الحزن على "ابتسامتيها" وظنت لفترة من الزمان أن أعين الحاسدين هي سبب كل تلك المحن، أو أن كيد الأعمال السحرية لا ينفك ينال منهما، وأنه قد حان الوقت لأن يتركا بيت العائلة، فيكون لها بيتها المستقل عن الحاجة "فاطمة" وسلفتها الست "أم جلال" تستقر فيه وتتفرغ لتربية "ذكاء".

قرر "محيي" أن يبدأ البحث عن بيت جديد خاص به هو و"فردوس" فقط، وشاءت الأقدار أن تعلن حكومة "حسين باشا سري" في الوقت ذاته عن فتح باب الحجز لبيوت جديدة، في مدينة جديدة بنيت شمالاً في "إمبابة" بالقرب من الترسانة البحرية، خصصها الملك "فاروق" للعاملين بالمطابع الأميرية والترسانة البحرية ومصانع الشوربجي وما حولها من باقي المصانع. فاقترح "محيي" على أخيه "فهمي" بأن يتقدم كل منهما لإيجار بيت خاص به في "مدينة العمال" الجديدة، ووافق "فهمي" على الفور وبدأوا في إجراءات الحجز.

توجه "فهمي" و"محيي" في غضون أيام قليلة إلى "هيئة تطوير الحياة المعيشية" التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية لتقديم طلباتهم، فجاء تقرير الاختصاصيين الاجتماعيين التابعين للهيئة بخصوص طلب "فهمي" بأن يتم تخصيص وحدة له من الوحدات ذوات الأربع غرف، مراعاةً لكونه أبًا لأربعة أبناء، إضافة إلى ذكره في مذكرة الطلب الذي قدمه للهيئة أن أمه

t.me/qurssan

امته "نظاكة" تعيشان معه، أما "محيي" فقد حظي بوحدة ان غرفتين فقط لأنه أب لابنه الأوحد "ذكاء".

استتب الأمر، واتضحت خطة الانتقال من "درب الحافري" ال "مدينة العمال"، لكن لم يتبق سوى نقل الخبر إلى الحاجة فاطمة"، فكان أمرًا ليس بهين، فتطوع "فهمي" للقيام به..

بصي يامّا بصراحة كدة حكاية قعدتنا في البيت الكبير مابقتش مريحانا كلنا.

يعني إيه مش مريحاكو؟!

يعني إحنا كبرنا ومشاكلنا كبرت، ومن حق كل واحد يقفل باب بيته عليه ومايخرجش أسراره برة.. زي "رحيم" ما عمل كده.

"رحيم"! "رحيم" ده خايب.. يسيب بيت أبوه ويروح يقعد في شقة قرب السكة الحديد وسيدي إسماعيل والزراعات.. ده اسمه كلام؟

- ده هو ده عين العقل.. قرب السكة آه بس في شقة لوحده، مقفول عليه بابه وسره مش مع حد.. ماينفعش تبقى مشاكلنا مشاع كده في البيت يامّا.

- وأنا بقى المشاع ده.. مش كده؟ وعايزين تحوشوا عني أسرار بيوتكو؟

- لا يامّا مش كده.. إيه اللي انتي بتقوليه ده؟ أنا باتكلم عليا أنا و"محيي" وستاتنا وعيالنا.. مش مرتاحين كده.. إنما انتي على راسي.

t.me/qurssan

- و"محيي" باعتك تقول لي كده؟ ولا ستاتكم هي اللي معصياكو عليا؟!

- عيب يامّا.. من إمتى واحنا ستاتنا بتمشينا؟ أنا عمري ما هاسيبك لوحدك، وانتي عارفة إن "زينب" بتحبك زي أمها

- يعني "محيي" هو اللي عايز يمشي؟

- لأ بردو.. بصي يامّا.. خلاصة الكلام.. أنا و"محيي" حجزنا شقق في "مدينة العمال" وهنستلم كمان ست شهور.

- كمان حجزتو خلاص؟ طب إيه رأيك بقى إن انا مش هاسيب البيت ده.. واللي عايز يمشي يمشي.. أنا الحمد لله مش محتاجة مساعدة من حد.. و"نظاكة" قاعدة معايا تخدمني لحد ما يجي لها عَدَلها.

- وأنا مش هاروح البيت الجديد إلا وانتي معايا.. إنتي و"نظاكة".. مش هنمشي من هنا إلا وانتي راضية تمشي عن طيب خاطر.. حتى لو فضلنا هنا على طول.

لم يكن لرفض الحاجة "فاطمة" ترك البيت الكبير في "تاج الدول" وقع مفاجئ على أبنائها، توقعه "فهمي"، وكان قد اتفق مع "محيي" ألّا يرغماها على أمر لا ترغب في تنفيذه لكن تدابير القدر قضت بأن يكون رحيلهم عن البيت الكبير ضرورة لا بد منها، وليس فقط تلبية لرغبة "محيي" و"فردوس"

ففي العام نفسه جاءهم خطاب من المجلس البلدي مماثل لخطاب الإزالة القديم، يفيد بأن البيت قد صار آيلا للسقوط ولن يجدي فيه التنكيس نفعًا هذه المرة، فعليهم

t.me/qurssan

إملاؤه والبحث عن بيت جديد. فاستسلمت الحاجة للظرف الجديد، وانتقل آل "أبو طويلة" للمرة الأولى منذ ما يربو على المئة عام من زقاقهم العتيق في "درب الحافري" بـ"تاج الدول"، منقسمين إلى منزلين جديدين في "مدينة العمال" يفصلهما شارع واحد بأمتار معدودة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

41

عـاش "محيـي" و"فـردوس" في بيتهـما الجديـد حيـاة هادئـة خاصـة، مختلفـة عـن الحيـاة التـي عهداهـا في "تـاج الـدول"، فـكان الانتقـال إلى "مدينـة العـمال" بمثابـة الترقـي في السـلم الاجتماعـي، شـكرت "فـردوس" الأقـدار لهـذا الترقـي، وكانـت تتـصرف بالمسـتوى اللائـق لذلـك الوضـع الجديـد. كانـت "هيئـة تطويـر الحيـاة المعيشـية" تتدخـل بشـكل كبـير في تشـكيل طبـاع السـكان الجـدد، تتحـرك "فـردوس" وتتعايـش كأنهـا عاشـت حياتهـا كلهـا في الحـضر، عـلى عكـس جاراتهـا مـن الريفيـات ذوات الطبـاع المنافيـة للشـكل العـام للمدينـة، فعكـف اختصاصيـو الهيئـة باسـتمرار ودأب عـلى تعليمهـن بروتوكـولات الحـضر، ومسـاعدتهن في التخلـص مـن عاداتهـن الريفيـة، كجارتهـا الحاجـة "أم نحمـده" التـي كانـت تـصر عـلى تربيـة الدواجـن أمـام المنـزل، والسـت "وفـاء" التـي أضنـت الاختصاصيـين إقناعًـا حتـى تتوقـف عـن التجـول بملابـس النـوم

t.me/qurssan

أمـام بـاب منزلهـا، ونـشر ملابـس زوجهـا الداخليـة عـلى أحـ.. الغسـيل المطلـة عـلى الشـارع لتتباهـى بنصاعتهـا.

حرصـت "فـردوس" أن تعيـش حياتهـا الهادئـة في بيتهـا الخـا.. تخـاف عـلى "ذكاء" بقـدر أكـبر مـن باقـي الأمهـات، وكان "محيـ.. مقـدرًا لقلقهـا الزائـد، فهـو يعلـم مـا عانتـه مـع "ابتسـامتيها.. وبعـد أشـهر مـن انتقالهـما إلى "مدينـة العـمال" شـاع الخـبر .. اختصاصيـي الهيئـة بأنـه قـد آن أوان تلقـي الثلاثـة تطعيـما.. الأولى المجانيـة للأطفـال دون سـن السـنتين، فرفضـت "فـردوس" أ.. يتلقاهـا "ذكاء" خوفًـا عليـه بعـد انتشـار شـائعة العـدوى وتلـ.. المعـدات المنتـشر في المسـتوصفات. فلـم تكـن تـدري آنـذاك أ.. هـذا الخـوف سـيكون هـو سـبب تعاسـتها.

اندمـج "محيـي" هـو الآخـر في الحيـاة الجديـدة، وعـاد ليـمارس.. هوايتـه في كتابـة الزجـل مـرة أخـرى، حـين عرّفـه صديقـه الجديـ.. مـن المطبعـة "عبـد الرحيـم البسـتان"، والـذي كان يهـوى إلقـا.. الزجـل هـو الآخـر، بمجموعـة مـن أصدقائـه الذيـن كانـوا يجلسـو.. يوميًـا عـلى مقهـى "العبـادي" الشـهير بـ"مقهـى المثقفـين"، فأُعجبـوا بزجـل "محيـي" الـذي كان يلقيـه عليهـم عـلى نحـو شـبه يومـي، وطلبـوا منـه في ذات ليلـة مشـاركة أزجالـه للعامـة...

- الجماعـة عاجبهـم زجلـك قـوي يـا "محيـي"، بيقولـوا انـك هتقعَـد "البسـتان" في بيتهـم.

- وهو "البستان" بيعرف يزجل ولا بيفهم في الزجل؟!

ضحك الحاضرون وضحك معهم "البستان"..

t.me/qurssan

اللهـم صـلي عـلى النبـي.. أهـو هـو ده الـلي احنـا عايزينـه.. عايزيــن مبــارزة بينـك وبــين "البســتان" في المجلـة معانـا.

مجلة إيه؟

"البعكوكة" يا "محيي"..

أيوة "البستان" دايمًا بيحكي إنه بيتنشر له فيها قصايد.

"البســتان" إيــه بــس.. مــع احترامــي "للبســتان" يعنــي.. بــس البعكوكـة.. أسـتاذ "عبـد اللـه أحمـد عبـد اللـه".. عارفـه؟

"ميكي ماوس"! أشهر من نار على علم.

طـب احنـا خدنـا إذن أسـتاذ "عبـد اللـه" ووافـق إنـك تنـشر معانـا فيهـا.. بشـكل ثابـت مـاشي.. بشـكل متقطـع مافيـش مشـكلة.. زي مـا تحـب.

- يااااه.. أستاذ "ميكي ماوس" نفسه عجبه زجلي؟

- أيـوة اللـه.. بـس ماينفعـش اسـم "محيـي أبـو طويلـة" ده.. لازم يبقـى لـك لقـب زي عمنـا "البسـتان" كـده

- لقب.. هممم... طب إيه رأيكو في "أبو ذكاء"؟

- الله أكبر.. ده انت جاهز للشغل ما شاء الله.

مـرت أيـام وعـاد "محيــي" إلى البيــت يحمــل في يــده عــدد جريـدة الأخبـار اليومـي الـذي اعتـاد اقتناءه منـذ أن صار مسـتوظفًا بالمطبعـة، ونسـختين مـن عـدد "البعكوكـة" الـذي يحمـل قصيدتـه المنشـورة الأولى، تمـلأه مشـاعر اعتـزاز بالنفـس لم يشـعر بهـا مـن قبـل، عازمًـا عـلى أن يرسـل أحـد العدديـن لأبيـه في "قليـوب"، لكنـه

t.me/qurssan

استيقظ في تلك الليلة مذعورًا فوق كنبة غرفة الضيوف على صراخ مُدَوٍّ صادر من غرفة النوم، نحيب أشبه بعويل لم يسمع مثله قط، صراخ ينذر بقيام الساعة. قام متعثرًا يهرول للّحاق بـ"فردوس"، فلما أدركها كانت تجلس أرضًا على ركبتيها، تربت بيدها اليمنى على يدها اليسرى فوق رأسها، ورأى "ذكاء" ملقاة فوق سريرهم ساكن الجسد، تتدلى يده اليسرى من على حافة السرير بلا حركة، سرت رعدة الألم في قدميه فلم تسعفاه على الوقوف طويلاً، وجثا أرضًا بجانب يده المتدلية يقبلها ويبكي. لم يأبه المرض لمعاناتهم السابقة مع بنتيهما وآثر قتل قرة عينهم "ذكاء" قبل أن يتم عامه الثالث.

تأزمت الحياة بين "فردوس" و"محيي" واستحال زواجهما جحيمًا، يشعر "محيي" بغضب دفين تجاهها لعدم سماحها لـ"ذكاء" بتلقي تطعيماته في موعدها، بينما تجلس هي صامتة لا تحادث أحدًا لأسابيع كاملة، حتى صار شبح الانفصال يخيم عليهما، وصار تدخل الحاجة "فاطمة" أمرًا لا بد منه.

حل ليل اليوم الأربعين على رحيل "ذكاء"، وخرج "محيي" إلى مقهاه للمرة الأولى متجنبًا مجلس "فردوس" الكئيب الذي صار لا يحتمله، عسى أن يجد السلوى بين أصدقائه، فانتهزت الحاجة "فاطمة" الفرصة وانفردت بها لتتحدث معها..

- وبعدهالك يا "فردوس"!

لم ترد "فردوس"، ولم ينقطع شرودها، بل وازداد انهمار دموعها..

- بتخربي بيتك ليه يا بنتي؟

t.me/qurssan

انفجرت "فردوس" في البكاء، وارتمت في أحضان الحاجة..

تعبانة يا عمتي.

حقك يا بنتي.. واحنا نشيلك فوق راسنا.. وهو انا سيبتك من يوم ما حصل اللي حصل؟ بس ساعدي نفسك يا بنتي.. ولا اللي راح بيرجع ولا احنا بنروح له إلا لما ربنا يإذَن.

ونعم بالله!

- عمرنا ما بنفهم الحكمة من موت العيال.. بس أكيد ربك ليه حكمة.. يمكن بيختبرك اختبار شديد شوية.. يمكن عايز يكرمك أكتر من كده بس بيقيس إيمانك.. وكده ولا كده انتي لسه عايشة.. لسه عندك جوزك وأهلك محتاجين لك.. أول ما تبطلي تعيشي تبقي سقطتي في الامتحان.. لازم تحاولي تاني يا بنتي.. لازم تكلمي جوزك.. "محيي" محتاج لك جنبه وانتي محتاجة له.

هدأت وطأة الأزمة، وعادت الأمور شبيهة بما كانت عليه، فالوقت يقوم بصنيعته الأبدية، يُنسِي. وبعد مرور عامين كاملين أنجب "محيي" و"فردوس" ابنهما الأكبر "كامل"، وبدا لهما أن الموت قد حل قبضته عنهما بعد ما رآه فيهما من عزم على الصمود أمامه، وعلى الرغم من أن ذلك قد أفضى إلى رد فعل طبيعي منها بالخوف المفرط على صحة "كامل" طوال الوقت، فإن "محيي" استطاع بطريقته ومسايسته لها أن يعطيه ما يلزمه من تطعيمات، فكان "كامل" بمثابة قبلة

t.me/qurssan

حياة لاستعادة قوام العائلة مرة أخرى، وانتصار هامّ أعطاهم
بصيص أمل لمواصلة المعركة.

ما كان عزوف المرض عن إحكام قبضته على مولود العائلة الجديد سوى إرجاء لضربة قاصمة غير متوقعة. مرت العائلة بفرعيها، "إمبابة" و"قليوب"، بعامين هادئين بعد أن رزق الله "محيي" بمولوده الأول "كامل" في "إمبابة"، وخسر أبوه الحاج "علي" مولودته الثانية "غزالة" في "قليوب".

حل العام الثالث بعد الهدوء، واستيقظت العائلة في أول أيامه على الخبر الأسوأ منذ سنين، أصيب "فهمي" بالسل المرض عتيد، ولا شفاء منه، حينها آثر "محيي" ألا يخبره بشأن مرضه، وتعهد على الطبيب وعلى كل أفراد البيت أن يظل أمر مرض "فهمي" سرًّا على "فهمي" نفسه، وألا يأتي على ذكره أحد، على أن يحافظوا على سلامته ولا يسمحوا له بالقيام بأي مجهود قد يضر بصحته.

كان الأمر صعبًا. عام كامل مر على تشخيص الطبيب له، تسعى العائلة كلها إلى إقناعه بالتزام الراحة والابتعاد عن أنواع الأطعمة التي حرّمها الطبيب، بينما مهمة الست "أم جلال" كانت هي الأصعب، فقد أمرها الطبيب أن تتجنب معاشرته خوفًا عليه من التفاقم، ما أوغر صدره وأشعره بضيق شديد من أعذارها الواهية للتهرب منه. فكانت تثور ثورته بمجرد أن يستشعر ضعفًا في جسده، أو نصيحة مجحفة من الطبيب بشأن عادات أكله أو راحته، فيغضب ويصيح في وجهه ويتهمه بالجهل مصرًّا على أنه ما زال في كامل قوته.

t.me/qurssan

تدهـورت صحتـه وأحكـم السـل قبضتـه عليـه، وهـو لا يعلـم ـقيقـة علتـه، لا يـدري مـا قـد أصابـه، لمـاذا يفقـد قوتـه التـي ـال يعتـد بهـا ليـلاً نهـارًا أمـام النـاس، فيـزداد حنقـه عـلى كل مـن ـطلـب منـه ألا يبـذل مجهـودًا، أو أن ينـال قسـطًا أكـبر مـن الراحـة. لم يغلـق هـذا العـام بابـه إلا وقـد مـات "فهمـي"، رحـل غاضبًـا متسـائلاً، حزينًـا عـلى أيـام فتوتـه التـي سُرقـت منـه، رحـل عائـل العائلـة الأول وأبوهـا الحقيقـي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

42

وقـع الخـبر عـلى الحـاج في "قليـوب" كحمـل جبـل، أتـاه هـذه المـرة مـن حيـث لا يحتسـب. مـات ابنـه الأبكـر قبـل أن يـرى عامـه الخمسـين. فعـاد إلى "إمبابـة" عـلى قطـار المحطـة الأول، وحيـدًا هـذه المـرة، لا يعلـم مغـزى عودتـه أو ذهابـه، فـتراوده الأفـكار وهـو عـلى مـتن القطـار...

"أعـود إليهـا للمـرة الــ...، لا أدري كـم مـرة عـدت، كـم قطارًا ركبـت، كـم مـرة ادعيـت الفهـم فذهبـت ثـم رجعـت.. أهـذا هـو الاختبـار؟ أكانـت هنـاك معركـة مـن الأسـاس أم أن انعـدام فـرص الانتصـار حسـمت المعركـة فصـارت بـلا أهميـة؟ يمـوت (فهمـي) وأعيـش أنـا لأنعـاه، أنـا الـذي جـاوزت الثمانـين، أنـا الـذي لا طائـل مـن بقـائي، مـا هـي جـدوى وجـودي إلى الآن؟ مـاذا فعلـت لأشـهد رحيـل كل مـن واريـت مـن أبنـاء تحـت الـتراب؟ لا أكاد أفهـم أحيانًـا

t.me/qurssan

جـدوى الأشـياء. لكنـي أبـذل مـا بوسـعي، وأتفهـم أن الإنسـان لم يكـن مقـدرًا لفهـم كل الأسـباب، فأعِنّـي اللهـم عـلى الثبـات، ولا تبالـغ في اختبـاري، واقبـل اللهـم (فهمـي) في جنبـات رحمتـك".

أمـا "محيـي" لم يكـن تأثـره بمـوت "فهمـي" هينًـا، ولكنـه كان مرجـأً إلى حـين آخـر، فهمّـه الأكـبر كان حـال زوجـة أخيـه "زينـب" وأبنائهـا، وأمـه التـي لم تنبـس ببنـت شـفة منـذ أن علمـت بالخبر، والإعـداد لإجـراءات العـزاء، فطلـب مـن "رحيـم" أن يذهـب إلى مسجد "سـيدي إسـماعيل" ليعلـن الإمـام عـن صـلاة الجنـازة بعد صـلاة الظهـر، وأعطـى لـ"إبراهيـم" مـا يكفـي مـن أمـوال للاتفاق مـع الفراشـة لينصبـوا صـوان العـزاء، فحـين وصـل الحـاج "عـلي" إلى "إمبابـة" فوجـئ بـأن "محيـي" كان قـد قـام بالـلازم.

بـل إنـه لم يكتـف بذلـك، ففـي صبيحـة اليـوم الرابـع للعـزاء ذهـب إلى منـزل "فهمـي" ليتحـدث إلى "زينـب" وابنهـا الأكبر "جـلال"..

- البقية في حياتك يا "أم جلال".

- حياتك الباقية يا "أبو كامل".

- أنا عايزك في كلمتين.. وعايز "جلال" يسمع الكلام.

أشار "محيي" إلى "جلال" ليجلس بجانبه، فجلس..

- "فهمـي" ماماتـش يـا "أم جـلال".. كل حاجـة في البيـت هنـا هتمـشي زي مـا كانـت.. وأي حاجـة هيحتاجهـا "جـلال" وإخواته ملزمـة منـي أنـا و"رحيـم".. إذا كان مـصروف بيـت ولـلا تعليـم

t.me/qurssan

ولـلا غـيره.. وانتـي كـمان أي حاجـة تحتاجيهـا اطلبيهـا عـلى طـول.

- ربنا يزيدك يا "محيي" بس احنا الحمد لله مستورة.

- الحمدلله على كل حال.. بس فهميني هتصرفي منين؟

- "فهمـي" كان شـاري حتـة أرض قـرب "سـيدي إسـماعيل" هبيعها وأحـط فلوسـها عـلى فلـوس المكافـأة بتاعـت المطبعـة ونعيش.

- أنـا عـارف حكايـة الأرض دي، بـس وبعديـن؟ هتعمـلي إيـه لمـا الفلـوس تخلـص؟

- ربنا يتولانا.. يمكن أروح عند أهل أبويا في السنبلاوين.

- إيـه الـكلام ده؟ ولاد "فهمـي أبـو طويلـة" يتربـوا بعيـد عـن أهلهـم ليـه؟ مالهمـش أصـل ولـلا إيـه؟

- مش القصد والله.. ما عاش ولا كان اللي يقول كده.

- طـب اسـمعي يـا "أم جـلال" آخـر كلام.. البيـت ده المطبعـة هتسـترجعه عشـان صاحـب الشـأن مابقـاش موجـود.

انتفضت "زينب" من مجلسها...

- يعنـي إيـه؟ نقعـد في الشـارع! ده حـرام واللـه.. هـو مـش "فهمـي" كان عامـل عندهـم وبيخدمهـم فـوق التلاتـين سـنة؟ يعنـي قالـوا إنـه عامـل ومالهـوش معـاش زي الموظفـين وقولنـا قدرنـا وهنسـتحمل.. لكـن كـمان يطـردوا عيالـه مـن البيـت؟

- واللـه يـا "أم جـلال" هـي اللايحـة كـده.. وأنـا والعـمال بنهـاتي بقـى لنـا سـنين وبنعمـل وقفـات ونكلـم الإدارة عشـان يعدلوهـا

t.me/qurssan

ويدرجـوا العـمال في قامـة المعاشـات زي الموظفـين.. وكـ ما
عشـان أهـل المتـوفي يقـدروا يسـتفيدوا مـن معاشـه ومـ ا
إقامتـه.. بيقولـوا مـن بعـد الثـورة وعبـد النـاصر بيعـدل لوا م
وقوانـين كتـير في صالـح العـمال.. خلينـا نشـوف حقيقـي ولا
كلام بـس.

- طب ولحد ما اللايحة تتعدل هنعمل إيه؟

- مـا هـو ده الـلي أنـا جـاي لـك علشـانه.. هـم كـده ولا كـ
لسـه قدامهـم وقـت عقبـال مـا ياخـدوا خطـوة اسـترجاع البـ
ده.. انتـي هتاخـدي المكافـأة مـن المطبعـة و"رحيـم" اتفـ
معايـا إنـه مسـؤول يبنـي لـك بيهـا بيـت عـلى حتـة الأرض الـلي
عنـد "سـيدي إسـماعيل" تقعـدوا فيـه..

وزي مـا قلـت لـك، مصاريفكـم وكل حاجـة تحتاجوهـا ملزمـ
منـي أنـا و"رحيـم".. وأهـو الـلي جـاي يتقسـم بيننـا.. ورزقـي
ورزقـك عـلى اللـه.

- ربنا يخليكو لينا.. ده كده حمل فوق الحمل!

- ماتقوليـش كـده يـا "زينـب"، إحنـا أهـل.. بـس ادّي خـبر
للحاجـة إني عايزهـا في كلمـة.

لم تكـن الحاجـة "فاطمـة" قـد أبـدت تأثرهـا منـذ أن واتاهـا الخـبر، لم تتحـدث لأحـد ولم تتجـاوب مـع أحـد، حتـى إن أحـدًا لم يرهـا تبـكي. دخـل "محيـي" غرفتهـا فوجدهـا تجلـس عـلى كنبتهـا وبـين يديهـا مصحـف كبـير تميـل عليـه تقـرأ فيـه بصعوبـة، فجلـس بجانبهـا ومـال عليهـا وقـال بصـوت خافـت...

t.me/qurssan

قومـي يامّـا صـلي عـلى النبـي كـده.. مـا دايـم إلا وجـه اللـه... جهــزي نفســك عشــان تيجــي معايــا انتــي و"نظاكــة".. أنــا و"فــردوس" هنشـيلكم فـوق دماغنـا.. بيتـي مفتـوح لكـم وأولى بيكــم.

فنظـرت إليـه طويـلاً وأجهشـت بالبـكاء، ثـم قامـت في صمـت وبـدأت في تحضـير حاجياتهـا لتذهـب معـه.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثامن

جدّي

t.me/qurssan

t.me/qurssan

43

بـدأت بـذور مراعـاة العائلـة التـي غرسـها فيـه أبـوه، وحسـن التدبـير الـذي ورثـه عـن أمـه تـؤتي أُكُلهـا، فتعهـد "محيـي" بالفعـل بـكل مـا يلـزم بيـت السـت "أم جـلال" مـن نفقـات، متكفـلاً بـكل مسـتلزمات حياتهـم ودراسـتهم وكسـوتهم. لكـن لم تخـف عليـه تلـك الغـيرة التـي انتابـت "فـردوس" حـين أخبرهـا بالأمـر، فقـرر منذ ذلـك الوقـت ألا يـشرك "فـردوس" في تفاصيـل تلـك الخطـوة حتـى لا يثـير لديهـا أيـة ضغائـن قـد تنشـب تجـاه سِـلفتها السـت "أم جـلال".

انقـضى الشـهر الأول عـلى وفـاة "فهمـي"، وتحصـل "محيـي" على راتبـه الشـهري فتوجـه بـه مبـاشرة إلى الجمعيـة الاسـتهلاكية لـصرف تمويـن الشـهر، وابتيـاع مـا تبقـى مـن احتياجـات بيتـه وبيـت أخيـه "فهمـي". وفي طريـق العـودة آثـر أن يمـر ببيـت السـت "أم جـلال" أولاً ليعطيهـا نصـف مـا اشـترى، كي لا يـترك أي بـاب تتسـلل منـه

t.me/qurssan

الغيرة إلى قلب "فردوس" حين ترى نصف ما عاد به زوجها يذهب إلى بيت الست "أم جلال". فحين وصل "محيي" إلى بيتها وقرع الباب، فتح له "جلال"..

- شيل مني يا "جلال".. وروح نادي لأمك وهات سكينة معاك وانت جاي.

حمل "جلال" ما تمكن من حمله واتجه به إلى المطبخ، إلا بطيختين كبيرتين لم يتركهما له "محيي"، بل حملهما وفتح باب غرفة الجلوس بمفرده ودخل، ثم جلس ووضع ما معه من بطيخ على المنضدة التي تتوسط الغرفة، في انتظار عودة "جلال" بالسكين وحضور الست "أم جلال". عاد "جلال" بعد ثوانٍ وفي يده سكين كبير، فتناول "محيي" السكين وبدأ في شق البطيختين إلى أنصاف، و"جلال" يشاهده في صمت، يملأ عينيه فضول كبير عن سبب شقة البطيخ في ذلك الوقت، وإن كانت بالفعل إحدى البطيختين لهم كما يدعي، فلماذا يفتحها هو؟ هل سيأكل معهم؟ ولماذا إذًا يفتح الأخرى؟

دخلت الست "أم جلال" عليهما، فوقفت بالباب وألقت السلام متعجبة..

- سلام عليكم يا "محيي".. بتعمل إيه يا أخويا؟

- إزيك يا "أم جلال".. أنا جبت التموين وشوية طلبات كده زي ما جبت لـ"أم كامل" بالظبط.. وأنا معدي قلت أجيب بطيخ كده حلاوة أول الشهر.. إنتو واحدة واحنا واحدة.. بس خفت تطلع واحدة ماسخة فقلت نقسم كل واحدة

t.me/qurssan

نصين، وكل بيت ياخد نص من دي ونص من دي.. عشان نبقى وزعنا المساخة بيننا..

بس اللهم صلي على النبي الاتنين طلعوا زي العسل.. ربنا يجعل أيامنا كلها زي العسل.

ضحك "جلال" من مظهر عمه "محيي" وهو يتذوق البطيخ، وابتسمت الست "أم جلال" ثم أكملت الحديث ولكن ،لمغت عليها شدتها المعهودة مرة أخرى..

- ربنا يكرمك ويقدرك على اللي انت فيه.. تاعب نفسك بزيادة قوي والله!

- لا تعب ولا حاجة.. وهو أنا آجي إيه في كرم ولا خير "فهمي" -الله يرحمه- علينا كلنا.. ده هو اللي مربيني أنا واخواتي..

- الله يرحمه ويقدرك ويديك الصحة...

صمتت الست "أم جلال" لبرهة، وبدت عليها ذكرى زوجها التي جالت بخاطرها، فبدأت تحرك شفتيها كأنها تقرأ له الفاتحة، ثم تابعت حديثها لـ"محيي"..

- بالمناسبة.. أنا رحت أنا و"جلال" والولاد المجلس الحسبي وخلصنا ورق الوصاية.. ولسه امبارح مخلصة ورق المكافأة بتاع المطبعة كمان.. ولو صدقوا في كلامهم يبقى هاروح استلم المبلغ على آخر الشهر.. ولما سألت على استرجاع البيت ده قالوا لي إنه هيحصل بس المصلحة بتستنى لما نوضب أمورنا..

t.me/qurssan

- طيب خير ما عملتي.. يبقى انا هاسيب خبر لـ"رحيم" إنه يجهز نفسه يبدأ شغل في البيت الجديد من أول الشهر لو الفلوس وصلت.

- بس هو "رحيم" هيلاقي وقت منين يبني البيت؟

- وقت إيه يا "أم جلال"؟ ماتشيليش هم انتي.. "رحيم" هيشتغل في البيت أول ما الفلوس تحضر.. هو بيعرف يتصرف، وسواعي بيشتغل بإيده كمان.

- ربنا يدي له الصحة ويتم الأيام دي على خير.

t.me/qurssan

44

وازدادت دلالات اقـتران مصـير "محيــي" بأبيــه عــلى مــدار السـنوات التاليـة لمـوت "فهمـي"، خـسر الحـاج "عـلي" عـدة جولات متتاليـة مـن صراعاتـه أمـام غريمـه العتيـد، المـوت، والتـي انتهـت برحيـل بِكريّـه "فهمـي"، ثـم كتـب لـه القـدر فصلاً جديـدًا مـن قصتـه، فـما إن أتـم عامـه الرابـع والثمانـين حتـى رزقـه اللـه بـأول جـذر امتـد لـه في "قليـوب"، حـين أنجبـت "نـصرة" ثالـث بناتهـا، لكنهـا آثـرت ألا تسـميها "غزالـة" خوفًـا مـن أن يلحـق بهـا مصـير أختيهـا الراحلتـين، فأسـمتها "وديـدة".

أصبحـت "وديـدة" بمثابـة أيقونـة النـصر للحـاج منـذ ذلـك الحـين، فـكان ميلادهـا في يـوم العيـد الثـاني للثـورة، واعتـبر الحـاج جـلاء الاحتـلال، وتزامـن ميـلاد "وديـدة" مـع عيـد الثـورة، بمثابـة إقـرار بانتصـار يحسـب لـه عـلى غريمـه حتـى ولـو كان في هـذه الجولـة فقـط. أحــس للمــرة الأولى بامتــداده الحقيقــي في هــذه

t.me/qurssan

البقعـة الجديـدة مـن أرضـه، شـعر باتسـاع مسـاحته المعم .،
وازديـاد رجاحـة امتـداد ذكـره لزمـن أطـول.

أمـا عـلى الجانـب الآخـر من النهـر وفي العام نفسـه الـذي أنج،
فيـه الحـاج "عـلي" ابنتـه الأولى "وديـدة" من زوجتـه الثالثـة، الفاة
"نـصرة"، أنجـب ابنـه "محيـي" أولى بناتـه، "سـمرا". كان "محيـي
قـد عـاني طيلـة عامـين مـن خـوف "فـردوس" المفـرط عـلى ولـد
الأكـبر "كامـل"، فلـم يكـن باسـتطاعته الاسـتمتاع بأبوتـه عـلى الوجـ
الأكمـل لهـا. كانـت ترفـض خروجـه معـه منفـردًا متحججـة تـار
بالـبرد وأخـرى بالحسـد، ولكـن تغـير ذلـك الوضـع تمامًـا حـين أنجبـ
"سـمرا"، فللمـرة الأولى منـذ أمـد بعيـد عـثر "محيـي" عـلى النافـذ
التـي اسـتطاع أن يطلـق منهـا العنـان لـكل مشـاعر أبوتـه المكبوتـة،
فكانـت "سـمرا" لـه بمثابـة ابنتـه وحبيبتـه ورفيقـة أوقاتـه، أو كـما
كانـت تطلـق عليهـا "فـردوس" حـين تغضـب منهـا "بنـت أبوهـا".

انتعشـت حيـاة "محيـي" الأدبيـة، وكـثرت أزجالـه المنشـورة. ذاع
صيـت ذلـك الزجـال النابغـة "أبـو ذكاء" القـادم مـن "إمبابـة" بـين
أوسـاط الشـعراء والكتـاب السـاخرين، واشـتهرت مبارزاته الشـعرية
مـع صديقـه الـذي يصغـره بأعـوام، "عبـد الرحيـم البسـتان". صـار
حضـور "محيـي" في جلسـات كتـاب وشـعراء "البعكوكـة" عـلى
مقهـى "العبـادي" ضرورة لا بـد منهـا حتـى يكتمـل أنـس المجلـس،
يحبونـه ويسـتمتعون بمجلسـه وخفـة ظلـه التـي لا يضاهيهـا أحـد،
ولا حتـى "البسـتان".

خيـم الليـل واجتمـع الجمـع كعادتهـم اليوميـة في المقهـى، وكان
قـد انضـم إليهـم منـذ أيـام قليلـة صديـق "محيـي" القديـم، وجـاره

t.me/qurssan

..ـذ أن كان يسكن "درب الحافري"، "ملاك" أفندي الساعاتي، والذي كان يهوى الشعر ويستسيغه دون أن يعلم كيف ينظمه أو يلقيه. دعاه "محيي" لحضور مجلسهم فأعجبه الجمع ووجد ضالته في إشباع شغفه وتعطشه للشعر، كان "ملاك" أفندي يجلس على أطراف دائرة الجالسين بطربوشه ومِنَشّته ونظارته السميكة، لا يشرب أي نوع من الدخان، لكنه كان يطلب أكوابًا تلو أكوابٍ من الحلبة المخلوطة بالحليب، يستمع إلى حديثهم ونقاشاتهم دون أن يشترك فيها إلا بالنزر اليسير.

كان اليوم هو الخميس الأول من الشهر، فكان الحضور طاغيًا وكان المقهى ممتلئًا عن آخره. علا صوت الراديو في تمام العاشرة معلنًا بدء حفل "أم كلثوم" الشهري، فخيم الصمت على أركان المقهى وبدأ تصفيق الجمهور الصادر من الراديو يختلط بتصفيق أهل المقهى، إلا "ملاك" أفندي، لم يكن يصفق معهم، بل وبدت عليه علامات التجهم وعدم الارتياح، وبدأ يتأفف وينظر إلى الجالسين في ضيق، كأنه يبحث عن عذر ليترك به المقهى ويرحل.

صاح معلق الحفل عبر الراديو...

"أيها السادة. من مسرح حديقة الأزبكية.. تقدم الإذاعة المصرية.. الحفلة الشهرية الكبرى لكوكب الشرق.. السيدة (أم كلثوم).. سوف تغني في وصلتها الأولى تلك الأغنية العاطفية الجديدة

(يا ظالمني)

الأغنية من كلمات الشاعر (أحمد رامي) ومن تلحين الموسيقار (رياض السنباطي)

t.me/qurssan

امتلأ الآن مسرح حديقة الأزبكية بعشاق فن أم كلثوم، وبقيت ثوان.. يرتفع بعدها الستار عن كوكب الشرق السيدة أم كلثوم تغني أغنية

(يا ظالمني يا هاجرني وقلبي من رضاك محروم...)

أيها السادة.. كوكب الشرق (أم كلثوم)"

دقت الدقة الثالثة على المسرح ورفع الستار وبدأت الموسيقى تنبعث من جنبات المقهى في صمت مطبق من المستمعين، فنظر "البستان" إلى "ملاك" أفندي وهو يتعرق ويبدو عليه غضب عارم وعدم انسجام واضح على عكس الأجواء العامة للمجلس، فسأله في قلق..

- مالك يا "ملاك" أفندي.. مش قاعد على بعضك ليه؟

- لا ولا حاجة.. بس أصلي كان ورايا مشوار مهم وسهي عليا أستأذنكم لازم أمشي.

- تمشي فين بس! هو فيه مشاوير وقت وصلة الست؟

هم "ملاك" أفندي من على كرسيه وصاح، وهو يخرج ثمن كوب الحلبة من جيب بزته ويتركه تحت الكوب على طقطوقة المقهى..

- لا ما انا سمعتها قبل كده.

- دي أغنية جديدة.. سمعتها فين..!

كان "ملاك" أفندي قد غادر المقهى غاضبًا بخطوات كبيرة مسرعة قبل أن يكمل "البستان" سؤاله، فحوّل نظره في اتجاه

t.me/qurssan

"محيـي" متعجبًا مـن ردة فعـل "مـلاك" أفنـدي، فابتسـم "محيـي" وأمسـك بيـد "البسـتان" وطمأنـه في هـدوء..

- اقعد بس وانا هاحكي لك في الاستراحة.

انتهـت الوصلـة الأولى مـن الحفـل وعـاد الهـرج للمقهـى، فالتفـت "محيـي" وعـدّل وضـع كرسـيه ليواجـه الجالسـين، ثـم بـدأ بحـكي لهـم...

- "مـلاك" أفنـدي ده يـا سـيدي سـاعاتي قديـم وقـراري.. دكانـه في وسـط البلـد.. بيجيـب سـاعات سـويسري مـن بـرة ويبيعهـا هنـا بالقسـط.. مـين بقـى يـا سـيدي الـلي كانـت زبونـة عنـده قبـل مـا تشـتهر.. وقبـل أيـام العـز.. وقبـل مـا تـروح تسـكن الزمالـك والهلُمـة دي كلهـا.. "أم كلثـوم"...

- يا راجل قول كلام غير ده!

- اسمع بس اللي أنقح..

- هو لسه فيه أنقح؟!

- "أم كلثـوم" يا سـيدي اشـترت منه سـاعة سـويسري فيهـا فصوص ألمـاظ بالقسـط عشـان تـروح بيهـا الحفـلات والـذي منـه.. مـن ييجـي عشريـن سـنة.. وقعـدت طـول الوقـت منتظمـة في دفـع القسـط لحـد مـا ربنـا أراد وبقـت "السـت أم كلثـوم".. ونقلـت الزمالـك بقـى.. ومـن سـاعتها القسـط انقطـع.. ولا حـس ولا خـبر..

أنـا قلـت لـه يـا "مـلاك" أفنـدي تلاقيهـا بـس سـهي عليهـا، وبعديـن يعنـي هـو القسـط ده قـد إيـه؟ يهـون يـا سـيدي في

t.me/qurssan

حـب الســت.. قـام قايـل لي إنـه مـش عايـز فلـوس ولا حاجـة وإنــه عايـــز بـــس يشـــوفها ويفكرهـــا بنفســـه ويوصـــل الـو القديــم.. يكلمهـا يقـول لهـا إنـه متيـم بحبهـا.. وكفايـة بـس إنهـم معرفـة قديمـة..

ولاد الحـلال دلّـوه عـلى مـكان بيتهـا في الزمالـك.. قـام لابـس الـلي عـلى الحبـل.. وراشـش الريحـة الأفرنجـي ورايـح عـلى البيـت ورن الجـرس.. فتحـوا لـه البـاب.. سـألوه انـت مـين ماعرفـش يـرد.. ولقـى نفسـه بيقـول لهـم إنـه السـاعاتي بتـاع السـت ومعرفـة قديمـة واسـمه "مـلاك" أفنـدي.. بأمـارة السـاعة الـلي هــي كانــت شـارياها منــه...

الأفكـه بقـى إن يبـدو إن السـت افتكرتـه.. وفكرتـه جـاي يحصـل باقـي فلـوس السـاعة.. فأمرتهـم يدخلـوه.. ولمـا دخـل يا عينـي خدتـه عـلى مشـمُه.. لقاهـا قاعـدة عـلى كـرسي صالـون فخـم.. وفـاردة رجليهـا الاتنـين عـلى بُـف صغـير قدامهـا.. وأول مـا شـافته هبـت فيـه وكلمتـه مـن طـرف مناخيرهـا.. قالـت لـه.. "سـاعة إيـه وقسـط إيـه الـلي انـت جـاي تحصّلـه.. بـكام يعنـي السـاعة دي؟"... وقامـت ندهـت عـلى الشـغالة قالـت لهـا.. "إدي للأفنـدي الفلـوس الـلي عايزهـا مـن الشـكمجية".. وسـابته واقـف مبلـول يـا عينـي ومشـيت مـن قبـل مـا يقـول لهـا حتـى إنـه مـش جـاي عشـان الفلـوس..

بـس يـا سـيدي.. خـرج مـن عندهـا يوميهـا.. وحلـف مـن سـاعتها لا يسـمعها ولا يقعـد في قعـدة تيجـي فيهـا سـيرتها بعـد مـا كان بيـدوب في صوتهـا دوب.. آدي لنـا عـلى كـده أكتر

t.me/qurssan

مـن خمسـتاشر سـنة.. حاولـت كتـير أفهّمـه إنهـا ممكـن تكـون كانـت مفكّـراه جـاي يحصـل الفلـوس.. أو كانـت متعصبـة أو حاجـة.. بـس خـلاص بقـى تقـول لمـين.. الفـاس كانـت وقعـت في الـراس.. والسـت "أم كلثـوم" بجلالـة قدرهـا مسـحت بكرامـة الـلي خلفـوه الأرض..

فصاح "البستان" من بين الجالسين...

- طب وخد الفلوس؟

- أمال سابهم؟ معلوم خدهم.. مش باقول لك ساعاتي قراري!

قهقـه الحـاضرون ومعهـم "البسـتان" الـذي كانـت تعلـو وجهـه علامـات التعجـب، لكنـه مـال عـلى "محيـي" وسـط صخـب المقهـى وقـال لـه..

- أنا عايزك في أمر مهم بعد الوصلة التانية..

- وهـو كذلـك.. نـروّح سـوا بأمـر اللـه ونتكلـم في أي أمـر تحبـه واحنـا بنتمـشى.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

45

انتهـت الوصلـة الثانيـة وعـاد كل حـالم إلى دنيـاه، وانفـض مجلـس "البعكوكـة"، فتأبـط "محيـي" ذراع "البسـتان"، وانطلقـا في طريـق المنـزل...

ـ أنا عندي طلب وأتمنى يلاقي قبول منك.. بس انا محرج.

ـ "البستان" بجلالة قدره محرج!

ـ بالله عليك ما تسخر مني.. الأمر جاد وهام.

ـ يا ساتر يا رب.. اطلب يا سيدي.

أخـرج "البسـتان" ورقـة مـن جيـب بدلتـه وأعطاهـا لـ"محيـي"، فتناولهـا منـه وفتحهـا، ثـم بـدأ يقرأهـا، ولمـا فـرغ مـن القـراءة، توقـف عـن المـشي والتفـت لـه..

ـ ومين بقى سعيدة الحظ؟

t.me/qurssan

- الآنسة "نظاكة".

- الأنسة "نظاكة" أختي؟

- أبقى أسعد واحد في الدنيا لو شرفتني ووافقت يا "أبو فهمي".

- "أبـو فهمـي"!.. ليـه مـش "أبـو ذكاء" زي العـادة؟ ولـلا عشـان بنتكلـم في أمـر جـد؟!

- بردو بتقلب الأمور لسخرية!

- خـلاص مـن غـير سـخرية.. بـص يـا سـيدي.. أنـا بشـكل مبـدئي ماعنديـش مانـع.. بـس لازم آخـد رأيهـا ورأي أبوهـا.. ولـلا انـت شـايف إيـه؟!

- يااا سلام.. أيوة طبعًا طبعًا.. أنا ممتن جدًا والله.

صمت "محيي" قليلاً، وأخذ يحك جانب رأسه وهو يفكر، ثم قال..

- خـلاص يـا سـيدي.. رد "نظاكـة" يوصلـك بنفـس طريقـة الطلب.. لمـا صاحبـة الشـأن تـرد هيوصلـك منـي ردهـا في قصيـدة بـردو.. لحـد مـا أشـوف رأي والـدي إيـه.. ولـو اني مـا اظنـش إنـه هيمانـع..

وبالفعـل أخـذ "محيـي" القصيـدة إلى "نظاكـة" التـي قرأتهـا وتمعنـت فيهـا، ثـم عـادت لتسـأل "محيـي" كي تتأكـد مـن جديـة الأمـر..

- هـي القصيـدة الـلي انـت إديتهـا لي دي يـا "محيـي" مـن "عبـد الرحيـم البسـتان"؟

- أيوة.

t.me/qurssan

- والمكتوب فيها ده ليّا أنا؟

- وهو إيه اللي مكتوب فيها؟

- كلام كده.

- كلام إيه.. قريتيه كله؟

- لا مش كله.

- طب اقريه وقولي لي رأيك.

- لا مايصحش.. أمي تسمع تدبحني.

- يا بت أنا أخوكي الكبير.. وأنا اللي باقول لك اقريها.. أنا كده كده هاقول لأمك وأبوكي بس عايز أعرف رأيك.

فبدأت "نظاكة" في القراءة بصوت منخفض، وحين فرغت منها نظرت إلى "محيي" وقد احمرت وجنتاها، فسألها "محيي" مبتسمًا..

- قلتي إيه؟

- وشي من اخويا في الأرض.

- يبقى على خيرة الله.. هبلغ أمك وأبوكي وربنا يقدم اللي فيه الخير. بس أحب اقول لك إن عبد الرحيم اسكندراني.. وهتروحي تقعدي معاه ومع أمه في نفس البيت.. ها؟

- إيه ده.. لا بلغه إني َماقعدش غير في بيت لوحدي.

- وعندك شروط تانية يا ست "نظاكة"؟

- لا مافيش خالص.

t.me/qurssan

أبلـغ "محيـي" أمـه بطلـب "البســتان"، وأرسـل لأبيـه ليخـ ، بالأمـر، ثـم عـاد "للبسـتان" بعـد عـدة ليـالٍ بقصيـدة الـرد..

زجل عن لسان "نظاكة" إلى "البستان"...

اسـمع كلامـي يـا بسـتان بيـه	يابـو ريحـة حلـوة وذكيـه
جـاوب خطيبتـك يـا بـن الإيـه	واوعى تقــــول دي غجريه

أخويـا جـاني في يـوم فرحـان	وقـال لي هيـصي يـا نظاكـه
جالـك عريـس حاجـة جنتلمان	حليـــــوة خالـص وشياكه

شـكله جميـل يسـحر فتـان	والاســـم ده منعـم أفنـدي
ومسـمي نفســـه بالبسـتان	وآدي كارت أهـو مـن عنـدي

أدب وذوق رقـة وكـمال	كل الخصـــــايل في عريسك
غـاوي كـمان فـن الأزجـال	في وحدتـك هــــو ونيسـك

قـولي لي رأيـك إيـه يـا أختـي	وافقـي ماتقفيـش في السـكة
هابعــت لـه حـالاً دلوقتـي	يجيني ومعاه الشــــبكة

فقلــت قبـل مـا تبعـت لـه	فيـه شرط والـشرط يهمـه
يـا سي محيي ابعت لـه وقل له	ماقعــدش أبـدًا مـع أمـه

t.me/qurssan

قال لي اخرسي أبعت له ازاي — على حاجة هتزعل خاطره
اشرت دغري وقلت يا باي — طب سيبني وانا راح أبعت له

وآدي خطيبتك فهمها — وقل لها بقى على رأيك
والكلمة تاني راح اعيدها — ماقعدش أبدًا مع أمك

ازدادت حماسة "البستان" بعد أن قرأ القصيدة وعلم بموافقتها، فقرر أن يستعطفها للمرة الأخيرة بقصيدة أخرى..

زجل من "البستان" يرويه على "نظاكة"...

أبلة نظاكة يا محروسة — يا ألف أهلاً بخطيبتي
يا زينة الكون يا عروسة — يا ألف مرحب شرفتي

صحيح أنا كلمت البيه — محيي العزيز مرة في ليلة
وطلبت يدك مني إليه — في قعدة حلوة وجميلة

واليوم جاني منك ألحان — وفيها وافقتي عليا
ورحبتي طبعًا بالبستان — ورفضتي أمه يا غنية

والشرط منك شرط ظريف — قاسي ولكن معلهشي
قلبت لاجل الأخ طريف — وقلبي حبه مايرجعشي

لا اقعد مع أمك ولا أمي — ونكونوا في ڤيلا وحيدة

t.me/qurssan

ننتهـي فيهـا أنـا وإنتـي وفي الختام ليلـة ســـــعيده

لكـن توقـف مرسـال القصائـد عنـد هـذا الحـد، حـين قـرر الحاجـة "فاطمـة"، وبشـكل نهـائي، أن ترفـض طلـب "البسـتان" لتوافـق عـلى طلـب الأسـتاذ "شـبراوي"، عريـس "رحيـم" وصديقه الـودود، لـ"نظاكـة"، إذ كان هـو الأنسـب والأليـق لهـا كـما أشارت عليهـا. وعليـه، لم تتمكـن "نظاكـة" مـن معارضـة القـرار، فهـي لم تكـن قـد تعلقـت بـ"البسـتان" بعـد، بـل لم تكـن قـد رأتـه سـوى مـرات قليلـة مـع "محيـي"، فضـلاً عـن خوفهـا مـن الرحيـل عن "إمبابـة" إذا مـا قبلـت بالـزواج منـه، مـا عـزز ترددهـا تجـاه قبـول عـرض "البسـتان"، والرضـوخ لقـرار أمهـا.

عـاد "محيـي" في مسـاء اليـوم التـالي إلى "البسـتان" مـن دون قصائـد هـذه المـرة، ولمـا سـأله عـن الـرد، قـال "محيـي" مستشـعرًا الحـرج..

- النصيب غلاب يا بستان يا أخويا!

ففهـم "البسـتان" مغـزى الرسـالة، وانكفـأ حزنًـا لأيـام قليلـة، ثـم عـاد إلى المقهـى بعـد أيـام، ضاحـكًا مندهشًـا كعادتـه. أمـا علاقتـه بـ"محيـي" فلـم يمسسـها التوتـر، بـل ازدادت تماسـكًا، وظـل بـاب المبـارزة والهجـاء بـين "أبـو ذكاء" و"البسـتان" قائمًـا حتـى أيـام "البعكوكـة" الأخـيرة.

t.me/qurssan

46

تحولت زيارات الحاج "علي" وإقامته في "إمبابة" من بيت العائلة البائد في "تاج الدول" إلى بيت "محيي" الجديد في "مدينة العمال". صار "محيي" هو كبير العائلة في "إمبابة"، عائل أسرته وأمه وبيت أخيه "فهمي". لم يكن أخوه الأكبر "إبراهيم" ومصبغته يقدران، بأية حال، على تحمل تلك المكانة، كأن المصبغة هي لعنة "إبراهيم" التي لازمته في حياته وضيقت رزقه ووجهت قراراته إلى طريق لم يكن يتمناه، فحمل "محيي" اللواء على عاتقه، ولم يتأخر يومًا عن مساعدة "إبراهيم" في أزمات مصبغته التي لم تفارقه يومًا.

دعا "محيي" كل العائلة إلى "مدينة العمال" لحضور سبوع "سمرا" هناك، كانت مساحة البيت أصغر مما اعتادوا عليه في بيت العائلة القديم في "تاج الدول"، فأقامت "فردوس" السبوع في باحة البيت، وحضر كل أصدقاء العائلة ومعارفها وجيرانها،

t.me/qurssan

وبدأت الأعداد تتزايد، ففتحت الحاجة "فاطمة" غرفة الجلوس لتسمح بجلوس كبار العائلة، ثم غرفة النوم لتجلس النساء من أقربائهم بها. كان "محيي" يعلم أن البيت بغرفتيه لن يسع كل العائلة، لكنه آثر أن يدعو كل من كان ذي صلة بهم. ولما ازداد الحاضرين عما يسع المنزل بباحته وغرفتي نومه وجلوسه، طلبت "فردوس" من "حُسن" أن تفتح باب البيت ليقف الوافدين الجدد في حوش البيت، فقد يسع الحوش أضعاف مما يسع البيت.

بدأت الزغاريد والأغاني تعلو من الداخل فيردد معهم من هم في الحوش..

- حلقاتك برجالاتك.. حلقة دهب في وداناتك.

ثم خرج "محيي" عليهم فوقف بباب غرفة الجلوس وأشار إليهم ليتوقفوا عن الغناء، ثم بدأ في إلقاء قصيدته الزجلية المعتادة في مناسبات العائلة. وبعد أن فرغ من إلقائه وجلس بجانب أبيه، عاد الأطفال لغنائهم..

- يا رب يا ربنا.. تكبر وتبقى قدنا.

رأى الحاج "علي" في السبوع واجتماع أبنائه فرصة ليتحدث إليهم بشأن آخر، فمال على "محيي" متمتمًا..

- بعد الظيطة دي ما تخلص والناس تنفض هات لي "إبراهيم" و"رحيم" و"نظاكة" في أوضة الجلوس هنا.. وقول لـ"زينب" ماتروّحش.. عايزكو في كلمتين في حضور الحاجة.

t.me/qurssan

أشار له "محيي" بالموافقة، وبعد أن انتهت مراسم السبوع ورحل الحضور جميعهم، اجتمع الإخوان الثلاثة ومعهم أختهم "نظاكة" وأرملة أخيهم "فهمي"، وجلسوا مع الحاج في غرفة الجلوس كما طلب منهم، لكنه ظل صامتًا ينتظر قدوم الحاجة "فاطمة"، فما إن دخلت الحاجة حتى كسر صمته، فبارك لها وصول حفيدتها الجديدة، ثم نظر إلى صورة ابنهما الراحل "فهمي" المعلقة فوق الكنبة المقابلة له، واستهل الكلام بالحديث عنه...

- ألف رحمة ونور عليك يا فهمي يا أبو الرجالة.. كان زماني متطمن إنك هتشيل عيالي بعد ما أموت من غير حتى ما أوصيك..

لا إله إلا ألله.. أستغفر الله العظيم.

رد "محيي" متمتمًا:

- بعد الشر عليك يابا.. ربنا يِدّيك طولة العمر.

اعتدل الحاج في جلسته وكوّر مسبحته ثم تابع حديثه..

- العمر الطويل مش حاجة حلوة يا بني حتى لو كنت بصحتك.. وموت العجوز مش شر.. موت العجوز آخر دين في ذمته عند ربنا.. بيسدده أول ما يموت.. ويوم السدد عيد...

الشر مش في العَجَز.. الشر في العَجْز.. الشر في العيال اللي بتموت من مرض مالهوش علاج.. أو بتعيش من غير ما تشوف خير تتهنى بيه.. الشر فيا أنا لو جبت عيال

t.me/qurssan

وماخـدوش حقهـم في الخـير زي مـا انتـو أخدتـو.. يمكـن أنا
مافيـاش خـير كتـير عشـان مـش فاضـل لي كتـير.. بـس انتـو بردو
خـيري الـلي فاضـل.. الخـير مـش لازم يكـون فلـوس.. الخير
يمكـن يكـون أهـل وعـزوة نسـتخبى فيهـم

"وديـدة" أختكـم وملزمـة منـي لحـد مـا أمـوت.. وحقهـا تتعلـم كويـس وتعيـش كويـس وسـطكم هنـا في "إمبابة".. مش نسـيبها تتظلـم في قليـوب وأهلهـا هنـا.. أنـا اتفقـت مـع "نـصرة" خـلاص أول مـا "وديـدة" تتـم سـن المدرسـة هابعتهـا هنـا تتعلـم وتتربى وسـط عيالكـم زيهـا زيهم.

قامـت السـت "أم جـلال" مـن مقامهـا إثـر مـا اعتراهـا مـن تأثـر بحديـث الحـاج، فـردت في حـزم كانـوا عهـدوه مـن زوجهـا رحمـه اللـه، وبـادرت الحضـور بالحديـث..

- بيـت "فهمـي" هيفضـل طـول عمـره مفتـوح لأهلـه يـا حـاج.. "وديـدة" أول مـا تنـزل "إمبابـة" مـش هـتروح في حتـة غـير عنـدي.. أنـا باحـب البنـات وباحتاجهـم يسـاعدوني في شـغل البيـت.. تيجـي تنـورني وأشـيلها فـوق راسي زيهـا زي اخواتهـا "شريفـة" و"رضِيّـة".

سـاد صمـت قصـير، فقـد أيقـن "محيـي" و"رحيـم" بمـدى تأثـر السـت "أم جـلال" بـكلام الحـاج، واستشـعرا نـبرة الحـزم في حديثهـا، فلـم يجادلاهـا وأقـرا هـذا الاتفـاق لأبيهـم..

- اتطمـن يابـا.. أنـا و"محيـي" موجوديـن ومـش هنسـيبها.. ودايمـا لـو احتجتنـا هتلاقينـا في ضهـرك.

t.me/qurssan

47

مـرت أعـوام ثلاثـة لم تنقطـع فيهـا زيـارات الحـاج "عـلي" الشـهرية لـ"إمبابـة"، أعـوام ثلاثـة منـذ مولـد "وديـدة" أنجـب فيهـا "رحيـم" أول أبنائـه، "عصمـت". أعـوام ثلاثـة راقـت فيهـا أحـوال بيـوت أبنائـه وهـدأت أمورهـم، واسـتراحت الحاجـة "فاطمـة" لما آلـت إليـه أمورهـا واتفاقهـا مـع "فـردوس" في بيـت "محيـي". أعـوام ثلاثـة اسـتقرت فيهـا لـ"إبراهيـم" أوضـاع المصبغـة ولـو بشـكل طفيـف، أو عـلى الأقـل لم يلجـأ لطلـب المسـاعدة مـن "محيـي" فيهـا، إلا أنـه بعـد مـرور تلـك الأعـوام انقطعـت زيـارات الحـاج في إحـدى المـرات، لكنـه أرسـل إليهـم خطابًـا يـشرح سـبب غيابـه.

قـرأ "محيـي" الخطـاب ولم يملـك إلا التعجـب مـن تدابـير اللـه، هـل اقـترن قـدره بالفعـل بقـدر أبيـه؟ ففـي بدايـة هـذا العـام علمـت "فـردوس" بأمـر حملهـا بابنتهـا الثانيـة، وهـا هـو أبـوه ذو السـتة والثمانـين عامًـا يخـبره في خطابـه بـأن "نـصرة" قـد أنجبـت

t.me/qurssan

ابنتها الثانية "آمنة". لله تدابير ورسالات، وللإنسان فقط ما اجتهد عليه منها. فكان "محيي" يعلم أن الاتفاق المبرم بينهم بشأن عودة "وديدة" إلى "إمبابة" حين تصل إلى سن الدراسة هو بالتبعية سارٍ على أختها، المولودة الجديدة "آمنة"، دون الحاجة لتجديد العهد مرة أخرى في خطابه.

أتمت "وديدة" عامها الخامس فأرسلها أبوها، وهو الذي نيّف على التسعين، إلى "إمبابة" لتبدأ رحلتها في منزل أخيها "فهمي" تحت رعاية الست "أم جلال" كما اتفق معها سلفًا فرحت الست "أم جلال" بها كثيرًا على الرغم من طباع "وديدة" الريفية التي أنهكتها في البداية، كمشيها من دون حذاء، وما شابه من عادات استغرقت وقتًا ومجهودًا كبيرًا كي تحاول أن تنسيها إياها؛ وتعوّدها على حياة المدينة.

كانت قد استرجعت هيئة المطابع العديد من منازل "مدينة العمال" من أهل موظفيها المتوفين، ومن بينها بيت الست "أم جلال" بعد أن تركته وانتقلت للعيش في بيتها الجديد بالقرب من مسجد سيدي "إسماعيل"، فهاج الأهالي وماجوا، وكثرت الوقفات والاحتجاجات والشكاوى، خصوصًا بعد أن راجت الأخبار بأن "عبد الناصر" يولي أكبر اهتمامه لقضايا العمال. وبالفعل في غضون بضع سنوات من تولي "عبد الناصر" الحكم، صدر قانون بإعادة أهالي الموظفين المتوفين إلى بيوت "مدينة العمال"، ولكن بعد أن تعيد "هيئة تطوير الحياة المعيشية" تقييم العائلات لتسكن كل عائلة البيت المناسب لعدد أفرادها، فعادت الست "أم جلال" إلى بيت غير الذي كانت تسكنه قبل رحيلها، يقع في الشارع المجاور لبيت "محيي"، يتكون -مثله

t.me/qurssan

تمامًا- من غرفتين. وصار بيتها ممتلئًا بأبناء وبنات عدة من آل "أبو طويلة"، تهتم بمفردها فيه بأبنائها الأربعة "جلال" و"علي" و"شريفة" و"رضيّة"، إضافة إلى "وديدة"، وافدتها الجديدة من "قليوب"، فتدير البيت بقوانين صارمة وحزم شديد، ويتكفل "محيي" فيه بكل ما يلزمهم من كسوة وتعليم وطلبات للبيت.

أما المولودة الجديدة "آمنة" فعلى غرار أختها الكبرى، عاشت سنواتها الخمس الأولى في قليوب مع أمها، لم يُرزق الحاج "علي" في تلك السنوات بأي أبناء على الرغم من محاولاته الدؤوبة للإنجاب، حتى ظن أن هذه هي نهاية عهده به، وبدأت تراوده أفكار عن قرب موعد الرحيل، فقد ظهرت عليه بعض أمراض الشيخوخة المعتادة، كضعف النظر والسمع، وهو الذي لم يَشْكُ من أي منها قبل عامه التسعين، وعلى الجانب الآخر من النهر أنجب ابنه "محيي" مولودًا جديدًا، أسماه "شرف"، وأخل بالعرف الطريف السائد بينهم بأن ينجبا معًا.

ودعت "آمنة" ذات الخمسة أعوام أمها، وأمسكت بيد أبيها كي يصحبها معه إلى إمبابة لترى أختها "وديدة"، وتبدأ رحلتها في العاصمة هي الأخرى. وحين هَمّ الحاج بالخروج من المنزل، نادت "نصرة" عليه وأشارت إليه بإشارة ذات مغزى كي يطأطئ رأسه وهمست في أذنه خبرها السعيد..

- الحيض اتأخر يجي له جمعتين كده.. شكل ربنا كاتبها لنا.

تهلل الحاج وألقى حمله واحتضنها وأخذ يقبلها ويقبل "آمنة" من شدة فرحه، وكاد يؤجل رحلتهم لبضعة أيام لولا

t.me/qurssan

ما رآه في عيني "آمنة" من إحباط خشية إلغاء الرحلة، فحمل
حمله مرة أخرى وطبع على جبين "نصرة" قبلة أبوية طويلة،
وبدأ يوصيها...

- تروحي عند امّك الكام يوم دول لحد ما نتأكد من خبر الحمل.. وتخلي بالك على نفسك وترتاحي على الآخر.. لا إله إلا الله.

ثم أمسك بيد "آمنة" وتوجه بها إلى محطة القطار، لا تكاد قدماه تلامسان الأرض من فرط السعادة، فالخطة تكاد تكتمل وثمة جذر ثالث سيُغرس له في "قليوب".

t.me/qurssan

48

استقبلهم "إبراهيم" على رصيف محطة القطار في "إمبابة"، قبّل يد أخته "آمنة" ثم رأس أبيه، وبدأوا في طريق العودة لبيت الست "أم جلال"، يمسك كل منهما بإحدى يدي "آمنة"، حلقة الوصل الجديدة بين "قليوب" و"إمبابة"، بين ما قد سلف من عمر وما خلف من فروع، ثم باغته أبوه بسؤاله..

- مش عوايدك يعني يا "إبراهيم" تقابلني ع المحطة.. ما انا كل مرة باجي لوحدي.. ثم انت عرفت منين معاد القطر؟

- آاااا.. آه يابا.. مانا كنت عارف انك جاي النهارده.. وكنت فاضي ومتضايق شوية، قلت آجي استناك من بدري واسلّم عليك واتمشى معاك للبيت.

- يعني انت هنا من قبل قطر ستة؟

- من الفجر.

t.me/qurssan

ـ يا بني ده الضهر أدّن.. إيه اللي حصل؟ مالك بس؟

استطرد "إبراهيم" في حديثه عن أحوال التجار وأصحا، الحوانيت التي تأثرت بعد الحرب، ومعاناته الشديدة في الحصول على الصبغة الكافية لتغطية احتياجات المصبغة، وعن ضيق أحواله المعيشية خصوصًا بعد أن علم أن "حُسن" قد حملت للمرة الثانية، في وقت دخول ابنته الكبرى "فاطمة" المدرسة، لم يكن حملاً محسوبًا، حمّله عبئًا فوق أعبائه، أعباء قد تفوق إمكانياته.

استمع إليه الحاج متأثرًا حتى وصلوا إلى بيت الست "أم جلال"، حيث تنتظر ابنته "وديدة" وصول أختها "آمنة" بفارغ صبرها، فأنهى "إبراهيم" حديثه في عجالة، ثم رحل بعد أن وعده أبوه بأن يتوصل إلى حل لمشكلاته قبل أن تنتهي هذه الزيارة.

حظيت "آمنة" باستقبال أبهرها منذ أن خطت أرض العاصمة، فلم تكن الشوارع كشوارع "الخرقانية" الترابية، ولا الملابس كتلك التي عهدتها في "قليوب". اختفت العمائم وحلت محلها الطرابيش، لم تعد ترى جلابيب الفلاحين الفضفاضة الباهتة، ورأت بدلاً منها البدل الصيفية ذات الأكمام القصيرة، فُتِنت بمظهر الشيوخ الأزهريين وزيهم، بالطربوش الأحمر القصير الملفوف بالعمامة البيضاء، والجلباب الأبيض الذي يظهر في وقار من تحت الكاكولة الداكنة. حتى زي النساء اختلفت ألوانه وتعددت من تحت الملايات اللف السوداء. تاهت "آمنة" في تفاصيل الشوارع حتى وصلت إلى بيت الست "أم

t.me/qurssan

جلال"، فوقعت عيناها على المنزل المرتقب الذي طالما سمعت عنه من أمها. منزل من الحجارة، متعدد الطوابق، شامخ أنيق، أليق بالمعيشة ألف مرة من بيتهم في "الخرقانية".

دخلته "آمنة" ممسكة بيد أبيها، فسرّتها جدرانه المطلية بألوان زيتية زاهية، وظلت تحدق في تفاصيل البيت وشكل الأثاث والراديو العملاق المعلق في الصالة، ولم تنتبه لأي من كلام أبيها عنها للست "أم جلال" ولا من وصاياه العشر لها عن كيفية التصرف وحسن الخلق واحترام أوامر الست "أم جلال". لم يكسر هذا الشرود الحالم سوى ظهور أختها "وديدة" من غرفتها، بفستانها المليء بالورود، وشعرها المربوط بشريطتين حمراوين والذي ينتهي منسدلاً على كتفيها، فجرت عليها واحتضنتها، فعادت "آمنة" إثر قبلات "وديدة" لها لأرض الواقع، وأيقنت بأن هذه الجنة هي بيتها الجديد، وأن كل ما تراه في "وديدة" الآن هو حلم مشروع لها، قد صار قاب قوسين من التحقق.

فرغ الحاج من زيارته لبيت الست "أم جلال"، وألقى كل وعوده ووصاياه لـ"وديدة" و"آمنة" لإقامتهما في "إمبابة"، ثم اصطحبهم جميعًا مع الست "أم جلال" وأبنائها الأربعة إلى بيت "محيي" في الشارع المجاور، ليقضوا يومهم هناك ويتناولوا غداءهم معًا. وما إن وصل إلى منزل "محيي" حتى بدأ جلسته المعتادة في غرفة الجلوس، والتي ينتظر فيها دخول أحفاده عليه ليسلم عليهم ويحكي لهم بعضًا من نوادره.

t.me/qurssan

انتهت جلسة النوادر وخرج الأطفال، واختلى الحاج بنفسه للمرة الأولى منذ أن سمع بخبر حمل "نصرة"، فخالجته مشاعر الفرح والرضا بقدره المحتوم، ومشاعر متضاربة بخوف قديم من عودة عدوه في اللحظات المماثلة، دخل "محيي" الغرفة دون أن يشعر به الحاج، فرآه يجلس فوق كنبة الغرفة عاقدًا رجليه مغمض العينين ويسبح على مسبحته ويردد..

"ببركة صاحب الكرامات والأحوال الشيخ المعتقد الصالح سيدي (إسماعيل يوسف الإمبابي) وكل أتباعه واللي قاصدين مقامه.. بحق رحلته الطويلة من طنطا لبولاق... بحق ما عبر النهر فوق (منديله) على مَيّاةِ النيل.

بحق كل غالي عندك يا كريم ما تورينا مصايب في حبايب تاني.. أنا حبيبك وشفت قد ما شفت وعمري ما اشتكيت.. صابرين وراضيين بس العيال محتاجين ينبسطوا.. المرض خد على قد ما خد.. وانا جبت غيرهم على قد ما قدرت...

وحياة حبيبك النبي.. بالراحة عليّا في الكام يوم اللي فاضلين.. أنا مش حمل حد يموت تاني.. ولو مش محتاج مني حاجة هنا.. يبقى سايبني ليه؟ أنا مرتب أموري ومافيش حد في رقبتي.. طول ما انا عايش هاعمّر.. ولو مُت عيالي هيشيلوا عيالي".

لم يتمالك "محيي" نفسه وقاطع دعاءه..

- تعمر إيه يا راجل يا عجوز؟

t.me/qurssan

- إيه.. إنت دخلت إمتى يا واد انت؟

- من ساعة ما كنت عايز تعمر الأرض.. وتجيب عيال واحنا اللي نربيها.. إحنا ملاحقين على عيالنا لما هنلاحق على عيالك؟ بالمناسبة كمان.. "فردوس" لسه من يومين مبشراني إنها حامل.

- يا بن الأبالسة .. مش باقول لك ان انا وانت معمول لنا عمل رابطنا على بعض! ده انا لسه قبل ما امشي من قليوب "أم وديدة" مبشراني انها حِبلى.

- لا إله إلا الله.. سبحانه ما أعظم شانه.. مافيش حاجة بعيدة على ربنا..

- هي إيه دي اللي بعيدة على ربنا يا قليل الحيا.. أنا لسه بصحتي!

- ربنا يديك الصحة يا حاج "علي" يا قادر!

ضحك "محيي" بصوت عالٍ ولم يتمكن أبوه من كتم ضحكته هو الآخر...

- أنا جاي لك في موضوع تاني خالص يابا.

- قول يا سيدي.

- "إبراهيم" الدنيا ملطّشة معاه قوي يابا.

- آه.. ما هو لسه كان بيحكي لي.. أحوال المصبغة ماتسرش خالص.

- بس انا و"فردوس" اتفقنا على حل.

t.me/qurssan

- حـل إيـه.. هتسـاعده بفلـوس؟ ده عنـده بنـت عـلى وش مـدارس وعيـل جـاي في السـكة.. هتـدي لـه إيـه ولا إيـه؟

- لا مـش فلـوس.. بنفكـر ناخـد البـت "فاطمـة" بنتـه تعيش عندنـا لحـد مـا ربنـا يفرجهـا عليـه.. وأمـي روحهـا فيهـا وبتحبهـا.

- هممـم.. واللـه فكـرة مـش بطالـة.. بـس انـت يـا بنـي اللي فيـك مكفيـك.. كفايـة عليـك عيـال "فهمـي" اللـه يرحمـه، هتشـيل كـمان عيـال "إبراهيـم"؟!

- يابـا مسـتورة والحمدللـه.. و"رحيـم" كـمان إيـده بإيـدي مش سـايبني.. بـس انـا أخـاف "إبراهيـم" ياخدهـا بحساسـية ولا يزعـل!

- لأ سيب لي انا الحكاية دي.. لما تيجي مني انا مش هيزعل.

مـرت سـنوات عـدة لم تتحسـن فيهـا أحـوال "إبراهيـم" والمصبغـة كثـيراً، فظلـت ابنتـه "فاطمـة" تعيـش في بيـت عمهـا "محيـي"، يعاملونهـا كابنتهـم وتعتنـي بها جدتهـا الحاجـة "فاطمة"، حتـى آن موعـد زواجهـا، تكفـل عمّاهـا "محيـي" و"رحيـم" بكامـل تكاليـف الجهـاز والـزواج دون تـردد.

بعـد زواج "فاطمـة" الصغـيرة ورحيلهـا عـن بيـت "محيـي" بشـهور قليلـة، كانـت العائلـة في "إمبابـة" ترتقـب قـدوم "نعـمات"، ثالـث بنـات الحـاج "عـلي"، وتمـت التجهيـزات في العائلـة عـلى أن يتكفـل بهـا "محيـي" هـذه المـرة، عـلى عكـس أختيهـا "وديـدة" و"آمنـة" اللتـين عاشـتا في منـزل السـت "أم جـلال". فلـما حـضرت

t.me/qurssan

نعمات" إلى "إمبابة" عاشت لفترة من الزمن في منزل "محيي"، لأنها لم تكن على وفاق مع ابنة عمرها "نبيلة" آخر بنات "محيي". كانت الخلافات بينهما لا تنتهي وكانت تشعر "نبيلة" بغرابة شديدة من طباع "نعمات" الريفية، ومن جرأتها على التصرف في متعلقات لا تخصها، فبعد وصولها بأشهر قليلة فوجئ أهل البيت بها حين جمعت كل شوكات تناول الطعام وألقت بها في القمامة، ظنًّا منها أن تلك الشوكات ما هي إلا ملاعق قديمة مكسورة.

توترت العلاقة بين "نبيلة" و"نعمات" أكثر مع مرور الوقت، وزاد كيد الأطفال بينهما، ولم تستطع "فردوس" السيطرة على المشاجرات التي كانت تنشب بينهما، فلم تجد العائلة بدًا من نقل "نعمات" من بيت "محيي" إلى بيت "رحيم"، فعاشت هناك لفترة وجيزة لم تكن سعيدة فيها لوجودها في بيت يخلو تمامًا من الفتيات، فقد كان أبناء "رحيم" الأربعة كلهم من الذكور، وقرروا نقلها مرة أخرى، فانتهى المطاف بـ"نعمات" بعد عدة أشهر من وصولها إلى "إمبابة" في بيت الست "أم جلال" مع أختيها.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

49

لم يـدم سـلام العائلـة طويـلاً، فـما إن هـدأت أوضـاع البيـت عند "محيـي" بعـد انتقـال "نعـمات" إلى بيـت "أم جـلال" حتـى فجعهـم القـدر. ففـي صبـاح شـتوي معتـاد، اسـتيقظ كل أفـراد البيـت في السـابعة، ودارت معركـة الصبـاح اليوميـة، بـين كي ملابـس الأولاد وتحضـير حقائبهـم وكتبهـم، ثـم جلسـوا جميعًـا عـلى طبليـة سـاحة المنـزل لتنـاول الفطـور، لكـن لم تكـن الحاجـة "فاطمـة" حـاضرة عـلى الطبليـة كـما اعتـادوا منهـا، فظـن "محيـي" و"فـردوس" أن النـوم قـد غلبهـا، فلـم يلقيـا بـالا لذلـك.

وبعـد أن غـادر الأولاد إلى المدرسـة دخـل "محيـي" عـلى الحاجـة "فاطمـة" ليوقظهـا قبـل أن يغـادر لعملـه، فكانـت نائمـة عـلى جانبهـا الأيمـن، بالقـرب مـن حافـة السريـر، حيـث كان ظهرهـا مواجهًـا لدخولـه مـن البـاب، ناداهـا فلـم تـرد، اقـترب وربـت عـلى كتفهـا فلـم تتحـرك، أمسـك بيدهـا وقبّلهـا فهـوت مـن فـوق

t.me/qurssan

السرير، تخشبت قدماه لوهلة لكنهما لم تحملاه طويلا وخار قواه، وهوى بجانبها، ينعاها بنحيب هادئ.

رحلت الحاجة "فاطمة" في هدوء. لم ينتبها مرض، لم يعتره ألم، رحلت كما عاشت دون شكوى، أنيقة أبية، وخيم الحزن على العائلة حين عم الخبر، وسرت في البيوت ريح الوحشة التي غابت عنها ببركة وجودها فيها، وظل شغل "محيي" الشاغل كعادته هو أبوه، وكيف يخبره، كيف يهون عليه الصدمة؟ فاهتدى إلى أن يرسل إليه ابنه الأكبر "كامل" على متن القطار الأول ليخبره بشخصه، عسى أن يخفف عنه الخبر، ويعود به سريعًا ليلحقا بمراسم الدفن قبيل العصر، على أن يبقى هو في "إمبابة" ليهتم بباقي إجراءات التصاريح والأوراق والعزاء.

ذهب "كامل" ذو الخامسة عشر إلى "قليوب" للمرة الأولى في عمره، كان رفيعًا طويلاً داكن البشرة، يشبه أمه "فردوس" في معظم ملامحها، لكنه ورث أنف أبيه الضخم المستدير، كان "كامل" ذكيًا لماحًا، فأولاه أبوه مهمة السفر إلى "قليوب" ثقة منه لما فيه من فطنة وحسن تدبر للأمور، فلم تكن "الخرقانية" في ذهنه سوى مكان أسطوري يذهب إليه جده فيعيش فيه طيلة شهر ليعود لهم بالمزيد من حكاياته الممتعة، وعلى الرغم من فداحة الحدث الذي تسبب في رحلته إلى هناك، كان متحمسًا للزيارة، تواقًا لرؤية البيت مصنع الحكايات. وبعد العديد من المحاولات والوصفات التي أضيفت من المارة في الشارع على وصف أبيه له عن مكان البيت، استطاع "كامل" قبيل انتصاب الشمس بحين أن يصل إلى بيت جده.

t.me/qurssan

منـزل قديـم مـن طابـق واحـد، يميـل لونـه إلى الرمادي، تتوسـطه ثلاث نوافـذ متهالكـة أعيـد طلاؤهـا بالأخـضر الزيتـي، ولمـا وجـد البـاب مفتوحًـا ألقـى السـلام وتنحنـح ثـم دخـل، فاسـتقبلته أركان سـاحة كبـيرة، ممتلئـة بالدواجـن، تعيـث فيهـا الأغنـام. فلـما أشـاح بنظـره خلـف الفـرن المبنـي عـلى يسـار المدخـل وجـد جـده الحـاج "عـلي" يجلـس عـلى كنبـة خشـبية عاليـة، يحمـل في يـده اليـسرى الجـوزة ويحـاول رص قوالـح الـذرة المشـتعلة بيـده اليمنـى فـوق كـرسي المعسـل...

- سلام عليكم.

- مين؟!

- أنا "كامل" يا جدي.

ضيّق الحاج عينيه في محاولة فاشلة ليراه بوضوح..

- "كامل" مين؟ "كامل محيي"؟! أبوك جرى له حاجة يا واد؟

- لا يا جدي أبويا كويس.. دااااا ستي "أم فهمي"...

- لا إله إلا الله!

استحالت ملامحـه مـن الضيـق إلى الغضـب، ومـن الغضـب إلى النـدم، ببـطء شـديد، ونظـر إلى بـاب البيـت طويـلاً، ثـم غلبتـه دموعـه وانهمـرت، فتمتـم مـن بـين أسـنانه، كأنـه لا يتحـدث إلى "كامـل"..

- كنت عارف.. كنت عارف.. زعلانة مني ومش هتستناني..

t.me/qurssan

غـاب الحـاج "عـلي" عـن الحديـث طويـلاً، انـزوى ولم يـرد ء لم
أي مـن أسـئلة "كامـل" أو محاولاتـه للاطمئنـان عليـه، غـاص يبحـ.
عـن "فاطمتـه" في طريـق هجـره منـذ سـنوات، متـى نسـيها؟ ومـ
بخسـها؟ لم يجـد لهـا أثـرًا قريبًـا فيـه، ولمـا اسـتفاق مـن غيابـه تنـ
إلى أنـه لا يـزال في "قليـوب"، ولا أثـر لـ"أم فهمـي" في "قليـوب"
فنظـر إلى "كامـل" بعـد حـين...

ـ خدني ليها يا بني.. هاجهّز نفسي ونرجع سوا في أول قطر.

وفي رحلـة العـودة كان الحـاج متماسـكًا لكـن عينيـه لم تتوقفـا
عـن هديـر البـكاء، بـكاء غـير محسـوب أو مملـوك، لكنـه لم يتوقـف
عـن الحديـث أيضًـا، فإمـا كان حديثـه عـن ذكرياتـه القديمـة مـع
الحاجـة "فاطمـة" وقصـة حبهـما منـذ أن رآهـا تحمـل صينيـة الأكل
لأبيهـا في الوكالـة للمـرة الأولى قبـل سـبعين عامًـا، أو عـن ندمـه
الشـديد عـلى تركـه لهـا في "إمبابـة" وسـفره إلى "قليـوب"، اعـترف
لـه بأنـه كان قـرارًا عفويًـا لم يتوقـع عواقبـه، لكنـه كان، ولسـنوات
طويلـة، مدفوعًـا بالكـبر والغضـب لاعتراضهـا عـلى حلمـه.

وصـل الحـاج مـع "كامـل" متعكـزًا عليـه إلى بيـت "محيـي"،
وبـدأ أهـل المدينـة والشـارع والبيـت في تقديـم تعازيهـم لـه، فكلـما
تلقـى تعزيـة مـن أحدهـم ازداد بـكاؤه، حتـى عـبر الشـارع إلى
البيـت ثـم دخـل إلى غرفتهـا. كانـت ابنتـه "نظاكـة" تجلـس بمفردها
بجانـب الحاجـة، تبـكي وتقـرأ في المصحـف بصـوت مسـموع، فوقف
الحـاج للحظـات ببـاب الغرفـة دون أن يقـترب، فلـما رأتـه "نظاكـة"
توقفـت عـن القـراءة وقامـت فاحتضنتـه بحـرارة، ثـم تركـت لـه
الغرفـة وخرجـت. تقـدم الحـاج وجلـس مـكان ابنتـه بجانـب

t.me/qurssan

"فاطمـة" حتـى هـدأ اضطرابـه، لكـن بـكاءه لم ينقطـع، ثـم مـال عليهـا وبـدأ يتمتـم في أذنهـا...

- حقك عليا يا بنت الناس.. أنا محقوق لك!

ظـل يقولهـا بصـوت خافـت، يبكيهـا ويدعـو لهـا، حتـى دخلـوا عليـه حـين حـان موعـد الصـلاة والدفـن، فرفعوهـا مـن أمامـه ووضعوهـا في خشـبتها، لكـن قدميـه لم تتمكنـا مـن حملـه ليقـف ويحملهـا مـع مـن حملهـا مـن الرجـال.

انتهـت مراسـم الدفـن، ومكـث الحـاج في بيـت "محيـي" حتـى آخـر أيـام العـزاء، يتلقـى التعـازي ويتحـدث إلى أبنائـه، إذ يـوصي "محيـي" بهـم خـيرًا، ويوصيهـم خـيرًا بـه، ويعتـذر عـن أنـه لم يكـن عونًـا وسـندًا لهـم وقـت الحاجـة، وقبـل أن يعـود إلى "قليـوب" أمرهـم ألا يتغـير وضـع العائلـة ويظـل كـما تركتـه الحاجـة "فاطمة" قبـل رحيلهـا.

ظـل الوضـع القائـمُ قائمًـا ردحًـا مـن الزمـان، حيـث تحـوي السـت "أم جـلال" في بيتهـا أبناءهـا الأربعـة، ومعهـم بنـات الحـاج "عـلي" الثـلاث، وعـلى بعـد أمتـار منهـم، وفي المنـزل الآخـر، لم يتـوان "محيـي" عـن إعالـة بيـت أخيـه الراحـل "فهمـي" بـكل نفقاتـه. لم يكـن ذلـك تفضـلاً مـن "محيـي" عـلى أبنـاء أخيـه، ولكـن كان هـذا هـو عهـد الرجـال بأهلهـم في العائلـة، فـإن كان "فهمـي" قـد تقـدم ليكـون عائلهـم حـين سـافر الحـاج "عـلي" منـذ خمسـة عـشر عامـا، فهـا هـو الآن يضـع القـدر "محيـي" في الموضـع نفسـه، ليـس ردًا للجميـل ولكـن لأنـه قـدر رجـال العائلـة.

t.me/qurssan

عهد قد قطعه جدي "محيي" على نفسه، وظل قائمًا
حتى تخرّج "جلال" وصار أستاذًا، وعُين مدرسًا في مدرس
بقنا، يستطيع براتبه أن يدبر كفاف يوم أسرته ويحمل
عمه لواء عائلها، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم، ظل يح
الأستاذ "جلال" فائق امتنانه لصنيع جدي "محيي" له ولإخو
ويحاول رده له ولأبنائه ولأحفاده فيما بعد.

كان لقبي لدى الأستاذ "جلال" من بين الأحفاد "ابن بن
الغالي". أما عن جدي "محيي"، فكنت أعده أحكم رجال
الأرض، وكنت أنا لديه بمثابة مرساله الأمين، كان يرسلني، وأ
في التاسعة من عمري، مرات ومرات إلى بيت زوجة أخيه، "تين
أم جلال"، لأدفع لها قسط الجمعية التي كنت أظنها ممتد
بينهما امتداد العمر، فتقابلني هي بترحاب شديد، أو يقابلني
ابنها الأستاذ "جلال" بترحاب مماثل ليقص عليّ صلة قرابتنا
وشجرة عائلتنا المعقدة. حتى حين رحل جدي "محيي" وشاخ
الأستاذ "جلال" فقارب السبعين، كان كلما رآني صدفة في صلاة
العشاء بمسجد "مدينة العمال"، تهلل وجهه واحتضنني، وردد
قولاً لم يتغير منذ أول يوم عرفته فيه وحتى اليوم...

- مش انت ابن سمرا؟! أهلاً بابن بنت الغالي!

t.me/qurssan

الفصل التاسع

الدرب

t.me/qurssan

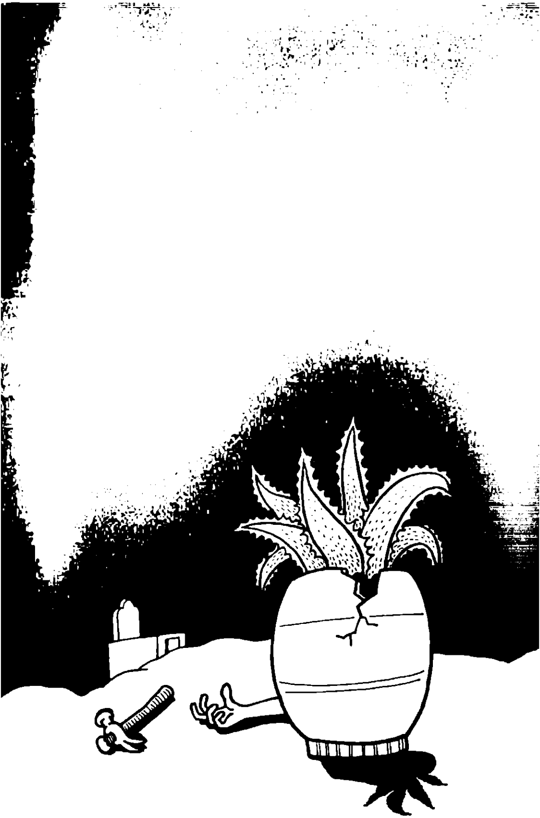

t.me/qurssan

50

استقرت أحوال البيوت الأربعة على هذه الحالة لسنوات عدة، لا يترك الحاج "علي" شهرًا دون أن يستقل قطار العاشرة صباحًا المتجه إلى "إمبابة"، وعلى الرغم من أنه كان يوافق في بعض الأحيان على اصطحاب "نصرة" معه لترى بناتها وتطمئن عليهن، إلا أنه كان يحبذ ركوب القطار بمفرده من "قليوب"، ضاربًا عرض الحائط بنصائح أبنائه، وبضعف نظره أو شبه انعدامه، فكلما ركب القطار واستمع إلى صليل عجلاته وهي تترجرج فوق قضيبيه، أحس بقوة هائلة، كأنه يحفر خطواته على أرض جديدة، يرسم طريقًا يهتدي به كل من سلكه من بعده، يترك علامة يراها كل من مر به، فيعلم كل مارٍ أن خالد الذكر، صارِع المرض، الحاج "علي"، قد مر من هنا.

t.me/qurssan

باتـت رحلاتـه سـعيدة، يـرى فيها أبنـاءه وأحفـاده، يعـرف ... أخبارهـم، ويحـكي لهـم نـوادره، كأنـه يُحكِـم بهـذه الزيـارات قبـ... عـلى مـن خلفـه مـن نسـل هنـاك. يطمـئن بـين الحـين والآخـر عـ... مـا يملـك مـن متـاع الدنيـا، خائفًـا مـن أن يكـون المـرض لا يـزا... متربصًـا بـه أو يريـد النيـل مـن أهـل بيتـه مـرة أخـرى، هاجـس ... يتخلـص مـن أرقـه حتـى أيامـه الأخـيرة.

لم تتغـير عادتـه بـأن يقيـم في بيـت "محيـي"؛ فهـو الأقـرب إلى قلبـه والأقـدر عـلى مراعاتـه واسـتضافته، بـل إن منزلـه كان بمثابـ... مركـز وقبلـة البيـوت الأربعـة، يلجـأ إليـه أفـراد العائلـة ويجتمعـون فيـه لـيرى الأطفـال بنـي عمومتهـم مـن حـين لآخـر دون ترتيـب.

مـن جهـة أخـرى، كانـت "فـردوس" دومًـا كريمـة مضيافـة، ترحـب بـكل زوارهـا، وتبـذل كل طاقـة لهـا كي تكرمهـم، لكـن مـا لم تتمكـن مـن التسـامح بخصوصـه، وقـد عانـت منـه الأمرّيـن، كانـت طبـاع "نـصرة"، زوجـة حميهـا التـي تصغرهـا بسـنوات قليلـة، والتـي كانـت دائمًـا مـا تتـصرف بطباعهـا القرويـة التـي لا تتناسـب مـع قوانـين المجتمـع الحـضري، التـي تعلمتهـا "فـردوس" منـذ أن كانـت طفلـة، والتزمـت بهـا بعـد انتقالهـا إلى "مدينـة العـمال". كان أشـد مـا يغضـب "فـردوس" منهـا هـو تجوالهـا في شـوارع المدينـة مـن دون حـذاء كـما اعتـادت أن تفعـل في "الخرقانيـة"، فتوصلـت "نـصرة" إلى حيلـة قديمـة لـكي تتـصرف عـلى طبيعتهـا في تلـك الزيـارة، دون أن تغضـب "فـردوس" منهـا. قـررت أن تخلـع نعليهـا طـوال رحلـة القطـار وحتـى في طريقهـا مـن المحطـة وإلى البيـت، ثـم تلبسـه مـرة أخـرى حـين تصـل إلى عتبـة بـاب البيـت، لتتجنـب تأنيبهـا.

t.me/qurssan

وصل الحاج "علي" وبصحبته "نصرة" إلى عتبة باب البيت، فألقت "نصرة" بحذائها الذي كانت تأبطته على الأرض لتلبسه قبل أن تدخل، وقرع الحاج الباب بكف يده أربع قرعات قوية وهو يلهث ليحاول التقاط أنفاسه، ففتح "محيي" الباب ورحب بهما، وأرسل "سمرا" إلى بيت الست "أم جلال" لتنادي على بنات الست "نصرة" كي يُسلِّمن عليها. ثم تبع أباه إلى غرفة النوم حيث اعتاد أن يجلس معه بعيدًا عن صخب الأطفال وأحاديث النساء، ليتبادلا أخبارهما الشهرية المعتادة.

بدأ الحاج حديثه بالسؤال عن "إبراهيم" ومصبغته، فأخبره "محيي" أن أحوال المصبغة قد استقرت وتحسنت تحسنًا طفيفًا بعد استقرار أحوال البلاد، ثم أكمل حديثه عن أحوال البنات في دراستهن، فحكى له عن أزمة ابنتيهما "آمنة" و"أمل"، اللتين شاءت الأقدار أن تتقدم كلتاهما للالتحاق بمدرسة "الجُرن" الإعدادية، وما إن بدأت امتحانات نهاية العام حتى أعادوا توزيع الفصول، فوجدت "أمل" نفسها، ومن دون ترتيب مسبق، تجلس بجانب عمتها "آمنة"، وتسرب خبر صلة القرابة الغريبة بينهما إلى كل أفراد المدرسة، وجاء المدرسون من لجان المدرسة شتى ليشهدوا الواقعة الطريفة النادرة التي جمعت طالبة وعمتها في "التختة" نفسها...

- البت "أمل" رجعت يوميها عينيها كاسات دم، وحالفة ما تروح باقي الامتحانات!

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ده إيه الحظ ده؟

- آه والله.. واللي طالع على "آمنة" بقى إنها عمالة تغيظها.

t.me/qurssan

- شـوف بنـت الأبالسـة طالعـة لأمهـا.. طـب وبعديـن عمل، إيـه؟

- ولا قبلـين، رحـت المدرسـة واستسـمحت الناظـرة تنقلهـم مـن جنـب بعـض.

- خير ما فعلت والله.

- خير ما فعلت إيه يابا؟ ما هو ده كله منك انت!

- هو إيه ده يا واد اللي مني؟ وانا عملت حاجة؟!

- أيـوة يابـا.. ملخبـط لنـا العيلـة.. والعيـال مـش فاهمـين عماتهـم مـن بنـات عمهـم.. يـا "أبـو فهمـي" كفايـة خلفـة يـا "أبـو فهمـي" ده انـا نفـسي بطلـت خـلاص.. خطيـت السـتين وعطلـت.

وقف الحاج "علي" معترضًا وصاح في وجه "محيي"..

- هـو مـين ده يـا واد الـلي يبطـل؟ إنـت مجنـون ولا هتكفـر بالنعمـة؟ بطـل انـت لـو عايـز.. أنـا طـول مـا فيّـا صحـة هافضل أجيـب عيـال.. سُـنِّته.. هنخالـف سـنته؟!

قالهـا ذو السـبعة والتسـعين خريفًـا، ثـم هـم واقفًـا منفعـلاً يتحسـس طريقـه، مغـادرًا مجلسـه مـع "محيـي" إلى الصالـة ومنهـا إلى غرفـة الجلـوس، حيـث قابلـه أحفـاده بالضحـكات والألعـاب والطلبـات، فـذاب فيهـم وجلـس عـلى كنبـة غرفـة الجلـوس، والتـف أحفـاده مـن حولـه ليسـتمعوا إلى حكايتـه الجديـدة، فكـوّر مسـبحته واعتـدل في جلسـته وبـدأ يحـكي لهـم...

t.me/qurssan

" أول مـا عرفـت إن أبويـا رايـح مـع زمايلـه نواحـي قـصر عابديـن ورا عـرابي باشـا، سـهّيت أمـي ولمّيـت العيـال وخرجنـا وراه.. كنـت عامـل معاهـم فرقـة تحديـات عـلى قدنـا كـده.. بنتراهـن عـلى أي حاجـة وكل حاجـة بـشرط إن سرنـا مـا يطلعـش برانـا.. ماحـدش مـن أهالينـا كان يعـرف حاجـة عـن الفرقـة دي.. ولا أي حـد مـن بـرة الفرقـة...".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

51

عـاد الحـاج "عـلي" مـن هـذه الزيـارة متخلصًـا مـن معظـم مخاوفـه، ولكـن يحمـل بـدلاً منهـا المزيـد مـن التسـاؤلات. هـل أدى مـا عليـه؟ هـل قـرأ رسـالات ربـه إليـه بشـكل صحيـح؟ هـل مـن طريـق آخـر كان يجـب عليـه سـلكه؟ هـل نسـيه المـرض؟ هـل ملّ المـوت مـن إصراره عـلى المواجهـة حتـى النهايـة؟ هـل انتـصر عليـه حقـا؟ هـل مـن دليـل عـلى صحـة حكمـه عـلى الأشـياء؟ أم أنهـا كلهـا سـؤالات مرجـأة إجاباتهـا لحـين اللقـاء؟ وإن كانـت.. فهـل اقـترب اللقـاء؟

لم يمـر العـام التـالي حتـى شـهد الحـاج "عـلي" معجزتـه الأخـيرة، وفي أحـد أيـام الشـتاء الهادئـة مـن هـذا العـام، حـين كان يجلـس في وكالتـه مـع مديرهـا العتيـد "المعلـم قاسـم"، وباقـي أصدقائـه مـن تجـار الدكاكـين المجـاورة، يسـتمعون إلى "أم كلثـوم" تشـدو بأغنيتهـا الجديـدة في الراديـو. بـدأت افتتاحيتهـا بمطلـع القصيـدة..

t.me/qurssan

"يا فؤادي لا تسل أين الهوى... كان صرحًا من خيال فهوى"

هاج الجلوس وماجوا بين فَرِح ومُشِيد، وفي زخم احتفاله السعيد مع "قاسم" بصوت "أم كلثوم" المدوي، شعر بشيء ما يلكزه في فخذه، فلما نظر للأسفل أحس بطيف طفل يشبه "مصطفى"، أصغر أبناء أخت زوجته "نصرة"، ينظر إليه في ملل ويحاول أن يصيح بجملة وسط هذا الهرج المخيف، فطأطأ رأسه ليسمع منه ما كان يحاول ترديده مجددًا..

- ستي بتقول لك تعالى ع البيت بسرعة عشان خالتي "نصرة" تعبانة.

أسرع الحاج إلى البيت على قدر خطاه البطيئة، ونظره الضعيف، متكئًا على رأس "مصطفى"، وحين دخل البيت، جلس على كرسي خشبي بجانب الباب وزجره من بين أنفاسه المتقطعة..

- نادي على ستك.

دخل "مصطفى" لثوان ثم خرجت الحاجة "نعمات" متبسّمة مقبلة عليه، تتمتم بآيات قرآنية بصوت منخفض، فمالت عليه وهمست في أذنه..

- مبروك عليك بركة ما رزقك يا "أبو فهمي".. أنا كنت حلمت إن "نصرة" هتحبل وتولد في رمضان اللي جاي.. والحلم اتحقق أهو.. أمانة عليك يا حاج لو طلع واد لتسميه "رمضان" وحياة حبيبك النبي.

t.me/qurssan

ابتسـم الحـاج ولم يـرد، وهـم واقفًـا بصعوبـة، فدخـل إلى غرفـة الضيـوف وأغلـق بابهـا وراءه، ومكـث هنـاك لسـاعات طويلـة لا يملـك مـن الفعـل إلا البـكاء ولا مـن الكلـم إلا الشـهادة، يبحـر في فيـض مـن الأفـكار، فتـاه في مدلـول رسـالة اللـه إليـه، وواتتـه كل ذكريـات صراعـه مـع الزمـن كي يـترك أثـره، وانتصـاره المحقـق عـلى غريمـه القديـم، فتذكـر كرامـات شـيخه ووليـه سـيدي "إسـماعيل الإمبـابي" التـي لطالمـا سـمع عنهـا والتـي تعـد معجزتـه التـي شـهدها الليلـة، مـا هـي إلا مسـحة مـن بركاتـه، وشـعر أن مدلـول تلـك الرسـالة هـو قـرب اللقـاء.

سـمعت "نـصرة" نصيحـة أمهـا لهـا وتغلبـت عـلى تلـك التقلصـات والآلام التـي بـدأت تواتيهـا، فقامـت مـن سريرهـا ودخلـت عليـه في غرفـة الضيـوف، فلـما رأتـه شـاردًا مغرورقـة عينـاه بدموعـه، وأحسـت بمـا ينتابـه مـن نوبـات فكـر، آثـرت أن تتركـه في عزلتـه حتـى يخـرج منهـا كـما طلـب منهـا مـرارًا، حتـى اعتـادت منـه ذلـك. وعـلى الرغـم مـن أن هـذه النوبـة كانـت هـي الأصعـب عـلى الإطـلاق، فإنهـا كانـت هـي الأسـعد بالنسـبة إليـه، فقـد أنهـت الكثـير مـن التسـاؤلات التـي كانـت تـراوده. لم تحمـل بالـضرورة إجابـات وافيـة لتلـك التسـاؤلات، لكنهـا جعلتـه، وللمـرة الأولى، يسـمو بأفـكاره فـوق كل التفكـرات المجهـدة وأخرجتـه للمـرة الأخـيرة مـن أزمـة صراعـه.

خـرج الحـاج بعـد سـاعات طويلـة مـن الغرفـة بوجـه مـضيء، يضحـك في وجـه كل مـن يحدثـه، يـرد مبـاركات النـاس، بأطيـب الـردود وأليـق الأحاديـث. وذهـب في صبـاح اليـوم التالي إلى وكالتـه مبكـرًا، عـلى غـير مـا اعتـاد منـذ أن تدهـورت صحتـه وشـاخ

t.me/qurssan

نظره، فتعجب الريس "قاسم" من مجيئه المبكر المفاجئ. نذا , الحاج "علي" إليه بابتسامة عريضة وأخبره بالنبأ السعيد وأمر، بأن يوزع الشربات على كل الجيران والدكاكين المجاورة للوكالة، على الرغم من اعتراض الحاجة "نعمات" على إذاعته للخبر في هذا الوقت المبكر من الحمل، ضاربًا بكل تخوفاتها عرض الحائط.

وحين عاد إلى المنزل قابلته الحاجة "نعمات" متعجبة متأففة من عدم اكتراثه بكلامها عن عين الحاسدين، وعن نظرة الناس إليه حين يعلموا بأمر حمل "نصرة" منه وهو في هذه السن، فلما عاتبته "نصرة" على تهوره، وأكدت له مخاوف أمها، رد عليها في هدوء واثق..

- الشر نسينا يا "أم وديدة".. نسي العيلة كلها.. والناس فرحانة زي ما احنا فرحانين.. ماحدش فاضي يحسدنا.. من هنا ورايح كل اللي جاي فرح.. قولي لامّك ان احنا اللي كسبنا.. إحنا اللي كسبنا يا ولية!

انسوا الناس شوية وافرحوا.. مابتعرفوش تفرحوا؟!

t.me/qurssan

52

كعادتـه، انتظـر الحـاج موعـد عودتـه الدؤوبـة لـ"إمبابـة" في مطلـع الشـهر، وكان قـد بلـغ نظـره مـن السـوء مـا كان يدفـع البعـض للتعامـل معـه كـما الأَضِرّاء، دون أن ينعتـوه بذلـك أو يحدثـوه عـن ضعـف نظـره، نظـرًا إلى إنـكاره وادعائـه الدائـم للرؤيـة. ركـب القطـار وحيـدًا، يخطـو مـرة أخـرى طريقـه الـذي حفـره ووقـع عليـه اسـمه، ولمـا هبـط محطـة قطـار "إمبابـة" جلـس عـلى إحـدى دكك رصيـف المحطـة الخشـبية بالقـرب مـن صـلاة الظهـر، وكلـما اقـترب منـه أحـد المـارة سـأله..

ـ تعرف بيت "محيي أبو طويلة" يا بني...

فـلا يجـد مـن يعرفـه، وإن وجـد مـن سـمع عنـه، فـلا يجـد مـن يعـرف بيتـه، مـرت سـاعات حتـى رآه "فضـل" ابـن السـت

t.me/qurssan

"أم نحمده" جارة "محيي" يجلس بمفرده على رصيف المحطة، يسأل المارة واحدًا تلو الآخر، فذهب إليه وخاطبه...

- إزيك يابا الحاج "علي"؟

- إزيك يا بني.. ماعلش ماتآخذنيش يعني، انت مين؟

- أنا "فضل" ابن "أم نحمده".. جيران عم "محيي" يا حاج..

- يخرب عقلك يا واد يا "فضل".. ده انت كبرت وبقيت راجل أهو.. خلصت دراستك وللا لسه؟

- آه يا حاج.. ده انا في الجيش دلوقتي.. لسه مخلص مركز التدريب ونازل أجازتي.

- يا ما شاء الله.. ربنا يبارك فيك وفي زملاتك.. وازّيّ ابوك كده؟

- بخير والحمد لله.. تعالى انا مروح أوصلك في سكتي.

- أيوة والنبي الله يكرمك.. حاكم الشمس سيّحت نافوخي..

أمسك الحاج بيد "فضل" واتكأ عليها ليقف، ثم اتجها معًا إلى البيت على إيقاع خطى الحاج البطيئة، ثم أكمل حديثه..

"إنت عارف ان عمك (فضل) الكبير الله يرحمه كان زميلي؟ كان معايا في فرقة رهانات كده كنا عاملينها.. نتراهن على أي حاجة وكل حاجة.. مرة اتراهنّا على مين يدخل التُرَب بالليل لوحده.. وعشان نتأكد كان لازم يسيب دليل إنه دخل بحق.. قام عمك اتحمق وقال (أنا هادخل).. نقول له يا (فضل) الترب بالليل مليانة عفاريت.. يقول لأ.. مافيش حاجة اسمها عفاريت..

t.me/qurssan

يهديك يرضيك.. يمين شمال.. مافيش فايدة.. المهم ادّينا له مسمار فيه شريطة حمرا وشاكوش.. يدخل لحد آخر مدفن في الترب ويدق المسمار في الحيطة عنده.. واحنا الصبح نروح نشوف المسمار.. لو لقيناه يكسب الرهان.. هو خد المسمار والشاكوش ومشي وكل واحد فينا راح لحال سبيله..

صحينا تاني يوم ندور عليه مش لاقيينه.. رحنا له البيت لقينا ستك بتعيط وبتقول انه مارجعش من امبارح.. وإن جدك نزل من الفجر يدوّر عليه.. نزلنا نسأل عليه في الشارع مافيش حد شافه.. طبعًا جدك ماكانش يعرف حوار التُّرَب ده.. المهم مابقاش قدامنا غير أمر واحد.. نروح نشوفه في الترب..

وصلنا الترب وجرينا لخد آخر مدفن، لقينا ناس ملمومين حوالين المدفن وعمالين يتشاهدوا.. لما قربنا لقينا "فضل" واقع ميت جنب الحيطة والمسمار أبو شريطة حمرا مدقوق على طرف جلابيته في الحيطة.. الظاهر كده إنه دخل لحد المدفن ورفع طرف جلابيته في إيده ومسك المسمار في نفس الإيد.. وقام داقق المسمار بالشاكوش على طرف جلابيته من غير ما يدري.. وجه يلف عشان يجري حس إن حد مسك طرف الجلابية.. افتكرها العفاريت.. طب ساكت!

رجعنا الدرب وبلغنا جدك.. والحكاية اتعرفت.. بس جدك الله يكرمه ويرحمه مارضيش يبلغ التُّمن ساعتها..

t.me/qurssan

بـس حلـف يقاطعنـا ولا لسـانه يخاطـب لسـان حـد فينـا تـاني.. وبطلنـا حكايـة الرهانـات مـن بعدهـا".

غـاص في أعـماق عقلـه ليسـتحضر تلـك الذكـرى بالتحديـد، ومـا تلاهـا مـن أحـداث أودت بمصـير فرقـة الرهانـات إلى النسـيان، فأضـاءت في رأسـه فكـرة وأوغلـت صـدره، أنـه لعـل صراعـه الطويل مـع المـوت لم يكـن ليقـوم مـن الأسـاس لـولا ذلـك الرهـان الأرعـن، ولعـل مطـاردة المـوت لـه لم تكـن إلا تكفـيرًا عـن تلـك الواقعـة، أو ردًا منـه عـلى التحـدي السـافر الـذي وجهـه إليـه في ذلـك اليـوم. ففكـرة الرهـان كانـت فكرتـه، وموقـع الرهـان كان مـن اختيـاره، مثلـه مثـل كل مـا سـبقه مـن رهانـات، ولعـل إقبـال "فضـل" عـلى تحـدي المـوت في معقلـه لم يكـن ليحـدث لـولا تخطيـط "عـلي" لذلـك...

"لماذا لم أنتبه لهذه الخاطرة من قبل؟! لكنني لم أكن سوى طفل أبله وقتها.. هل كنت قد جاوزت الثانية عشرة.. أو الثالثة عشرة على أقصى تقدير؟ أيؤاخذني الموت أنا وعيالي بأفعال طفل لا يعي ما يفعل؟! لم يكن لأي ممن ماتوا ذنب فيما حدث في ليلة المقابر...

ولكن (فضل) هو الآخر لم يكن له ذنب فيما حدث له..

(فضل)

...

وا أسفاه... أغثني"

لم ينتبـه الحـاج للطريـق، فهـو لم يكـن يـراه بـأي حـال، لكنـه أفـاق مـن لطـمات الفكـر عـلى صـوت "فضـل" الصغـير، الـذي كان

t.me/qurssan

قد بدأ يبدو عليه التوتر والقلق والتعجب من تلك الحكاية التي لم يسمع بها من قبل قط، لكنه تمالك نفسه وقال في أدب..

- ارفع رجلك يابا الحاج عشان تعدي الرصيف.

- إحنا وصلنا؟

- أيوة.

فوقف الحاج مشدودًا، ولم يرفع قدمه، بل أمسك بيد "فضل" الصغير وشد عليها وقال بلهجة ندم واعتذار.

- حقك عليا يا فضل.. أنا آسف!

- العفو يابا الحاج.. ده واجب.

- مش على التوصيلة يا بني.

- أمال على إيه بس؟

- على كل حاجة.. لو آذيتك من غير ما أقصد سامحني.

- أذى إيه يابا الحاج؟ ربنا ما يجيب أذى!

- يا بني قول إنك مسامح وخلاص.. إنت خاسس عليك حاجة؟!

- لا ولا حاجة.. مسامح يا حاج.

تنهد الحاج، وشكره، ثم رفع قدمه ليتخطى رصيف المنزل، ومشى هادئًا حتى باب البيت فقرعه بقوة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

53

تلقـى "محيـي" خـبر الحمـل مـن أبيـه مشـدوهًا مـن تدابـير القـدر، وجلـس يسـتمع إليـه في صمـت، يكتـم ابتسـامته ويـداري تعجبـه، وهـو يتذكـر كلماتـه التـي قالهـا لـه في غضـب قبل أسـابيع.. "طـول مـا أنـا فيـا صحـة هافضـل أجيـب عيـال...".

فهـا هـو الآن يـوفي بوعـده. لكـن "محيـي" لم يتوقـف كثـيرًا أمـام الخـبر ولم يلـق بـالاً للإعجـاز الإلهـي في قـدرة أبيـه عـلى الإنجـاب وهـو يطـرق أبـواب عامـه المئـة، فقـد اعتـاد مـن أبيـه عـلى الغرابـة في حياتـه وحكاياتـه التـي كانـت مصبوغـة بمسـحة عـالم السـحر والأسـاطير والمعجـزات، تمامًـا مثـل عـالم وليّـه الشـيخ "إسـماعيل".

ابتسـم وبـارك لأبيـه حمـل "نـصرة" الجديـد لكنـه لم يتمالـك نفسـه، وبـدأ وصلـة للسـخرية مـن مفارقـة القـدر، وقـرر أن يؤلـف

t.me/qurssan

بعض الأزجال التي يتعجب فيها ويمدح قدرة الخالق، وأخ
يكيد أباه بأنه سينشرها في "البعكوكة"...

- تنشر إيه يا واد يا قليل الحيا؟ عايز تهزأ أبوك على آخر الزمن؟

- ما هو انت بردو اللي بتعمله ده مايتسكتش عليه.. والله لأنشرها وأقول اسمك كمان!

- تقول اسمي؟ يلا أهو الصيت ولا الغنا!

- صيت إيه بس؟ قال يعني انت بتقرا أي حاجة من اللي أنا باكتبها!

- "البعكوكة" دي يا بني مابتوصلش "الخرقانية".. ده الجرايد يا دوب بتوصلنا طبعة أولى بالعافية.. قوم بقى هات لي آخر حاجة اتنشرت لك، وهات جرنال النهارده معاك خلينا نشوف الأخبار.

هم "محيي" وخرج إلى غرفة الجلوس، وعاد بعد دقائق يحمل في يده عددا من "البعكوكة" ومعه جريدة اليوم من "الأهرام"، فتناولها منه الحاج ثم علّق..

- إيه ده.. "أهرام"! إنت بطلت تجيب "الأخبار" ليه؟

- اسكت يابا والنبي ده انا الموضوع ده حازز فيّا قوي!

- موضوع إيه؟

- الحبر اللي بيطبعوا بيه في "الأخبار" حبر مش قد كده.. ريحته زفرة وبيطلع في الإيد وبيدهول الدنيا، وكنا

t.me/qurssan

مستحملينه عشان مافيش غيره.. بس "الأهرام" من قيمة أسبوعين كده حولت مطابعها كلها آلي.. وبقوا يجيبوا حبر من الغالي اللي بيثبت ومايطلعش في الإيد.. و"فردوس" كمان سمعت إشاعة ماشية ماشية اليومين دول إن الحبر القديم بيجيب أمراض.. فحلفت ما أجيب "الأخبار" تاني.. يا "أهرام" يا بلاش..

بس على عيني.. دي عشرة عمر.. خمسة وعشرين سنة لحد دلوقتي مافوّتتش ولا يوم.. يا ريتهم يقلبوا آلي زي "الأهرام" عشان أرجع لهم..

- هات.. "أهرام" "أهرام".. ما هي كلها محصلة بعضها.

أخرج الحاج "علي" حجر التوتياء من سيالة جلبابه، ثم كحّل به عينيه حتى يتمكن من رؤية الكلام المكتوب، فقرأ قصيدة "محيي" الأخيرة، وأثنى عليها، ثم بدأ يتصفح الجريدة ويقرأ عناوينها بصوت عالٍ وهو يتحسس حبر "الأهرام" الجديد الذي لا يطبع في أيدي قرائها. وفي أثناء قراءته خفت صوته أو توقف عن القراءة، وقال لـ"محيي" وهو لا يزال ينظر في الجريدة...

- عايزين نتفق على أمور المولود الجديد..

- مش لسه بدري على الكلام ده؟

- بدري من عمرك انت.. لكن عمري أنا! مافتكرش.

- بعد الشر عليك يابا.. كل اللي انت عايزه هيكون.

t.me/qurssan

فبـدآ مـن فورهـما في إجـراء الحسـابات والترتيبـات لحضـور المولـود الجديـد، واسـتقرا عـلى اتفـاق شـبيه بالاتفاقـات السـابقة التـي أبرموهـا بشـأن أخواتـه الثـلاث، "وديـدة" و"آمنـة" و"نعمات". اتفقـا عـلى أن يكـون بيـت "محيـي" هـو موطـن المولـود إذا مـا أصـاب الحـاج أي مكـروه، أو حـين يحـين موعـد دخولـه المدرسـة. تمامًـا كـما كان بيـت السـت "أم جـلال" بالنسـبة إلى الفتيـات.

t.me/qurssan

54

ولـد "رمضـان" بـ"قليـوب" تحـت عبـاءة أبيـه ورعايـة أمـه الكاملـة، ونظـرًا إلى كـبر سـن والـده فقـد حظـى بطفولـة مدللـة وشـب صبيًـا شـقيًا، ومصـدرًا لمشـكلات عديـدة لـكل مـن حولـه. كان الحـاج "عـلي" قـد قـرر أن يُبقـي "رمضـان" بجانبـه في أيامـه الأخـيرة، أو كذلـك كان يعتقـد. آثـر أن يـرى أصغـر أبنائـه ينبـت أمـام عينيـه، ينتظـر معـه اللقـاء الـذي طـال انتظـاره، محمـلاً بطمأنينـة وراحـة كبيرتـين عـلى مسـتقبل أبنائـه الصغـار في بيـت أبنائـه الكبـار مـن بعـد رحيلـه.

لم يكـن توقُّـع الحـاج "عـلي" بقـرب الأجـل في محلـه، فقـد توالـت عليـه السـنون في "قليـوب" حتـى ازداد عمـره عـلى المئـة بأربعـة أعـوام، لا يمـر مطلـع الشـهر فيهـا إلا وكان عـلى مـتن القطـار المتجـه إلى "إمبابـة"، حيـث كان سـلفه يومًـا مـا، يطمـئن فيـه عـلى خلفـه، يتلـو عليهـم مـا تيـسر مـن حكاياتـه، ويـترك فيهـم سـيرته

t.me/qurssan

وذكـراه، ثـم يعـود بعـد يومـين في قطـار العـاشرة إلى "الخرقانيـة"، حيـث يسـير في طريقـه الـذي ألفـه ولم يتمكـن مـن هجـره حتـى في آخـر أيامـه. عهـد مقطـوع عليـه ألا تـزول قدمـاه مـن الدنيـا إلا وهـما معفرتـان بـتراب ذلـك الـدرب.

إلا أن رحلـة القطـار هـذه المـرة بـدت لـه مختلفـة عـن رحلتـه الرتيبـة التـي اعتادهـا وكان يحفـظ فيهـا خطـوات الطريـق وتفاصيلـه عـن ظهـر قلـب. وبمجـرد أن بـدأت عجـلات القطـار في التحـرك، أضـاء قلبـه إحسـاس قـوي بالكشـف والإظهـار، كأنـه يركـب هـذه الرحلـة للمـرة الأولى، أو أنـه للمـرة الأولى يجلـس عـلى مقعـد مواجـه لمؤخـرة القطـار، ومخالـف لاتجـاه سـيره، كان -ورغـم نظـره المعـدوم- يـرى مـن هـذا المقعـد عـبر النافـذة كل التفاصيـل الخفيـة التـي غفـل عنهـا في رحلاتـه المعتـادة. تجلـت لـه هـذه المـرة ظهـر الأشـياء وهـو يبتعـد عنهـا، البواطـن التـي لا يـرى باقـي الراكبـون إلا وجههـا حـين يقبـل عليهـا القطـار. ولا مجـال للبـوح بهـا لأحـد، لكنـه أيقـن بـأن هـذه هـي المـرة الأخـيرة التـي سيغادر فيهـا "إمبابـة". فانتهـز ذلـك الظهـور وأطلـق ناظريـه الضبابيـين إلى قبـة المسـجد وعقـود الكوبـري ليودعهـا، ويلقـي سـلامه في قلبـه عـلى أهلـه هنـاك.

عـاد الحـاج مـن زيارتـه الأخـيرة لـ"إمبابـة" بعـد صـلاة الظهـر في أحـد أيـام الخريـف الرمضانيـة، ثـم جلـس في باحـة البيـت عـلى كنبتـه الخشـبية، يدخـن جوزتـه ويسـتمع إلى صـوت "أم كلثـوم" الصـادر مـن الراديـو الـذي اشـتراه منـذ شـهور ليسـتمع إليـه في البيـت، بعـد أن صـار ذهابـه إلى الوكالـة نـادرًا، وأصبحـت تجارتـه تعتمـد تمامًـا وبشـكل أسـاسي عـلى "المعلـم قاسـم"، مديـر الوكالـة.

t.me/qurssan

أخـذ ينظـر إلى "رمضـان"، الـذي كان عـلى وشـك أن يتـم عامـه السـادس خـلال أيـام، وهـو يلعـب مـن تحـت قدميـه. كانـت تتغنـى السـت "أم كلثـوم" بتفاريـد مختـارة، فجـاء انقطـاع البـث في منتصـف الأغنيـة للمـرة الخامسـة..

"يا حياتي انا كلي حيرة.. ونار.. وغيرة.. وشوق إليك

نفسي أهرب من عذابي.. نفسي أرتاح بين إيديك

نفسي أرتاح.. بين إيديك أرتاح.. بين إيديك

..."

انقطـع البـث لإذاعـة عـدة بيانـات عاجلـة مـن القـوات المسـلحة عـن بـدء الاشـتباكات مـع قـوات العـدو. لم يفهـم أهـل البيـت الذيـن التفـوا حـول الراديـو مجمـل الأحـداث ولا نتيجـة الاشـتباكات مـن البيانـات الأربعـة الأولى، ذلـك حـين أذاعـت المحطـة البيـان الخامـس...

"هنا القاهرة.. جاءنا الآن من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالي: نجحت قواتنا في اقتحام قناة السويس في قطاعات عديدة واستولت على نقاط العدو القوية بها ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة..

هنا القاهرة"

تهلـل الشـارع وتعـددت الزغاريـد من شـبابيك البيـوت، وتعالت زخـات التكبـير في أرجـاء السـماء عـلى خلفيـة أغنيـة "اللـه أكـبر بسـم اللـه بسـم اللـه". لم يتمالـك الحـاج دموعـه فانهمـر في البـكاء

t.me/qurssan

وهـب واقفًـا يكـبر مـع الجمـوع، لكنـه أحـس بوخـزة ألم قويـة في صـدره، فعـاد لجلوسـه واتـكأ عـلى الجـدار المجـاور للكنبـة. نظـر طويـلاً إلى "رمضـان" الـذي كان يجـري ويقفـز فرِحًـا بفـرح النـاس دون أن يـدري سـببًا لـه، ثـم نظـر إلى الطشـت الفخـاري المتكـئ عـلى الجـدار المقابـل لـه، ذلـك الطشـت الـذي كان يصبـغ فيـه الأثـواب حـين جـاء بمفـرده للمـرة الأولى إلى "قليـوب" قبـل ثلاثـين عامًـا. وانتهـى بـه النظـر إلى نافـذة المنـزل البعيـدة التـي رأى منهـا السـماء، حيـث أملـه ومبتغـاه بـأن تنتظـره "فاطمـة" هنـاك فيراهـا مـرة أخـرى، بـل مـرات أخـرى، يحـكي لهـا عـن أسـبابه وانتصاراتـه، ودربـه الـذي تـرك عليـه أثـره، يراهـا صبيـة شـابة كـما رآهـا أول مـرة، اشـتاق إلى "فاطمـة" فاستسـلم أخـيرًا للنـداء الـذي لطالمـا كان يتجاهلـه.

t.me/qurssan

55

أرسلت "نصرة" زوج أختها الأستاذ "كمال" إلى أهل الحاج في "إمبابة"، أو بالأخص إلى "محيي"، ليبلغه بخبر الوفاة، ورحلة القطار التي تستغرق ثلاث ساعات كانت هي أسرع الطرق لنقل الأخبار الطارئة. وصل الأستاذ "كمال" إلى "إمبابة" وحاول أن يتبع وصف الست "نصرة" الركيك لمكان البيت، وبعد العديد من الأسئلة للمارة عن شخص يدعى "محيي أبو طويلة"، وعن وصف ليس بدقيق عن مكان بيته، استطاع الوصول بصعوبة.

فتحت "نبيلة" الباب ولم تكن تخطت الثالثة عشرة بعد، فعلت من الداخل أصوات الأغاني الوطنية المنبعثة من الراديو، التي كانت تُقطع بين الحين والآخر لإذاعة أخبار عاجلة عن سقوط عدد من الطائرات أو السيطرة على مواقع حيوية جديدة، فسألها الأستاذ "كمال" عن "الأستاذ محيي أبو طويلة"، فضحكت ودخلت دون أن ترد، ثم خرج "محيي" بعد دقائق

t.me/qurssan

لاستقباله مبتسمًا هو الآخر، لكن ملامح التجهم لم تفارق وجه الرجل..

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. يلزم خدمة؟

- إزيّ حضرتك يا أستاذ "محيي"؟ أنا أستاذ "كمال" جوز أخت الست "نصرة" زوجة والد حضرتك.. كنا اتقابلنا لما شرفتونا بالزيارة في "قليوب" من كام سنة.

تغيرت ملامح وجه "محيي" بين الترحيب والقلق..

- آه أهلاً وسهلاً أستاذ "كمال".. اتفضل اتفضل.. ماعلش الواحد دماغه مش فيه.. البلد مقلوبة.

أدخله "محيي" غرفة الجلوس، وطلب له واجب الضيافة، ثم جلس بجانبه..

- خير يا أستاذ "كمال".. لعل الزيارة خير!

- والله.. هو مش خير خالص!

اختفت الابتسامة من على وجه "محيي"..

- الحاج؟

- تعيش انت.. إتوفّى النهارده بعد الضهر!

حل الوجوم على "محيي" للحظات وقطب جبينه وردد بصوت خافت..

- أشهد أن لا إله إلا الله..

t.me/qurssan

ثم ابتسم وقد اعترته دفقات من الرضا عن إرادة الله

ـ يا ريته كان حضر الفرحة دي قبل ما يموت!

ـ حضرهـا يـا أسـتاذ "محيـي".. سـمع معانـا البيانـات كلهـا في الراديـو.. والـسر طلـع في عـز مـا هـو مبسـوط.. ومـات عـلى كنبتـه في بيتـه معـزز مكـرم وضحكتـه اللـه أكـبر منـورة وشـه!

ـ الله أكبر.. ياما انت كريم يا رب.. ربنا يطمنك.

ـ السـت "نـصرة" بعتتنـي أديكـم خـبر عشـان ترجعـوا يمكـن تلحقـوا الدفنـة.

ـ طـب ارتـاح يـا أسـتاذ "كـمال".. هابعـت حـالاً أبلّـغ "إبراهيـم" و"رحيـم" و"نظاكـة" عشـان يجهـزوا ونرجـع سـوا.. يـا "كامـل".. روح لعمـك "إبراهيـم" في المصبغـة بلغـه ييجي ضروري.. يسـيب الـلي في إيـده وييجـي.. وانـت راجـع عـدّي عـلى المحطـة شـوف أول قطـر لـ"قليـوب" طالـع إمتـى.. وماتعوّقش.

ـ طب أستأذن انا بقى عشان...

ـ لاااا تسـتأذن فـين.. مايصحـش.. إحنـا هنبلّـغ كل النـاس ونتحـرك سـوا عـلى هنـاك إن شـاء اللـه.. الشـاي يـا "أم كامـل".

ركـب الإخـوة قطـار التاسـعة مسـاءً إلى "قليـوب" بصحبـة عديـل أبيهـم، أمـلاً في اللحـاق بالجنـازة. ولكـن سـاد العـرف في الريـف بـأن دفـن المتـوفي لا يتأخـر لأي سـبب ولا ينتظـر وصـول أي شـخص، فاضطـرت "نـصرة" وأهلهـا إلى إتمـام مراسـم الدفـن قبـل أن يصـل أبنـاؤه، وحـين وصـل الإخـوة إلى "الخرقانيـة" كانـت قـد مـرت سـاعات طويلـة عـلى وفـاة الحـاج ودفنـه.

t.me/qurssan

ناحت "نظاكة" حين وصلت إلى البيت وعلمت بأنها تأخرت على دفن أبيها، ودار شجار مُدَوٍّ بينها وبين "نصرة" لاتخاذها القرار بدفن الحاج في "قليوب" دون الرجوع إليهم، لولا أن تدخل "محيي" فأمسك بيدها، واحتد عليها، ثم تنحى بها جانبًا وقال بلهجة حازمة..

- "نظاكة".. مايصحش كده.. أبوكي لسه ميت وانتي بتتخانقي مع الست وبتعلي صوتك عليها!

- وانت يرضيك يعني تدفنه كده سكيتي بعيد عن بيته وأهله من غير ما تشورنا؟

- الست اتصرفت لما احنا اتأخرنا.. وحتى لو مش حقها.. هنمسك في خناقها؟ ده لا وقته ولا مكانه.

- يعني إيه؟ هنسيب أبويا هنا؟

- اهدي شوية باقول لك.. مش هنسيبه.. هنتفق معاهم لما يتم العدة وينفع نفتح التربة تاني هنبقى نيجي ننقله في "سيدي عمر" عندنا.

- إذا كان كده ماشي.. بس أبويا يرجع في وسط أهله.. مايفضلش في أرض غريبة وسط أغراب.

- خلاص قلت لك.. كفاية قلة قيمة بقى!

أنهى "محيي" ما تبقى من مراسم العزاء، واتفق مع الست "نصرة" أن يظل العزاءُ قائمًا في قليوب لثلاث ليالٍ متواصلة، على أن يعودوا بعدها إلى "إمبابة" ليقام عزاءٌ آخر هناك لثلاث

t.me/qurssan

ليالٍ أخرى، ولكن يجب أن يعود "رمضان" معهم إلى القاهرة هذه المرة تنفيذًا لوصية الحاج الأخيرة.

انتهت ليالي العزاء الثلاث بـ"قليوب"، وعاد الإخوة مرة أخرى إلى "إمبابة" بصحبة أخيهم "رمضان" ذي الخمسة أعوام ليبدأ حياته الجديدة في العاصمة. فكانت "إمبابة" لـ"رمضان" بمثابة حقل خصب لامتداد طفولته المدللة، حيث استقبلته زوجة أخيه "فردوس" استقبالاً حافلاً، وكانت في سنوات حياته التالية خير أمّ وخير داعم له في كل ما واجه.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

56

كان "رمضـان" يعـاني دومًـا مـن غرابـة حكايـات أهلـه وعلاقاتـه العائليـة، فمـرت الأيـام عليـه في "مدينـة العـمال" تباعًـا، تتـوالى عليه نظـرات التعجـب مـن أهـل المدينـة، مـن هـذا الولـد الـذي لا يعلـم عنـه أحدنـا شـيئًا؟ مـن أيـن لهـم بطفـل في الخامسـة مـن عمـره؟ وأيـن كان قبـل ذلـك؟ لم يتكبـد أي منهـم حتـى عنـاء السـؤال عـن أصـل ظهـور هـذا الولـد. وبـدأ بعضهـم يعاملـوه بدونيـة واحتقـار غـير مبرريـن.

علمـت "فـردوس" في أحـد الأيـام التاليـة لعـزاء الحـاج "عـلي" أن عـم "محـرم" صاحـب معـرض السـجاد، الـذي يقبـع دكانـه عـلى ناصيـة شـارعهم، قـد أرسـل "رمضـان" ليقـضي لـه بعـض الطلبـات، فغضبـت وهاجـت وتناسـت تلـك الصـورة المدنيـة المتحـضرة التـي طالمـا حافظـت عليهـا، فخرجـت إلى الشـارع، وحين وصلـت إلى دكان

t.me/qurssan

السجاد صاحت بملء فيها في وجه عم "محرم"، كأنها توجه رسالتها لكل أهالي الشارع...

- "رمضان" ده يبقى ابني.. وابن سيد الناس.. مابيروحش يقضي مشاوير لحد.. وأي حد هاعرف إنه بعته يجيب له حاجة والله لأسمعه اللي عمره ما سمعه قبل كده!

مر هذا العام على "رمضان" من أسعد ما يكون، يصحبه أخوه "محيي"، الذي كان قد تخطى الستين وأحيل إلى التقاعد، في الصباح الباكر ليبتاعا أطباق الفول ولوازم الإفطار، ويمرا في طريق الرجوع على بائع الجرائد ليشتريا الطبعة الثانية من "الأهرام". يشعر دومًا بفائق الاحترام الذي يعامله الناس به بعد واقعة أمه الجديدة "فردوس" مع عم "محرم"، فيلعب أصدقاؤه الجدد معه أمام المنزل، ويمارس هو شقاوته ومقالبه الطفولية التي كان يتفنن فيها، بعد أن تأكد من قوة أمه الجديدة ودعمها الكامل له.

استمرت تلك الحياة المثالية لـ"رمضان" شهورًا، ذلك حين جاء موعد التحاقه بالمدرسة الابتدائية، فتقدم أخوه "محيي" بأوراق التحاقه لمدرسة "مدينة العمال"، وفي يومه الأول من الدراسة سأله الأستاذ "السوهاجي" مدرس اللغة العربية، كما كان يسأل كل الطلاب، عن مهنة أبيه فجاوب "رمضان" بتلقائية الأطفال..

- أبويا بيجيب فول!

t.me/qurssan

تعجب الأستاذ "السوهاجي" من رده، وابتسم ابتسامة خفية. فسأله مرة أخرى وطلب منه التوضيح، ظنًا منه أن أباه يعمل بائعًا للفول، فاستفاض "رمضان" في شرحه...

ـ أصل انت مش فاهم.. أصل انا أبويا يبقى أخويا.

وهنا هب الأستاذ "السوهاجي" واقفًا، وطلب من "رمضان" ألا يأتي في صبيحة اليوم التالي إلا مع أبيه.

وبالفعل حضر "محيي" في صباح اليوم التالي إلى المدرسة واجتمع بالأستاذ "السوهاجي"، ومعه عدة من اختصاصيي المدرسة، فلما بدأوا بسؤاله عن أجوبة "رمضان" الغريبة، لم يجد بدًا من أن يحكي لهم حكاية أبيه الحاج "علي" منذ البداية، فكان الأساتذة والأستاذات الذين جلسوا يستمعون للقصة يتعجبون وتعلو ضحكاتهم في لحظات، أو يألمون في أخرى، حتى فرغ "محيي" من سرد الحكاية، وقام من مجلس الأساتذة ذاك، واستأذنهم، وأوصاهم بـ"رمضان" خيرًا، ثم مر بفصله واستأذن مدرسه في أن يعفيه من الحصص المتبقية ليأخذه معه إلى المنزل.

خرج "محيي" من المدرسة ممسكًا بيد أخيه الأصغر "رمضان"، تفصله عنه ستون عامًا، أعمار وأجيال، وتجمعه به رابطة الدم وحكايات أكبر مما كان على علم بها، خرج مبتسمًا، سعيدًا بعد أن حكى قصة أبيه كاملة للمرة الأولى، ثم ذهب مع أخيه ليشتريا فولاً، والطبعة الثانية من جريدة "الأهرام" في طريق عودتهما إلى المنزل.

تمت

t.me/qurssan

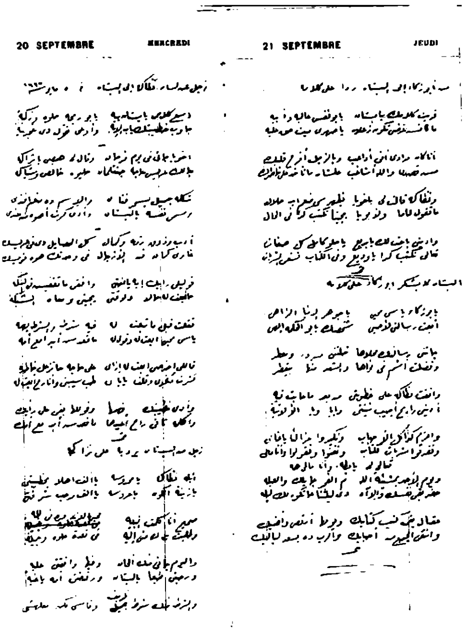

نص الأزجال بين "أبو ذكاء" و"البستان" عن زواج الأخير من "نظاكة" (1 من 2)

t.me/qurssan

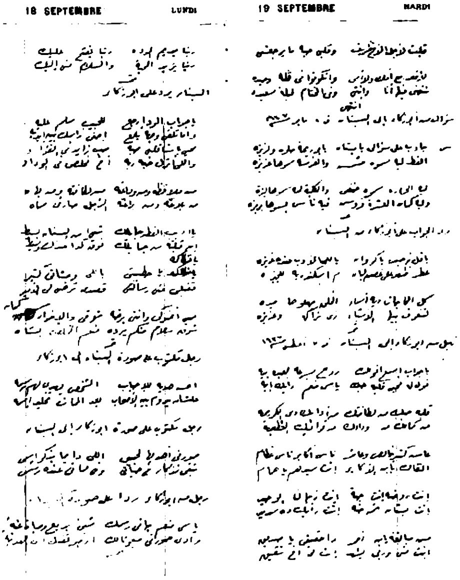

نص الأزجال بين "أبو ذكاء" و"البستان" عن زواج الأخير من "نظاكة" (2 من 2)

t.me/qurssan

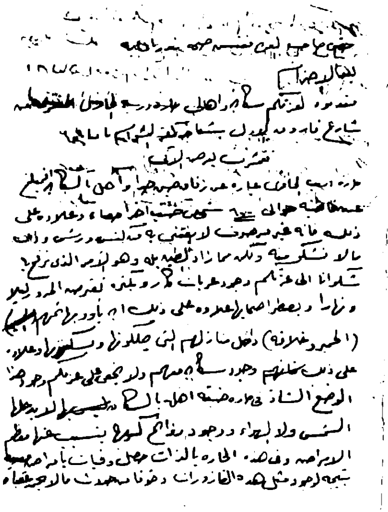
حضرة صاحب العزة مفتش صحة بندر إمبابة

بالجيزة

نص خطاب "محيي" لمفتش صحة بندر إمبابة (1 من 2)

t.me/qurssan

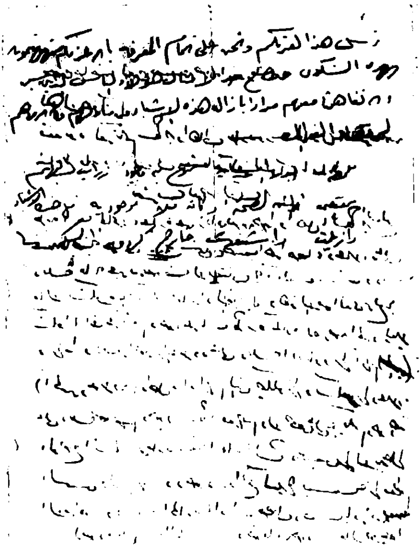

نص خطاب "محيي" لمفتش صحة بندر إمبابة (2 من 2)

t.me/qurssan

t.me/qurssan

شكر

جزيل شكري لـ..

أحمد خير - أحمد سعد - أسامة التلباني - أنور - إيمان أبوبكر - تامر عبد الحميد - دنيا كمال - حسين أحمد - أ/جعفر المصري - رضوى بشير - سالي أبو العز - عمرو مدحت - ليلى باظا - مجد زهران - أ/محمد السوهاجي - مخلوف - مروان قطب - مروة علي - مي محي - نهى حسن - هاني محسن - همسة عبد الله.

t.me/qurssan

"كانت آخرها حكاية عن إمرأة فاتنة مسحورة، أجمل من حواري الجنة، تزوجها "علي" لليلة واحدة فشفته بجمالها وحلت المربوط. أما المقربين منه فقد ظنوا أن ما حدث هو مباركة من الشيخ "إسماعيل الإمبابي" نفسه، فهو شيخه القديم، بل ساقهم ظنهم إلى أن الشيخ "إسماعيل" ذاته تجسد في صورة الشيخ "جعفر" ليساعد تابعه "علي" في ضائقته. أما ما فعله الشيخ "جعفر" بالحاج "علي" حقًا، وما حدث حقيقةً في هذه الرحلة، كان وسيظل سرًا لا يعلمه إلا الله واثنتيهم"

"لتتابع الأيام مفعول السحر، فعل الزمن فيها هادئ وحيّ، لا يضاهيه شيءٌ في مهارة فعله، نَدَبه الله ليقيم في البشر صفة النسيان، أوجدها الله فيهم واشتق لهم منها إسم "الإنسان"، ثم جعل الزمن عليها رقيبًا، على ألا يترك البشر على حالهم أبدًا، ينسيهم حالهم الذي كان، فيبدلهم حالًا غيره، ثم ينسيهم إياه مرة أخرى، يقلب قلوبهم ويغير هواها"

تصميم الغلاف: مخلوف/ ميجو

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

t.me/qurssan